الإعدادُ القيادِيُّ
بينَ سُورتَيْ
يُوسفَ والقصصِ

الكتاب: الإعداد القيادي بين سورتي يوسف والقصص

الكاتب: الأسير أيمن حسن فياض قفيشة

الطبعة الأولى - ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة

توزيع: مُؤَسَّسَةُ فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢

فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني: thaqafa@thaqafa.org

موقع المؤسسة على الإنترنت:

www.thaqafa.org

تصميم الغلاف والإخراج:

م. جمال الأبطح

الإعداد القيادي

بين سورتي يوسف والقصص

الأسير

أيمن حسن فياض قفيشة

سِجْن نَفْحَة الصَّحْرَاوِيّ

٢٠٠٩م

الإِهْدَاء

إلى أَهْلِ القُرْآن الذِينَ يَعْمَلوُن به

جَمَعُوهُ في صُدُورِهِمْ حِفْظاً

وَتَمَثَّلوُا تَعَالِيمَهُ فِكْراً وَسُلوُكاً

وَقَرؤُوا آياتِهِ فَهْماً وَتدَبراً.

إلى رُوحِ وَالدِي.....

رَحِمَهُ اللهُ وَأسكنَهُ الجِنَان.

شُكْرٌ وَتَقْدِير

لأخِي في اللهِ « أبُو حَمْزَة – مُحَمَّد أَبُو وَرْدَة »

حَفِظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ

لِمَا قَدَّمَهُ لي مِنْ مُسَاعَدَةٍ وَدَعْمٍ في إِنْجَازِ هَذَا البَحْثِ.

وَالشُّكْرُ مَوصُولٌ لِزَوْجَتِي الكَرِيمَة «أمّ عُبَيْدَة »

حَفِظَهَا اللهُ وَرَعَاهَا

لِوُقُوفِهَا دَوْمًا مُشَجِّعَةً وَدَاعِمَةً رُغْمَ بُعْدِ المَسَافَاتِ.

اللهُمَّ

يا مُؤْنِسَ كُلَّ غَرِيبٍ

وَيَا صَاحِبَ كُلِّ وَحِيدٍ

وَيَا مَلْجَأَ كُلِّ خَائِفٍ

وَيَا كَاشِفَ كُلِّ كُرْبَةٍ

وَيَا عَالِمَ كُلِّ نَجْوَى

وَيَا مُنْتَهَى كُلِّ شَكْوَى

وَيَا حَاضِرَ كُلِّ مَلأ

وَيَا حَيُّ يَا قَيُّومُ

أَسْأَلُكَ . . أَنْ تَقْذِفَ رَجَاءَكَ فِي قَلْبِي

حَتَّى لا يَكُونَ لي هَمٌّ

وَلا شُغْلٌ غَيْرُكَ

وَأَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ أَمْرِي فَرَجًا وَمَخْرَجًا

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . . . .

تقْدِيم

بِقَلَم الشَّيْخِ عَبْدِ الخَالِق النَّتْشَة «أبو جُبَيْر»

الحَمْدُ للّٰهِ نَحْمدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللّٰه، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ :

فمِمَّا لا شَكَّ فِيهِ أَنَّ حَضَارَةَ الأُمَمِ تُقَاسُ بما تُقَدِّمُهُ لِلبَشَرِيَّةِ مِنْ مَنَاهِجَ وَبَرَامِجَ وَخُطَطٍ، ترفع من شَأْنِ الإِنْسَانِ وَتأخذُ بِيَدِهِ إلى القِيَادَةِ وَالرِّيَادَة، وَبما تُحَقِّقُهُ من أَمْن وَاسْتِقْرَار لِمُجْتَمَعِها وَلا شَكّ أَنَّ الأَمْن وَالاسْتِقْرَار وَالازْدِهَار لا يَكُونُ الا إذا كَانَ نابعًا من رُؤَى وَاضِحَةِ المَعَالِم يَرْسِمُهَا الأفذاذُ وَالقَادَةُ وَالعُلَمَاءُ .....

ونَحْنُ، الشَّعْبَ الفِلَسْطِينِيَّ، الذي ينظر إلى العُلا وَيَبْحَثُ عن أملٍ لِمُسْتَقْبَلٍ آمِنٍ، وَاسْتِقْرَارٍ لأَبْنَائِهِ، وَحُرِّيَّةٍ لأَرْضِهِ وَمُقَدَّسَاتِهِ، يَفْخَرُ بما قَدَّمَهُ وَوضَعَهُ أَبْنَاؤُهُ من دِرَاساتٍ وَأَبْحَاثٍ في شَتَّى المجَالاتِ الإِنْسَانِيَّةِ

وَالحضاريَّة، وَيَزْدَادُ فَخْرُهُ بمَا يَصْنَعُهُ أَبْنَاؤُهُ المَعْتَقَلُونَ في سُجُون الاحْتِلال الذِينَ سَطَّرُوا بمدادٍ من نورٍ العديدَ من الدِّرَاسَاتِ وَالأبحاثِ، برُغْمَ القيدِ وَالقهرِ وَالتضييقِ وَقلةِ المصادرِ وَالمراجعِ العِلْمِيَّة، بَلْ منعها من الدخول إلى السِّجْنِ مِنْ قِبَلِ سَجَّانيهِمْ عَلَى الدوام، وَلَكِنَّ الإِرَادَةَ وَالعَزْمَ الذي يَتَحَلَّى بِهِ الأَسِيرُ الفِلَسْطِينِيُّ أكبرُ من كُلِّ القيودِ وَالأغلال، وَلهَذَا كَانَ نتاجهُمْ يحملُ رُوحَ التَّحَدّي، وَيمتازُ بالعنفوانِ الفِلَسْطِينِيّ بما يتلاءم مَعَ التَّحَدّيات التي أرادت كسر الرُّوحِ وَالمَعْنَوِيَّاتِ لَدَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ سَجَّانِيهِمْ .

وَقَدْ أطلعني الأَخُ الحبيبُ وَالصديقُ العَزِيزُ الأَسِير أيمن مُحَمَّد حسن قفيشة «أبو عُبَيْدَة» عَلَى بَحْثِهِ الجَدِيدِ الذي جاء ليكمل الطَّرِيقَ وَيرسم المَعَالِم، بَعْدَ أَنْ تحدث في بَحْثِهِ الأَوَّلِ عن ذاكرة الشَّهَادَةِ، وَفي بَحْثِهِ الثَّانِي عن أُمِّ سُلَيْم الصَحَابِيَّةِ الجليلة وَأَهْلِ بَيْتِهَا الكِرَامِ، وَفي بَحْثِهِ الثالث عن الصحابيِّ الجليل القَائِدِ الفَذِّ الذي أنعم الله عليه وَرَسُولُهُ ﷺ ذَلِكُمْ زَيْد بنُ حَارِثَة الذي سَطَّرَتِ الآيَاتُ الكَرِيمَة من كِتَابِ ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن قِصَّتِهِ المَشْهُورَةِ،ثُمَّ هَذَا البَحْثُ الذي ظهرتْ فيه ملامحُ شَخْصِيَّةِ الباحثِ المُثَقَّفِ المُطَّلِعِ الوَاعي الذي صقلتْ نَفْسَهُ القيودُ، وَزادَتْهُ المِحْنَةُ صَلابَةً، وَعَلَّمَتْهُ الأَيَّامُ أَنَّ الوَقْتَ هُوَ الحَيَاةُ، فَمَا أَضَاعَ وَقْتَهُ، وَلا فَوَّتَ فُرْصَةً يزداد فيها ثقافة وَوعيًا، فاطَّلَعَ عَلَى ما وَقع تحت يَدَيْهِ من أمَّهَاتِ الكُتُبِ وَالأَبْحَاثِ الحَدِيثَةِ، فَكَانَ هَذَا البَحْثُ ثمرةَ اطِّلاعَاتِهِ الوَاسِعَةِ وَخبرةِ السِّنِينِ التي قضاها في سِجْنِهِ مُوَجِّهًا وَمُعَلِّمًا، جَزَاهُ اللهُ خيرًا.

جاء هَذَا البَحْثُ في فُصُولٍ ستَّةٍ وَمُقَدِّمَة، جمَعَ فيها وَحَلَّلَ وَرَسَمَ شَخْصِيَّةِ القَائِدِ الذي يتطلع إِلَيْهِ كُلُّ شاب مسلم؛ لِيَكُونَ قدوةً له، وَنَحْنُ في أمسِّ الحَاجَةِ في هَذِهِ الأيَّامِ إلى قُدْوَاتٍ نَتَرَسَّمُ بخطاهُمْ وَنعمل بِعَمَلِهِمْ، وَقَدِ امتاز هَذَا البَحْثُ بِأَنَّهُ تحدَّثَ عن نَبِيَّيْنِ عَظِيمَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا قَدِ ابْتُلِيَ وَامْتُحِنَ وَسُجِنَ أَوْ أُبْعِدَ، طَارَدَتْهُ أَيْدِي الظَّلامِ، وَكادَتْ له أيدي الكَائِدِينَ، فَكَانَ قَدَرُ اللهِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ المتآمرين الكَائِدِينَ.

لمستُ في هَذَا البَحْثِ لمسةً حانيةً لِحَالِنَا نَحْنُ المُعْتَقَلِينَ، فيُوسُفُ عليه السلام كادَ له إِخْوَتُهُ، وَأَلْقَوهُ في الجُبِّ وَبيعَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، امْتُحِنَ أَشَدَّ الامْتِحَانِ في الهوى، فثبتَ وَحمد، اعْتُقِلَ وَسُجِنَ فَصَبَرَ، صقلتْهُ الأيَّامُ لِيَخْرُجَ قائدًا لأُمته وَمخلصًا لشعبِهِ من الانهيارِ الاقْتِصَادِيِّ، وَهَكَذَا نأمل من مُعْتَقَلِينَا الأبطال، وَشعرتُ في هَذَا البَحْثِ كَذَلِكَ شُعُورَ الغُرْبَة، شُعُورَ الهادب المُطَارَدِ الذي يلوذ بحمىً بَعِيدَةٍ عن دياره، ليشعرَ بالأمانِ فكَانَتْ أرضُ مدْيَنَ لِمُوسَى سكنًا وَأَمْنًا، فهَلْ لنا نَحْنُ المُعْتَقَلِينَ بَعْدَ هَذِهِ الغُرْبَةِ وَالمطاردةِ في وَطَنٍ آمنٍ وَحُرِّيَّة !!!.

هَذَا وَقَدْ أجادَ البَاحِثُ في ترتيبِهِ وَتَسَلْسُلِهِ الإِعْدَادَ القِيَادِيّ من خلال هَاتَيْنِ السُورَتَيْنِ (يُوسُفَ وَالقَصَصِ) من الطُّفُولَةِ إلى ريعانِ الشَّبَابِ وَرُجْحَانِ العَقْلِ، إلى الشَّيْخُوخَةِ بتَجَارِبِ الأيَّامِ وَالسِّنِينَ، لِيَكُونَ بَحْثًا متكاملاً في رَسْمِ صُورَةِ القَائِدِ الفَذِّ الذي يفكرُ وَيخططُ وَينظمُ وَيتدربُ ليَصِلَ إلى الهدفِ المنشودِ بتخليص الأُمَّةِ من نير الاضْطِهَادِ وَالإِرْهَابِ

إلى الحُرِّيَّة وَالاسْتِقْلال.

أَتَطَلَّعُ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ أَنْ أَرَى هَذَا البَحْثَ مَطْبُوعًا تَتَسَابَقُ الأجيالُ لاقتِنَائِهِ وَالاطِّلاعِ عَلَيْهِ وَالاسْتِفَادَةِ مِنْهُ فِي طَرِيقِ الحُرِّيَّة وَالاسْتِقْلالِ، وَجَزَى اللهُ مَنْ يَعْمَلُ وَيُسَاهِمُ فِي طِبَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ وَتَعْمِيمِ النَّفْعِ مِنْهُ .....

والسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ...

الشَّيْخ عبد الخَالِق حسن النتشة

سجن رامون ٢٩/٥/٢٠٠٧م

١٦/جمادى الأُولَى ١٤٢٨هـ.

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ جَاهَدَ جِهَادَهُ وَاتَّبَعَ هُدَاهُ. أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ خَلَقَ اللهُ ﷻ آدَمَ عليه السلام من طينٍ ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ﴾[1]، ثُمَّ نَفَخَ فيه من رُوحِهِ ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[2]، وَكرَّمه بالعِلْمِ ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]، وَأَرَاهُ مكانَهُ الكَرِيمَ بَيْنَ الخلائق،فأَسْجَدَ المَلائِكَةَ لَهُ ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾[4].

وَلَكِنَّ العِلْمَ وَحْدَهُ لَمْ يَكُنْ كافيًا لينجحَ في الخِلافَةِ عَلَى الأَرْضِ التي

١- سُورَة الحجر : الآيَة ٢٨.

٢- سُورَة الحجر : الآيَة ٢٩.

٣- سُورَة البقرة : الآيَة ٣١.

٤- سُورَة الكَهْفِ : الآيَة ٥٠.

خُلِقَ آدَمَ أصلاً لها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]،فزوَّده مَعَ العِلْمِ بِالتَّجْرُبَةِ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]. ونهاه عن الشَّجَرَةِ، فَأَغْوَاهُ الشَّيْطَانُ، فَهَدَاهُ اللّٰهُ إلى الأَرْضِ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[3].

وبالتَّجْرُبَةِ مَعَ العِلْمِ،كَانَ إِعْدَادُهُ للخلافة في الأَرْضِ، لِيَبْدَأَ آدَمُ عليه السلام قِيَادَةَ مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ لِلعَوْدَةِ للوطنِ من حَيْثُ أُهبط وَزَوْجَهُ، وَكَانَتِ البِدَايَةُ من الجَنَّةِ ليتواصل الشوق وَالحنين إِلَيْهَا، فَكَانَ بِالعِلْمِ وَالتَّجْرُبَةِ أَهْلاً للخلافة في الأَرْضِ.

وتواصَلَ الرَّكْبُ الكَرِيمُ من الرُّسُلِ يَقُودُونَ البَشَرِيَّةَ لِلعَوْدَةِ إلى اللّٰهِ عز وجل وِفْقَ مَنْهَجِهِ عز وجل يُزَوِّدُهُمْ بِالعِلْمِ (وَحْيًا) ويمدهُمْ بالتَّجْرُبَةِ (ابْتِلاءً) فيعدهُمْ لقِيَادَةِ البَشَرِيَّةِ، كُلُّ نَبِيٍّ في قَوْمِهِ، في زَمَانٍ ومكانٍ وظُرُوفٍ ومَرْحَلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، رِسَالَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

١- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٥٠.

٢- سُورَة البقرة : الآيَة ٣٥.

٣- سُورَة طه : الآيَة ١١٥.

٤- سُورَة الأعراف : الآيَة ٥٩.

وَمَهَمَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَخْتَلِفُ عن الآخَرِ، يؤدي فيها دَوْرًا ضمن مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ لتتهيأ لاستقبال رِسَالَةِ الخَاتِمِ مُحَمَّد بن عبد اللّٰه ﷺ بَعْدَ أَنْ تَبْلغ البَشَرِيَّةُ رشدها. وَمثَّل الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ السَّلامُ- النَّمَاذِجَ العُلْيَا فِي تاريخ البَشَرِيَّةِ، وَمَثَّلُوا القدواتِ العَمَلِيَّةَ لأَقْوَامِهِمْ وَأجيالِ البَشَرِيَّةِ من بَعْدِهِمْ،يقود كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ وَيرتقي بِهِمْ لِيَكُونُوا مُهَيَّئِينَ لِلمَرْحَلَة التالية من مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ التي يبعث فيها نَبِيٌّ آخَرُ يُوَاصِلُ المَسِيرَةَ،حَتَّى كَانَتْ مَرْحَلَةُ الرشد البَشَرِيِّ التي قاد البَشَرِيَّةَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ بن عبد اللّٰه ﷺ.

وَكَانَ لا بُدَّ لِلنَّبِيِّ الخَاتِمِ الذي وَرِثَ رِسَالَةَ التَّوْحِيدِ التي جاء بها إِخْوَانُهُ الأَنْبِيَاءُ عبر التاريخ من لَدُنْ آدَمَ عليه السلام أَنْ يرثَ تَجَارُبَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ التي مثَّلتْ أعظمَ وَأقسى تَجَارُبِ التَّغْيِيرِ وَالإِصْلاحِ التي خاضها المُصْلِحُونَ، وَقَدْ لاحَظْتُ عبر دراستي لما كُتبَ من دراساتٍ فِي التَّنْمِيَةِ البَشَرِيَّةِ وَإِعْدَادِ القَادَةِ وَتحسينِ أدائِهِمْ أَنَّ القَصَصَ الذي يَتَنَاوَلُ تَجَارُبَ قَادَةٍ حَقَّقُوا النَّجَاحَ بَعْدَ معاناةٍ وَمشقاتٍ وَمُحَاوَلاتٍ مُضْنِيَةٍ فَصَبَرُوا وَثبتوا حَتَّى أَفْلَحُوا فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ وَغاياتِهِمْ ، هَذَا القَصَصُ يُمَثِّلُ غَالبَ مَادَّةِ هَذِهِ الكُتُبِ؛ ذَلِكَ أَنَّنِي أَرَى أَنَّ أفضلَ الأساليبِ لصناعةِ القَادَةِ وَتنميةِ قدراتِهِمْ هُوَ الاعتبارُ بقَصَصِ مَنْ سَبَقَ عَلَى الطَّرِيقِ.

وهَذَا الهدفُ الأساسُ من سَرْدِ القَصَصِ القُرْآنِيّ قَصَصِ التَّغْيِيرِ وَالإِصْلاحِ وَالنُّهُوضِ التي قَادَهَا الأَنْبِيَاءُ وَالمُصْلِحُونَ عَبْرَ مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[1]. أَيْ أَنَّ المرادَ من هَذَا القَصَصِ القُرْآنِيِّ التأمُّلُ وَالتَّفَكُّرُ وَالاعْتِبَارُ، وَهُوَ الحَالَةُ التي يتواصَلُ بها الإِنْسَانُ من مَعْرِفَةِ المُشَاهَدِ إِلَى ما لَيْسَ بِمُشَاهَدٍ، وَالمرادُ منْهُ التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّرُ[2].

وَالأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ السَّلامُ- هُمُ الأَشَدُّ بلاءً؛ لأَنَّهُمُ الأَحْوَجُ للتَّجْرُبَةِ لأَنَّهُمْ سَيَقُودُونَ خُطَى البَشَرِيَّةِ في مَرْحَلَة من المَرَاحِل، وَالقِيَادَةُ تحتاج إِعْدَادًا لا يَكُونُ إلا عبر دَوْرَاتٍ قاسيةٍ يعانيها الإِنْسَانُ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا أَقْدَرَ عَلَى مُمَارَسَةِ المَهَمَّة الموكَلَةِ إِلَيْهِ، وَلهَذَا يمكننا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الأَنْبِيَاءَ أَشَدُّ النَّاسِ بلاءً؛ أَيْ أكثرُهُمْ إِعْدَادًا للقِيَادَةِ، فالابْتِلاءُ إِعْدَادٌ لمَهَمَّة القِيَادَةِ، وَلَكِنَّ النُّبُوَّةَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ اصطفاءٌ منَ اللهِ ﷻ لعبدٍ من عباده يَعْلَمُهُ أَهْلاً لذَلِكَ دُونَ تَطَلُّعٍ منه أو انْتِظَارٍ لذَلِكَ، وَالقِيَادَةُ في الأصل مَوْهِبَةٌ تنميها التَّجْرُبَةُ وَترتقي بِصَاحِبِهَا، وَبَعْدَ كُلِّ نَبِيٍّ يطولُ عَلَى النَّاسِ الأمد، وَتقسو القلوبُ، وَتَنْحَرِفُ الفطرةُ فَتَكُونُ الحَاجَةُ لمن يقودُ فيجددُ وَيصلحُ وَيقوّمُ الاعوجاجَ، منطلقًا بما وَرث من عِلْمِ النُّبُوَّةِ (الوَحْي) وَيزوِّدُهُ اللهُ ﷻ بالتَّجْرُبَةِ (ابْتِلاءً) فَيُعَدُّ للقِيَادَةِ لِيَكُونَ من وَرثة الأَنْبِيَاءِ، وَهُمُ الأمثل بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ إِعْدَادُهُمْ (ابتلاؤُهُمْ) الأَشَدَّ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لأَنَّ مَهَمَّتَهُمْ

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١١١.

٢- «الفتوحات الإلهية» ٢٠/٤٨٧.

القِيَادِيَّةَ هِيَ الأشقُّ وَالأَخْطَرُ وَالأعظمُ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ. «أَشَدُّ النَّاسِ بلاءً الأَنْبِيَاءُ..... » أعظمهُمْ إِعْدَادًا لخُطُورَةِ دَوْرِهُمْ.

«ثُمَّ الأمثلُ فالأمثلُ»...وَهُمْ وَرثة الأَنْبِيَاءِ.

«يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حسب دِينِه» ... يُعَدُّ للمَهَمَّة وِفْقَ أَهْلِيَّتِهِ.

«فإِنْ كَانَ فِي دِينِه صلابة» ... يزداد دَوْرُهُ القِيَادِيّ.

«اشتَدَّ بلاؤُه» ... إِعْدَادُهُ للقِيَادَة.

«وَإِنْ كَانَ فِي دِينِه رقّة» .. يقلُّ دَوْرُهُ القِيَادِيّ.

«ابتُلِيَ عَلَى قَدْر دِينِه»..... إِعْدَادٌ ثانوي.

«فما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ»... الارتقاءُ من درجة إلى درجة.

«حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1]. إِنَّهُ إِعْدَادٌ لِمُسْتَوى عَظِيمٍ، يَشْمَلُ جوارِحَهُ كُلَّهَا باطنَةً وَظَاهِرَةً، حَتَّى صار يمشي بَيْنَ النَّاسِ مُزَوَّدًا بِالعِلْمِ وَالتَّجْرُبَةِ (عَارِفًا) بما يَعْصِمُهُ مِنَ الخَطَأ «المَعْصِيَة» وَمُؤَهَّلاً للصَّوابِ (الطَّاعَة) فيستحق القِيَادَة (الإِمَامَة) لِلنَّاسِ ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾[2]. لَقَدِ اختبرَهُ وَامْتَحَنَهُ لِيُظهرَ صِدْقَهُ وَإِيمانَه فنجح فِي اجتيازها بامتياز ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾[3].

١- «صحيح البخاري» ص ١٧٣٨١ .

٢- سُورَة البقرة : الآيَة ١٢٤.

٣- سُورَة البقرة : الآيَة ١٢٤.

فَاستحقَّ أنْ يَكُونَ قائدًا وَقدوة وَإمَامًا ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[1].ورغبَ أنْ تَكُونَ القِيَادَةُ (الإمَامَة) في ذُرِّيَّتِه يَتَوَارَثُونَهَا ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2]،فَالقِيَادَةُ (الإمَامَةُ) لمنْ أُهِّلَ لَهَا وَنَجَحَ في الابْتِلاءِ (الإعْدَاد) فالإمَامَةُ قِيَادَةٌ .

فالابْتِلاءُ .... إعْدَادٌ.

صَلابَةُ الدِّينِ.... إعْدَادٌ أكْبَرُ.... مَهَمَّةٌ أكْبَرُ.

رِقَّةُ الدِّينِ.... إعْدَادٌ أقل.... مَهَمَّةٌ ثَانَوِيَّةٌ.

تَوَاصُلُ البَلاءِ .... ارْتِقَاءٌ مُتَوَاصِلٌ مِنْ دَرَجَةٍ إلَى دَرَجَةٍ.

ما عليه خطيئة.... مستوى إعْدَاد مثالي ظاهر وَباطن.

القَصَصُ القُرْآنِيُّ .... تَجَارُبُ.... إعْدَادٌ فَرْدِيٌّ وَجَمَاعِيٌّ.

عِبْرَةٌ.... اسْتِخْلاصٌ وَتَأمُّلٌ لِنَقْلِ التَّجْرُبَةِ وَتَطْبِيقِهَا بِصُورَةٍ جَدِيدَةٍ في بِيئَةٍ وَظُرُوفٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَأُولُو الألبابِ .... الذينَ يقرؤون بتدبر وَتأمل وَيَجْمَعُونَ فَهْمَ الكِتَابِ المقروء(القُرْآنِ) وَفَهْمَ الكِتَابِ المَشْهُودِ (الواقع) في الكَوْنِ من حَوْلِهِمْ، وَهَـؤُلاءِ الذينَ جمعوا بَيْنَ فَهْمِ الكِتَابِ وَفَهْمِ الواقع هُمُ القادرون عَلَى التَّغْيِيرِ لأنَّهُمْ فَهِمُوا السُّنَنَ الكَوْنِيَّةَ، وَلَكِنْ مَنِ الذي يُسَخِّرُهَا في عَمَلِيَّةِ

١- سُورَة البقرة : الآيَة ١٢٤.

٢- سُورَة البقرة : الآيَة ١٢٤.

التَّغْيِيرِ؟!!! ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[1].

إِنَّهُمُ الرُّسُلُ، وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالسُّنَنِ، وَأكثرُهُمْ أَهْلِيَّةً للقِيَادَة، وَقَدْ فضَّل اللهُ ﷻ بعضَهُمْ عَلَى بعضٍ في التَّجْرُبَةِ وَالكفاءةِ وَالقدراتِ، رُغْمَ أَنَّهُمْ جميعًا مُتَسَاوُونَ من حَيْثُ أصلُ الرِّسَالَةِ وَالعصمةِ وَالاصطفاءِ من اللهِ ﷻ لتبليغِ رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا التفاضُلُ ضرورةٌ ناتجةٌ عن اخْتِلافِ مَهَمَّة وَبِيئَةِ وَزَمَانٍ وَمكانِ كُلِّ رِسَالَة!!

وهَذِهِ الخلاصةُ التي قادَني إِلَيْهَا تَدَبُّري وَتَأَمُّلِي لِسُورَتَيْ القَصَصِ وَيُوسُفَ عبرَ سَنَوَاتٍ من التَّضْحِيَةِ وَالمُعَايَشَةِ لكُلِّ كَلِمَةٍ وَآيةٍ وَلَفْتَةٍ وَبَحْثٍ في كُلِّ ما كُتِبَ من تفاسيرَ وَدراساتٍ قرآنيةٍ، حَتَّى صرتُ آكُلُ وَأصلي وَأنامُ وَالأفكارُ تَشْغلُنِي وَالمَعَانِي تَتَوَارَدُ عَلَى قلبي.

وَكَانَ لوُجُودِي في السِّجْنِ عظيمُ الأثَرِ في هَذِهِ الدِّرَاسَةِ؛ ففِي السِّجْنِ الفَراغُ من حَيْثُ توفر الوَقْتِ للقِرَاءَةِ وَالتَّحَدّي الذي يستفزُّكَ وَيُحَرِّكُ أفْكَارَكَ . فَنِعْمَةُ الفَرَاغِ التي يَعِيشُهَا الأسِيرُ في سِجْنِهِ وَشُعُورُ التَّحَدّي الذي يفرضُهُ السَّجَّانُ عليه، يدفَعَانِ لمزيدٍ من التَّحَدّي ليثبتَ لنَفْسِهِ قَبْلَ أنْ يثبتَ لسجّانِه أنَّ السِّجْنَ وَالقيدَ لن يهْزِمَهُ وَلنْ يَفتَّ مِنْ عَضُدِهِ أَوْ يَكْسِرَ مِنْ إِرَادَتِهِ.

١- سُورَة الإسراء : الآيَة ٥٥.

وأذْكرُ أوَّلَ أيَّامِ دُخُولي سِجْنَ نَفْحَة عَامَ ١٩٩٩م كَيْفَ اسْتَفَزَّنِي القَهْرُ وَالظُّلْمُ وَالبَطْشُ في السِّجْنِ، فَكَتَبْتُ خاطرةً في مُفَكِّرَتي تُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِ التَّحَدّي وَالغَضَبِ، قُلْتُ فيها: (تَحْتَضِنُ صَحْرَاءُ النَّقَبِ جَنُوبَ فِلَسْطِينَ «سِجْنَ نَفْحَة» تُرْضِعُهُ الجفَافَ وَالقَسْوَةَ... وَعَلَى حَرَارَةِ رَمْلِهَا تَنْضجُ مَعَادِنُ الرِّجَالِ لتَكْتَسِبَ الصَّلابَةَ وَالخُشُونَةَ.... وَتُحَدِّثُكَ الرِّياحُ المُحَمَّلَةُ بِحُبَيْبَاتِ الرَّمْلِ عن طَبِيعَةِ الحَيَاةِ التي تنتظركَ بَيْنَ جُدْرَانِ سِجْنِهَا، تُلَخِّصُهَا كَلِمَاتُ الصِّرَاعِ... فلا تكادُ تَشْعرُ لحظةً بهدوءٍ أوْ مُهَادَنَةٍ... طُبُولُ الحَرْبِ تُقرَعُ لَيْلَ نهَار، وَالسَّجَّانُ ينتهزُ كُلَّ فُرْصَةٍ سانِحَةٍ ليَغْرِزَ في الجسَدِ الاعْتِقَاليِّ أنْيابَهُ وَمخَالِبَهُ... وَالرِّيحُ لا تهادِنُ أبَدًا، شِتَاؤُهَا قَارِصٌ وَصَيْفُهَا لاهِبٌ، إياكَ أنْ تَرْكنَ للهُدُوءِ... إنَّ أحدًا لنْ يرحمَكَ... هُنَا صَحْرَاءُ النَّقَبِ... لَكِنْ لا تجزعْ، فرملُ صَحْرَائِنَا يَعْشَقُ دماءَ الشُّهَدَاءِ وَيَحْتَضِنُ بِدِفْئِهِ طَهَارةَ أجسادِهِمُ الغَضَّةِ... أقْدِمْ لا تَتَرَدَّدْ... أفْصِحْ لا تَتَلَعْثَمْ. لقَدْ وَطِئَتْ قَدَمَاكَ صَحْرَاءَ الوُضُوحِ..... لا سَوَاتِرَ، وَلا مَخَابِئَ، وَلا حَتَّى مُنَاوَرَة.... فالمَعْرَكَةُ هُنَا وَجْهًا لِوَجْهٍ) .

وها هُوَ العَامُ العاشرُ تُؤذن شمسُهُ بالمغيبِ خلفَ قضبانِ السِّجْنِ، وَلا يزدادُ السَّجَّانُ إلا بَطْشًا وَتَجَبُّرًا، وَلا تَزْدَادُ نَفْحَةُ إلا لهيبًا وَقيظًا، لا يخفِّفُ هَذِهِ القَسْوَةَ إلا أُنْسِي بكِتَابِ اللهِ ﷻ الذي أنْعم اللهُ بِهِ عليَّ بِصُحْبَتِهِ، فشعرتُ معه بالأُنْسِ وَالحُبِّ وَالمَوَدَّةِ، وأشغلني عن أذى الأعْدَاءِ وَفراقِ الأحِبَّةِ وَالخلانِ، وَعشتُ أتلوه صباحَ مساءَ، مرَّةً بَعْدَ المَرَّةِ، وَفي كُلِّ تِلاوَةٍ

أجِدُ حَلاوَةً، وَفِي كُلِّ كَلِمَةٍ أَجِدُ الجَدِيدَ من المَعَانِي، وَمَعَ كُلِّ سُورَةٍ تتفتح أَمَامِي آفاقٌ جَدِيدَةٌ ... فكُنْتُ أضَمُّ الكَلِمَةَ إلى الكَلِمَةِ وَالمعنى إلى المعنى وَأتوَسَّلُ إلى اللهِ ﷻ أنْ يَجْعَلَ قلبي طَاهِرًا نَقِيًّا لتَمَسَّهُ كَلِمَاتُ القُرْآنِ وَتثمر في جنباته مَعَانِي آيَاتِهِ الطَّاهِرَةِ.

فجَاءَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ حَوْلَ الإِعْدَاد القِيَادِيّ بَيْنَ سُورَتَيْ يُوسُفَ وَالقَصَصِ ثمرةً من ثمرات هَذِهِ الصُّحْبَةِ مَعَ كِتَابِ اللهِ ﷻ، أسأله أنْ أجدها في ميزانِ أعْمَالِي يَوْمَ ألقاهُ ﷻ وَأنْ تَكُونَ خَالِصةً لِوَجْهِهِ مُتَقبَّلةً عِنْدَهُ، وَأنْ ينفعَ بها القارئَ الكَرِيم، وَرُبَّ ناقِلٍ عَلَّمَ لمَنْ هُوَ أعْلَمُ منهُ.

وقَدْ قَسَّمْتُ البَحْثَ إلى سِتَّةِ فُصُولٍ إضافةً للمُقَدِّمَةِ التي تَنَاوَلْتُ فيها ظُرُوفَ كِتَابَةِ هَذَا البَحْثِ وَأهَمِّيَّةَ القَصَصِ القُرْآنِيّ في نقلِ تَجَارُبِ الأنْبِيَاءِ وَالمُصْلِحِينَ ليرِثَهَا وَارِثُ نُبُوَّتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

الفَصْلُ الأَوَّلُ: تَنَاوَلْتُ قَضِيَّةَ تزامن نُزُولِ القَصَصِ مَعَ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ في مَكَّة وَالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَظُرُوفَ الدَّعْوَةِ وَقْتَ النُّزُولِ لِكُلٍّ من سُورَتَيْ يُوسُفَ وَالقَصَصِ، مَعَ توضيحِ تَنَاسُبِ قَصَصِهِمَا مَعَ ظُرُوفِ الدَّعْوَةِ وَقْتَ النُّزُولِ.

الفَصْلُ الثَّاني: أوْضَحْتُ فيه وَحْدَةَ الرِّسَالَةِ للأنْبِيَاءِ جميعًا بما اشْتَمَلَتْ عليه من التَّوْحِيدِ وَالبعثِ وَالحسابِ وَالنُّبُوَّةِ وَعالم الغيبِ رُغْمَ اخْتِلافِ مَهَمَّة كُلٍّ منهم ، فَجَاءَتْ رِسَالَتُهُمْ مُتَنَاسِبَةً مَعَ حَالِ القَوْمِ الذينَ

أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ وَالدَّرَجَةِ التي بلغَتْهَا البَشَرِيَّةُ وَقْتَ بعثتهمْ .

الفَصْلُ الثالثُ: ناقَشْتُ فيه سِمَاتِ كُلٍّ مِنْ يُوسُفَ ومُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلامُ- وأَهَمِّيَّةَ هَذَا الاخْتِلافِ بَيْنَهُمَا نَظَرًا لاخْتِلافِ مَهَمَّةِ وَظُرُوفِ بعثة كُلٍّ مِنْهُمَا.

الفَصْلُ الرابعُ: أَوْضَحْتُ فيه عَمَلِيَّةَ الاسْتِكْمَالِ التَّرْبَوِيِّ التي مرَّ بها كُلٌّ من يُوسُفَ وَمُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلامُ- وَتَأْثِيرَ ذَلِكَ في تَجْرُبَةِ وَقدراتِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

الفَصْلُ الخامسُ: اشْتَمَلَ عَلَى جوانبِ اخْتِلافِ زَمَانِ وَمَكَانِ وَظُرُوفِ بِعْثَةِ يُوسُفَ ومُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلامُ-، وَحَالِ قَوْمِهِمَا في كُلِّ فَتْرَةٍ من الفَتْرَتَيْنِ.

الفَصْلُ السادسُ: أَوْضَحْتُ فيه مَرَاحِلَ الإِعْدَادِ القِيَادِيّ لِيُوسُفَ وَمُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلامُ-، كما تَعْرِضُهُمَا السُّورَتَانِ.

تُوَضِّحُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ أوِ الرِّسَالَةُ عَمَلِيَّةَ إِعْدَاد نَبِيَّيْنِ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُعِدَّ كُلٌّ مِنْهُمَا لِمَهَمَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ في زَمَنٍ وَظُرُوفٍ وَأجواءٍ وَإِعْدَادٍ مُخْتَلِفَة، وَامتاز كُلٌّ مِنْهُمَا بسِمَاتٍ شَخْصِيَّةٍ عن الآخَرِ وَمَوَاهِبَ مُتَمَيِّزَةٍ، وَمرَّ بمَرَاحِلِ إِعْدَادٍ مُخْتَلِفَةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ شَخْصِيَّتِهِ وَمَهَمَّتِهِ التي أُرْسِلَ بها إلى قَوْمِهِ. وَلعل هَذِهِ الدِّرَاسَةَ تفتح آفاقًا جَدِيدَةً للباحثين في القَصَصِ

القُرْآنِيّ وَتكشفُ أبعادًا جَدِيدَةً للجانبِ الإنْسَانيِّ في القُرْآنِ وَسُنَنِ التَّغْيِيرِ الاجْتِمَاعِيِّ في الأُمَمِ وَالمُجْتَمَعَاتِ وَتَطَوُّرِهَا وَجُهُودِ المُصْلِحينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ.

وَأكتبُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ وَما أبرِّئُ نَفْسِي من رِياءٍ وَسُمْعَةٍ، وَلَكِنْ أسألُ اللّهَ ﷻ القبولَ لبضاعتي المُزْجَاةِ، وَالعَفْوَ وَالمغْفِرَةَ وَالتَّجَاوُزَ عن ضَعْفِي البَشَرِيِّ، وَعُـذْرِي أنَّها مَعَانٍ ظَنَنْتُهَا ذَاتَ قيمةٍ وَنَفْعٍ لأمَّتي، فَقيّدْتُهَا بِالسُّطُورِ لِيَنْتَفِعَ بها العَامِلُونَ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وَلعلَّ مَنْ يَأتي بَعْدِي يزيدُ هَذِهِ المَعَانِي وُضُوحًا وَبَيَانًا.

أَسْأَلُ مَوْلايَ ﷻ أَنْ يفتحَ عليَّ مِنْ عِنْدِهِ فُتُوحَ العَارِفِينَ، وَأَنْ يُعَلِّمَنِي من لَدُنْهُ، وَيمُنَّ عَليَّ وَعَلَى إِخْوانِيَ الأَسْرى بالفَرَجِ القَرِيبِ.

و اللّهُ المُوَفِّقُ وَالهَادِي إلى سَوَاءِ السَّبيلِ .

العبد الفقير إلى الله

أيمن حسن فياض قفيشة

سِجْن نفحة الصحراوي

٢٠٠٧/٢/٨م الموافق ١٩/محرم/ ١٤٢٨هـ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

مُرَافَقَةُ وَتزَامُنُ القَصَصِ مَعَ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ

﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

سُورَة هود: ١٢٠

مَفَاتِيحُ عَامَّةٌ

يُلاحِظُ المُتَدَبِّرُ لِسُورَتَيْ يوسف وَالقَصَصِ أَنَّ سُورَةَ يُوسُفَ تَبْدَأُ بمَشَاعِرِ الخَوْفِ التي تَتَمَلَّكُ يَعْقُوب عَلَى وَلَدِهِ من كَيْدِ إِخْوَتِه. فيما تَبْدَأُ سُورَةُ القَصَصِ بمَشَاعِرِ الخَوْفِ التي تَتَمَلَّكُ أُمَّ مُوسَى عَلَى وَلَدِهَا من بَطْشِ عَدُوِّهِ فِرْعَوْنَ، إِخْوَةُ يُوسُفَ يلقونه في غياهب الجُبِّ وَأُمّ مُوسَى تُلقيه في اليمّ، تلتقط السَّيَّارَةُ يوسفَ منَ الجُبِّ، وَيلتقطُ آلُ فِرْعَوْنَ مُوسَى من اليَمِّ، وَيَنْتَقِلُ يُوسُفُ إلى قَصْرِ عَزِيز مِصْرَ، وَيَنْتَقِلُ مُوسَى إلى قَصْرِ فِرْعَوْنَ مِصْرَ، الزَّوْجُ يَتَوَسَّمُ في يُوسُفَ الخير، فيَقُولُ لِزَوْجِه:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْر لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وَتَتَوَسَّمُ الزَّوْجَةُ في قِصَّةِ مُوسَى الخير فتقول لِزَوْجِهَا: **﴿وَقَالَتِ امْرَأَة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا**

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٢١.

يَشْعُرُونَ﴾[1]. إلا أنَّ امْرَأَةَ العَزِيز تَصْمِتُ، وَيَكُونُ لها مَعَ يُوسُفَ شَأْنٌ، وَفِرْعَوْنُ يَصْمِتُ وَيَكُونُ له مَعَ مُوسَى شَأْنٌ.

وَتَبْدَأُ مِحْنَةُ يُوسُفَ الثَّانِيَةُ بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَمِحْنَة مُوسَى تَبْدَأُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاستوى . وَيَنْتَقِلُ يُوسُفُ من نعيمِ القَصْرِ وَرَغَدِ العَيْشِ إلى وَحْشَةِ السِّجْنِ وَقَسْوَتِه، وَيَنْتَقِلُ مُوسَى بَعْدَ القَصْرِ وَرغد العيش إلى وَحْشَةِ الغُرْبَة وَقَسْوَةِ الرَّعْيِ في مِدْيَنَ .

وَيَلْتَقِي يُوسُفُ في السِّجْنِ بِفَتَيَيْنِ، وَيَلْتَقِي مُوسَى في الغُرْبَة بِفَتَاتَيْنِ. وَيغادر الفَتَيَانِ، وَتَكُونُ عَوْدَةُ أَحَدُهُمَا مِفْتَاح الفرج، وَتغادر الفَتَاتَانِ ، وَتَكُونُ عَوْدَةُ إحداهُمَا مِفْتَاحَ الفَرَجِ، يَدْعُوهُ أحدُهمَا للقاء المَلِك، وَتَدْعُوهُ إحداهُمَا للقاء أبيها. وَيحْسِنُ يُوسُفُ لِلرَّجُلَيْنِ، وَتَكُونُ مَوْهِبَةُ التَّأْوِيلِ سَبَبًا لِلنَّجَاة. وَيحْسِنُ مُوسَى لِلمَرْأَتَيْنِ، وَتَكُونُ قُوَّتُهُ سَبَبَ النَّجَاة .

وَيُزَكّي يُوسُفُ نفسَهُ أَمَامَ المَلِك: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[2]. وَالفَتَاةُ تُزَكِّي مُوسَى أَمَامَ أبيها: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾[3]. وَنُلاحِظُ أَنَّ المَرْأَة في يُوسُفَ شَبِقَةٌ شَهْوَانِيَّةٌ، وَفي القَصَصِ فَاضِلَةٌ عَفِيفَةٌ حَيِيَّةٌ.

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٩.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٥.

٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٦.

وَيَنْتَقِلُ يُوسُفُ ببَنِي إِسْرَائِيلَ من فِلَسْطِين إلى مِصْرَ، وَيَنْتَقِلُ مُوسَى ببَنِي إِسْرَائِيلَ من مِصْرَ إلى فِلَسْطِين.

إِنَّ تَدَبُّرَ هَذِهِ المُلاحَظَاتِ وَفَهْمَ فَحْوَاهَا وَالمقْصَد منها سَيَكُونُ المِفْتَاحَ لِفَهْمِنَا لعَمَلِيَّةِ الإِعْدَاد القِيَادِيِّ كما تَعْرِضُهُمَا سُورَتَا يُوسُفَ وَالقَصَصِ النَبِيَّيْنِ الكَرِيمين من أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمَا مُوسَى وَ يُوسُفُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ.

مُلابَسَاتٌ رَافَقَتْ نُزُولَ السُورَتَيْنِ

لا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ القَصَصُ في القُرْآنِ بهَذِهِ الوَفْرَةِ، وَأَنْ يَشْغلَ كُلَّ هَذَا الحَيِّزِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، فقَدْ كَانَ للقَصَصِ دَوْرٌ أساسيٌّ في تَثْبِيتِ فُؤَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ الأطهار، فَكَانَ ﷺ يَرَى مُعَانَاة أسلافِهِ من الأَنْبِيَاءِ وَالمُصْلِحِينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، بالإِضَافَةِ إِلَى هَذَا فَإِنَّ القَصَصَ كَانَ يمثل ذخرًا تجريبيًا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَمُدُّهُ بتَجَارُبِ مَنْ سَبَقَهُ عَلَى الطَّرِيقِ لِيَتَعَلَّمَ منها، وَيكتبَ التَّجْرُبَةَ في مواجهته مَعَ قَوْمِهِ وَحمله للرِّسَالَةِ التي كَانَتْ أعظم وَأشقَّ رِسَالَةٍ يحملها نَبِيٌّ من أَنْبِيَاءِ اللهِ للبشرية.

ولأَنَّ رِسَالَتَهُ وَنُبُوَّتَهُ كَانَتْ خاتمةَ الرِّسَالاتِ وَالنُّبُوَّات وَوَرِيثَتَهَا فلا بُدَّ أَنْ يزوده القُرْآنُ بتَجَارُبِ كُلِّ مَنْ سبقه لقِيَادَة البَشَرِيَّةِ من الأَنْبِيَاءِ وَالمُصْلِحِينَ، لِيَكُونَ الوارثَ لتَجَارُبِهم جَمِيعًا، فَكَانَ الوارثَ لِرِسَالَتِهِمْ جَمِيعًا.

وَكَانَ وُرُودُ القَصَصِ في القُرْانِ يَتَنَاسَبُ مَعَ ما يُعَايِشُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيعانيه مَعَ قَوْمِهِ من إيذاءٍ وَتكذيبٍ لِيَكُونَ ذَلِكَ أبلغَ في تثبيت فؤادِهِ وَإِكسابِهِ التَّجْرُبَةَ، وَوضعها في مُتَنَاوَلِ يَدِهِ وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَيْهَا: ﴿**وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ**

مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

لما ذَكَرَ اللهُ ﷻ في سُورَة هود قَصَصَ الأُمَمِ الماضيةِ وَالقرونِ الخَالِيةِ وَما جَرَى لهم مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ خاطب نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ: «كُلاً نَقُصُّ عليك يا مُحَمَّد من أَنْبَاءِ وَأخبارِ الرُّسُلِ، وَما جرى لهم مَعَ قَوْمِهِمْ ما نُقوّي بِهِ قلبك لِتَصْبِرَ عَلَى أذى قَوْمِك، وَتتأسى بِالرُّسُلِ الذينَ خَلَوْا من قبلك؛ لأَنَّهُ إذا سمِعَ هَذِهِ القَصَصَ وَعَلِمَ أَنَّ حَالَ الأَنْبِيَاء مَعَ أتباعهم هَكَذَا، تُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَحَمُّلَ الأَذَى من قَوْمِهِ، وَأَمْكَنَهُ الصَّبْر عليه، وَنَقُصُّ عليكَ من أَنْبَاءِ الرُّسُلِ كُلاً، أَيْ كُلُّ ما تحتاجُ إِلَيْهِ وَهُوَ الذي نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ، وَهُوَ ما تحتاجُ إِلَيْهِ بزيادَةِ يَقينِكَ وَطُمَأْنِينَةِ قَلْبِكَ وَثَبَاتِ نَفْسِكَ عَلَى أَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَاحْتِمَالِ أَذَى الكُفَّارِ» [2].

فَالقَصَصُ يَنْزِلُ في القُرْآنِ مُفَرَّقًا، حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ حَاجَةُ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ هَدَفُهُ مُجَرَّدَ التَّسْلِيَةِ وَالقِصّةِ بِحَدِّ ذاتها، بَلْ إِنَّ القَصَصَ من أَهَمِّ وَسَائِلِ الإِعْدَاد وَالتأهيل للقَادَة لإكسابهم التَّجْرُبَةَ، حَتَّى إِنَّ بعضَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ يَرَى «أَنَّ مِفْتَاحَ القِيَادَة هُوَ الاتِّصَالُ الفَعَّالُ مِنْ خلال الرِّوَايَةِ

١- سُورَة هود : الآيَة ١٢٠.

٢- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٣٢.

الجَيِّدَةِ للقِصَّةِ»[1].

ويُؤَكِّدُ الإمَامُ أحمدُ بنُ حنبل رَحِمَهُ اللّٰهُ أَهَمِّيَّةَ القَصَصِ وَحَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهَا رُغْمَ معانَاته الشَّدِيدَةِ من كذب القُصَّاصِ في عَصْرِه، فيَقُولُ متألمًا: «ما أَحْوَجَ النَّاسَ إلى قَاصٍّ صَدُوقٍ»[2]، وَنلمس في حياتنا الواقعيَّةِ أَهَمِّيَّةَ القَصَصِ وَشِدَّة تَأْثِيرِه في أَنْفُسِنَا، فتمرُّ عشرات السِّنِينِ عَلَى سماعنا لقِصَّةٍ مؤَثِّرَةٍ، وَعِنْدَمَا نواجه تَجْرُبَةً ما نَتَذَكَّرُ تِلْكَ القِصَّةَ وَما كَانَ فيها من عِبْرَةٍ تخص ما نَحْنُ فيه، وَلرُبَّمَا كُنَّا وَقْتَ سماعها أطفالاً صغارًا.

وكُلَّمَا كَانَتِ القِصّةُ حقيقيّةً مِنَ الوَاقِعِ كَانَتْ فَائِدَتُهَا أَعْظَمَ وَأَثَرُها في النَّفْسِ أبلغ، وَلهَذَا تلجأ الكُلِّيَّاتُ العَسْكَرِيَّةُ لاستقدام المُخَضْرَمِينَ من القَادَة العَسْكَرِيِّينَ لِلمُحَاضَرَةِ لِقَصِّ تَجَارُبِهم الميدانيّةِ في الحروبِ وَالمعارك أَمَامَ الضُّبَّاطِ الجُدُد، بَلْ إِنَّ التَّجْرُبَةَ عَلَّمَتْنَا أَنَّ أحاديثَ وَقَصَصَ قَادَة الدَّعْوَةِ وَالجهاد أَمَامَ الدُّعَاةِ الجُدُدِ أبلغُ من مئاتِ الكُتُبِ وَالمقَالاتِ؛ لأَنَّهَا من وَاقعِ الحَيَاةِ.

فإذا أضيفَ إلى الوَاقِعِيَّةِ جَوْدَةُ الأَدَاءِ كَانَ تَأْثِيرُ القَصَصِ مُذْهِلاً، فَتَجِدُ الأطفالَ يحبسون أَنْفُسَهُمْ وَأَنْفاسَهُمْ وَيترُكُونَ ألعابهم لسَمَاعِ قِصَّةٍ مُشَوِّقَةٍ من الأُمِّ بأسلوبها السَّاحِرِ الأَخَّاذ.

١- «العقول القَائِدة» هوارد جاردز.

٢- «تلبيس إبليس» ابن الجوزي ، ص ١٢٠.

والقُرْآنُ يَقُصُّ علينا قَصَصًا وَاقِعِيَّةً وَقعتْ في فتراتٍ وَأَمَاكِنَ مُتَنَوِّعَةٍ ليجدَ فيها النَّبِيُّ شتى احتياجاتِهِ في كُلِّ مَوْقِفٍ يواجهه بأسلوبٍ وَأَدَاءٍ تتقاصرُ أَمَامَهُ وَتصْغُرُ بَلاغَةُ البُلَغَاءِ وَفَصَاحَةُ الفُصَحَاءِ.

ولهَذَا يَذْكُرُ أحدُنا مَهْمَا تقدَّمَ بِهِ العمر قَصَصَ الطُّفُولَةِ التي سمِعَها من أُمِّهِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَلا تغيبُ عن ذاكرته، وَكُلَّمَا تَفَنَّنَتِ الأُمّ في أَدَاءِ القِصَّةِ لِوَلَدِهَا وَأَحْسَنَتِ اختيارَهَا للقِصَّةِ وَما فيها من جمال مَعَانِي الخير وَالبطولة وَالشجاعة وَالفضيلة كَانَ تَأْثِيرُهَا في الطفل أبلغَ وَأعظمَ.

وعلينا أَنْ نعيَ خُطُورَةَ هَذِهِ القَضِيَّةِ وَنوليَ الاهْتِمَامَ البالغَ لما نضعه في الآذانِ لأطفالنا من قَصَصٍ أحيانًا يَكُونُ تافهًا مُدَمِّرًا عن (الغُولَة) وَ(العَامُورَة) وَ (أبو رِجِل مَسْلُوخَة)، وَغيرها من السَّخَافَاتِ وَالقَصَصِ فارغة المضمون، وَلنملأ بدلها أفئدتهم وَعُقُولِهِمْ بقَصَصِ الأَنْبِيَاء وَمآثر الصَّحَابَةِ وَبطولاتِ السلف وَهِمَّةِ العُلَمَاءِ وَالمُصْلِحِينَ، وَذَلِكَ بِأُسْلُوبٍ سَهْلٍ وَكَلِمَاتٍ بَسِيطَةٍ تَتَنَاسَبُ وَأَعْمَارَهُمُ الصَّغِيرَةَ لتُوَلِّدَ في نفوسهم حُبَّ التَّطَلُّعِ وَالتَّمَثُّلِ بالقِيَمِ العليا، فكُلَّمَا كَانَتْ عَمَلِيَّةُ الإِعْدَاد القِيَادِيِّ مبكرةً كَانَتْ أكثرَ جوى وَفعاليَّةً في نَفْسِ الإِنْسَانِ.

وتمتازُ قِصَّةُ يُوسُفَ أَنَّهَا أَحْسَنُ القَصَصِ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ الحُسْنِ في الأَدَاءِ بَلْ حُسْنِ البَدْءِ وَالخاتمةِ وَالعَرْضِ وَالأسلوبِ وَالبلاغةِ وَالعاقِبَةِ، وَما فيها من عِبَرٍ وَعِظَاتٍ، وَيكفي قَوْلُ اللهِ عنها: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ**

القَصَص بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

وحُسْنُ هَذِهِ السُّورَةِ يَجْعَلُنا لا نمَلُّ سماعها وَترددها المَرَّةِ بَعْدَ الأُخْرَى في كُلِّ مَرَّةٍ نَجِدُ الفائدةَ وَالمُتْعَةَ وَالسَّلوى أو الجَدِيدَ من المَعَانِي وَالقِيَمِ الجَدِيدَةِ حَتَّى قَالَ عطاء: « لا يَسْمَعُ سُورَةَ يُوسُفَ محزُونٌ إلا اسْتَرَاحَ إِلَيْهَا »[2].

وَتَمْتَازُ سُورَةُ يُوسُفَ أَنَّهَا تَعْرِضُ قِصَّةَ يُوسُفَ بن يَعْقُوب عَلَيْهِمَا السَّلامُ من بِدَايَتِهَا إلى خَاتِمَتِهَا عَرْضًا كاملاً مُفَصَّلاً، وَلا تُذْكَرُ قِصَّتُهُ في غير هَذِهِ السُّورَةِ إلا سُورَةَ غَافِر، حَيْثُ يرد ذِكْرُ رِسَالَةَ يُوسُفَ عَلَى لسانِ مُؤْمِنِ آل فِرْعَوْنَ، وَهُوَ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ وَيَعِظُهُمْ وَيحذرهم عاقبة تكذيب مُوسَى عليه السلام، وَلهَذَا نَجِدُ السِّيَاقَ القُرْآنِيَّ يَسْتَخْدِمُ في يُوسُفَ كَلِمَةَ نَقُصُّ (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَص).

وَجَوُّ القَصَصِ يملأ السُّورَةَ منذ بِدَايَتِهَا، فاللَّهُ يَقُصُّ عَلَى نَبِيِّهِ أَحْسَنَ القَصَصِ، وَيُوسُفُ يَقُصُّ رُؤْيَاه عَلَى أبيه يَعْقُوبَ، وَصَاحِبَا يُوسُفَ يَقُصَّانِ عليه رُؤْيَاهما، وَالمَلِكُ يَقُصُّ عَلَى الملأ رُؤْيَاه وَيعجز الملأ عن تَأْوِيلِهَا فيحملها صَاحِبُ السِّجْنِ فيَقُصُّها عَلَى يُوسُفَ عليه السلام وينْتَهِي مَشْهَدُ القَصَصِ بِاجْتِمَاعِ يُوسُفَ بِإِخْوَتِهِ وَأبيه حَيْثُ نَجِدُه يَقُصُّ عَلَى أبيه ما

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣.

٢- حاشية الصاوي على «تَفْسير الجلالين» ٢/٢٣٣.

أنعم اللهُ بِهِ عليه من الخُرُوجِ من السِّجْنِ وَمجيئه سُبْحَانَهُ بهم من البَدْوِ.

وهنا نُلاحِظُ أنَّهُ ذَكَرَ خُرُوجَهُ من السِّجْنِ لأنَّهُ الحدثُ الذي مَكَّنَ اللهُ له بِهِ في الأَرْضِ فَكَانَ أعْظَمَ من نجاته من الجُبِّ، وَأعْظَمَ أثرًا، وَذَكَرَ نِعْمَةَ مجيئه بِهِ سُبْحَانَهُ بهم من البَدْوِ وَتمدنهم في مِصْرَ وَتحولهم من قبيلة بَدَوِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بدائيَّةٍ إلى شَعْبٍ عَظِيمٍ من اثني عَشَرَ سِبْطٍ، وَلِهَذَا نَجِدُ السِّيَاقَ يُعَبِّرُ عن يُوسُفَ في يَعْقُوب وَأبْنَائِه بِكَلِمَةِ آل يَعْقُوب ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوب كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاقَ**﴾[1].

فَبَيْنَمَا يُعَبِّرُ عنهم بِكَلِمَةِ (قَوْمٍ) في القَصَصِ (وَبَنِي إِسْرَائِيلَ) في غير من سُوَرِ القُرْآنِ لأنَّهُمْ انْتَقَلُوا من البَدَاوَةِ وَصاروا شعبًا كثيرَ العددِ بَعْدَ انْتِقَالِهِمْ للتَّمَدُّنِ في مِصْرَ: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾[2].

وهَـذِهِ وَظيفةُ الأَنْبِيَاءِ الارتقاءُ بالبَشَرِيَّةِ وَنَقْلُهَا من طَـوْرٍ إلى طَوْرٍ أكثرَ تَقَدُّمًا وَرُقِيًّا وَتَحَضُّرًا، وَذَلِكَ أنَّ الإِسْلامَ وَالتَّوْحِيدَ يرتقي بالفردِ وَالجماعةِ وَالعلاقاتِ الإِنْسَانِيَّةِ وَيُنْشِئُ أَجْوَاءً تُلائمُ نموَّ وَمواهبَ البَشَرِ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٦.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٧٦.

الفرديَّةَ وَالجماعيَّةَ، وَسَنَتَنَاوَلُ في فصل قَادِمٍ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ كَيْفَ ارتقتْ نُبُوَّةُ يُوسُفَ بآل يَعْقُوب وَأعدتهم لِرِسَالَةِ مُوسَى عليه السلام التي نَقَلَتْهُمْ وَارتقتْ بهم طَوْرًا وَأعدتهم لأعظم فَتْرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ عَرَفَها بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الإطلاقِ حِينَ أقامَ داودُ وَسليمانُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ دولتَهُمُ التَّوْحِيدِيَّةَ في فِلَسْطِين .

وفي القَصَصِ يُعَبِّرُ السِّيَاقُ بِكَلِمَةِ (نَتْلُو) بدل كَلِمَةِ (نَقُصُّ) التي بَدَأَتْ بها سُورَةُ يُوسُفَ: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1]، وَذَلِكَ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى عليه السلام تَتَوَزَّعُ مَشَاهِدُها عَلَى كثيرٍ من سُوَرِ القُرْآنِ، فيما تَمْتَازُ القَصَصُ عن غيرها من السُّوَرِ التي ذَكَرَتْ فيها مَقَاطِعَ مِنْ حَيَاتِهِ عليه السلام «أَنَّ اللّٰهَ ذَكَرَ فيها قِصَّتَهُ عليه السلام مُفَصَّلَةً مُوَضَّحَةً مِنْ حِينِ وِلادَتِهِ إلى حِينِ رِسَالَتِهِ»[2]. لأَنَّهَا تَعْرِضُ عَمَلِيَّةَ إِعْدَادٍ قياديٍّ لِمُوسَى عليه السلام لِيَنْهَضَ بمَهَمَّةِ قِيَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ في تِلْكَ المَرْحَلَةِ وَالخُرُوجِ بهم من الذُّلِّ في مِصْرَ وَالسُّخْرَةِ بِيَدِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، كما تَعْرِضُ سُورَةُ يُوسُفَ عَمَلِيَّةَ إِعْدَادِهِ للقِيَادَةِ في فَتْرَةٍ سابقةٍ من تاريخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَكِنَّهَا تَعْرِضُهَا في سُورَةٍ وَاحِدَةٍ من بِدَايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا «ذَكَرَ اللّٰهُ أقاصيص الأَنْبِيَاء وَكررها بمعنى وَاحِدٍ في وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ بألفاظٍ متباينةٍ عَلَى دَرَجَاتٍ مِنَ البَلاغَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣.

٢- «صفوت التفاسير» الصابوني ٢/ ٤٢٤.

قِصَّةَ يُوسُفَ وَلَمْ يُكَرِّرْهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ مخُالِفٌ عَلَى مُعَارَضَةِ مَا تَكَرَّرَ، وَلا عَلَى مُعَارَضَةِ غَيْرِ الْمُتَكَرِّرِ، وَالإِعْجَازُ لِمَنْ تَأَمَّلَ!!»[1].

وَنُلاحِظُ وُرُودَ كَلِمَةِ (قَصَّ) فِي سُورَةِ القَصَصِ بالمعنى الحِسِّيِّ وَهُوَ تَتَبُّعُ الأَثَرِ[2]، فنَجِدُ أختَ مُوسَى تَقُصُّ أثره بأَمْرِ أُمِّهَا بَعْدَ أَنْ أَلقَتْهُ فِي اليَمِّ، وَمُوسَى يَقُصُّ الطَّرِيقَ إلى مِدْيَنَ ذهابًا وَإيابًا، وَيأنسُ للنَّارِ عَلَّهُ يَأتي منها بِقَبَسٍ أَوْ يَجِدُ عَلَى النَّارِ هدىً !!

وفِي مَشْهَدِ لقائه بالشَّيْخِ الصَّالِحِ فِي مِدْيَنَ يَسْتَخْدِمُ السِّيَاقُ كَلِمَةَ (قَصَّ) بمعناها الوارد فِي يُوسُفَ، ذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام يَذْكُرُ له قِصَّتَهُ كاملة إلى لحظة هروبِهِ من مِصْرَ، وَنُزُولِه مِدْيَنَ ضيفًا عليه، فيما يَسْتَخْدِمُ السِّيَاقُ فِي يُوسُفَ كَلِمَةَ (نَقُصُّ) فِي بِدَايَتِهَا ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[3]؛ لأَنَّهُ يَذْكُرُ القِصَّةَ من بِدَايَتِهَا إلى النِّهَايَةِ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[4]، فَذَكَرَ له

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٠٤.

٢- انظر : «الجامع لأحكام القُرْآن» ٥/١٠٥.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣.

٤- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٥.

قِصَّتَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ بِكُلِّ فصولها، حَتَّى وُصُولِهِ مِدْيَنَ، وَانْسِجَامًا مَعَ أجواء تَتَبُّعِ الأَثَرِ وَقِيَادَةِ النَّاسِ إلى الخير، وَيَسْتَخْدِمُ السِّيَاقُ في القَصَصِ لَفْظَ (اسْلُكْ) بدل كَلِمَةِ (أَدْخِلْ) تناسقًا مَعَ سُلُوكِ الأمكنة وَقَصِّ الأَثَرِ، قَالَ ﴿**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[1]،وَسَلَكَ تُسْتَعْمَلُ كثيرًا في سُلُوكِ السُّبُلِ، فيُقَالُ: سَلَكَ الطَّرِيقَ، وَالمكانُ سالكٌ؛ وَقَدْ تَرَدَّدَ سُلُوكُ الأمكنةِ وَالسُّبُلِ في القَصَصِ بخلاف قِصَّةِ مُوسَى في النَّمْل، فقَدْ وَرد في القَصَصِ سُلُوكُ التابوت بمُوسَى في اليَمِّ إلى قَصْرِ فِرْعَوْنَ، وَسُلُوكُ أخته وَهِيَ تَقُصُّ أثره،وَسُلُوكُ مُوسَى إلى مِدْيَنَ فارًّا من مِصْرَ، وَسُلُوكُهُ الطَّرِيقَ إلى الشَّيْخِ الصَّالِحِ في مِدْيَنَ،وَسيره بِأَهْلِهِ، وَسُلُوكُهُ الطَّرِيقَ إلى مِصْرَ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ في النَّمْل سيره بِأَهْلِهِ بَعْدَ قضاءِ الأجلِ، بَلْ طوى كُلَّ ذِكْرٍ لِلسَّيْرِ وَالسُّلُوكِ في القِصَّةِ فقَالَ: ﴿**إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾[2]، بخلاف ما وَرد في القَصَصِ[3].

وأرى أَنَّ السُّلُوكَ مَقْصُودٌ في سُورَةِ القَصَصِ لمعنى إضَافِيٍّ لما ذَكَرَه

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣٢.

٢- سُورَة النَّمْل : الآيَة ٣.

٣- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ١١٢.

السَّامِرَّائِيُّ، لأَنَّهَا تَرْوِي مَرَاحِلَ الإِعْدَادِ القِيَادِيِّ لِمُوسَى عليه السلام؛ فَالسُّلُوكُ وَتَتَبُّعِ الأَثَرِ من مُسْتَلْزَمَاتِ وَطَبِيعَةِ القِيَادَة، لأَنَّ القَائِدَ في المُقَدِّمَةِ دليلاً لجماعَتِهِ عَلَى الطَّرِيقِ وَمُرْشِدًا لهم إلى ما فيه صلاحُهُمْ، وَهُوَ يَتْبَعُ آثارَ مَنْ سَبَقَ عَلَى طريقِ النُّبُوَّةِ وَالإِصْلاحِ، فالقِيَادَةُ تَقَدُّمُ النَّاسِ وَتَحْرِيكُهُمْ نَحْوَ الهَدَفِ.

تلتقي عَمَلِيَّةُ الإِعْدَادِ القِيَادِيِّ في جوانبَ وَتفترقُ في بعضِ التَّفَاصِيلِ في سُورَتَيْ يُوسُفَ وَالقَصَصِ، نُحَاوِلُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ اسْتِعْرَاضَ مَرَاحِلِ وَمحطاتِ الإِعْدَادِ في السُّورَتَيْنِ لِمُوسَى وَيُوسُفَ عليهما السلام وَكَشْفَ أَهَمِّيَّةِ وَدِقَّةِ كُلِّ خطوة وَكُلِّ مَرْحَلَة في حَيَاةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَدَوْرِهَا في إنضاجِ شَخْصِيَّتِهِ القِيَادِيَّةِ لِيَكُونَ مُؤَهَّلاً وَقادرًا عَلَى أَدَاءِ مَهَمَّتِهِ وَحَمْلِ عِبْءِ رِسَالَتِهِ من اللّٰهِ لِقَوْمِهِ.

وَيُذْكَرُ التَّمْكِينُ في الأَرْضِ في السُّورَتَيْنِ: فَفِي يُوسُفَ ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]. وَفِي القَصَصِ: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ**

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٥٦.

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1]. قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «أَئِمَّةً : أَيْ قَادَةً فِي الخَيْرِ» [2].

والسُّورَتَانِ مَكِّيَّتَانِ تَقَارَبَ زَمَنُ نُزُولِهما، إلا أَنَّ حَالَ الدَّعْوَةِ وَ حَالَ صَاحِبِهَا عليه السلام كَانَ يَخْتَلِفُ بَيْنَ فَتْرَةِ نُزُولِ القَصَصِ وَفَتْرَةِ نُزُولِ يُوسُفَ كما اخْتَلَفَ نوعُ الإيذاء وَطَبِيعَةُ المُوَاجَهَةِ مَعَ المُشْرِكِينَ، وَانتقلتْ الدَّعْوَةُ من طَوْرِ وَمَرْحَلَة الطَّمَعِ فِي إيمانِ المُشْرِكِينَ مِنْ مَلأ قُرَيْشٍ وَالتَّغْيِيرُ السِّيَاسِيُّ السِّلْمِيُّ إلى مَرْحَلَة البَحْثِ عن مَحْضَنٍ جَدِيدٍ للدَّعْوَةِ، يَتِمُّ خِلالَهُ التَّغْيِيرُ بِالقُوَّةِ وَهُوَ التَّغْيِيرُ عَلَى طَرِيقَةِ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ، فكَانَتِ القَصَصُ إيناسًا لقلبِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ تَمَامَ أَمْرِهِ سيَكُونُ بِالقُوَّةِ عَلَى الطَّرِيقَة الموسَوِيَّةِ بَعْدَ أَنْ فشل الطَّرِيقُ السِّلْمِيُّ بِالإِقْنَاعِ وَالصَّبْرِ عَلَى الأذى عَلَى الطَّرِيقَةِ اليُوسُفِيَّةِ، وَفِي حِينِ تَعَرَّضَ يُوسُفُ لإيذاءِ الأَقَارِبِ له، نَجِدُ القَصَصَ تَعْرِضُ إيذاءِ الأباعد لمُوسَى عليه السلام وَكَانَ النَّبِيُّ عليه السلام يَلْقَى إِيذَاءَ القَرِيبِ وَالبَعِيدِ «وَقَدْ ذَكَرَ اللّٰهُ ما لاقاهُ الأَنْبِيَاءُ من قَوْمِهِمْ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ ما لقي يُوسُفُ من إِخْوَتِهِ، لِيَعْلَمَ عليه السلام ما قاسُوهُ مِنْ أَذَى الأجانِبِ وَالأَقَارِبِ، فَبَيْنَهُمَا أَتَمُّ المُنَاسَبَةِ، وَالمَقْصُودُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ بما لاقاه من الأَذَى مِنَ

١- سُورَة القَصَص : الآية ٥٦.

٢- «صفوة التفاسير» الصابوني ٢/٤٢٥.

الأَقَارِبِ وَالأَبَاعِدِ مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ» [1].

وعِنْدَ النظر في حَالِ الدَّعْوَةِ وَقْتَ نُزُولِ يُوسُفَ نَجِدُها: «نَزَلَتْ في مَكَّة بَعْدَ سُورَةِ هود، في الفَتْرَةِ الحرجة بَيْنَ عامِ الحزنِ بمَوْتِ أبي طَالبٍ وَخَدِيجَةَ سَنَدَيْ رَسُولِ اللهِ وَبَيْنَ بيعةِ العَقَبَةِ الأُولَى ثُمَّ الثَّانِيَةِ التي جَعَلَ اللهُ فيها لِنَبِيِّهِ ﷺ وَصَحْبِهِ فرجًا وَمَخْرَجًا، وَيُوسُفُ سُورَةٌ مكيَّةٌ بجملتها نَزَلَتْ وَالنَّبِيُّ يعانِي من الوَحْشَةِ وَالغُرْبَة وَالانْقِطَاعِ، نَقُصُّ عليه قِصَّةَ أخٍ كَرِيمٍ له يُوسُفَ بن يَعْقُوب بن إِسْحَقَ بن إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أجمعين وَهُوَ يعانِي صُنُوفًا من المِحَنِ وَالابْتِلاءَاتِ، مِحْنَةِ كَيْدِ الإِخْوَةِ، وَمِحْنَة الجُبِّ وَالخَوْفِ وَالتَّرْوِيعِ فيه، وَمِحْنَةِ الرِّقِّ وَهُوَ يَنْتَقِلُ كالسلعة من يَدٍ إلى يَدٍ عَلَى غير إِرَادَةٍ وَلا حمايَةٍ وَلا رِعَايَةٍ من أَبَوَيْهِ وَلا من أَهْلِهِ، وَمِحْنَةِ مُرَاوَدَةِ امْرَأَة العَزِيز وَالنِّسْوَةِ، وَقبلَهَا ابْتِلاءُ الإِغْرَاءِ وَالشَّهْوَةِ وَالفِتْنَةِ.ومِحْنَةُ السِّجْنِ بَعْدَ رَغَدِ العيش وَطراوتِهِ في قَصْرِ العَزِيز، ثُمَّ مِحْنَةُ الرَّخَاءِ وَالسُّلْطَانِ المُطْلَقِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يتحكَّمُ في أقواتِ النَّاسِ وَفي رقابهم وَفي يَدَيْهِ لُقْمَةُ الخُبْزِ التي تَقُوتُهُمْ، وَمِحْنَةُ المَشَاعِرِ البَشَرِيَّةِ، وَهُوَ يَلْقَى بَعْدَ ذَلِكَ إِخْوَتَهُ الذِينَ أَلْقَوهُ في الجُبِّ، وَكَانُوا السَّبَبَ الظَّاهِرَ لهَذِهِ المِحْنَةِ وَالابْتِلاءَاتِ كُلِّهَا» [2].

١- «الفتوحات الإلهية» ٤٣٢/٢

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ١٩٥٠/٤.

وَكُلُّ ما وَقعَ لِيُوسُفَ كَانَ من إيذاءِ الأقربين هُوَ ما كَانَ يُؤْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ، من تكذيبٍ وَشَتْمٍ وَمِحْنَة وَقْتَ نُزُولِ سُورَةِ يُوسُفَ،وَلَمْ يَكُنْ قَدْ فَقَدَ الأَمَلَ في إيمانِ قَوْمِهِ دُونَ قِتَالٍ،وَلَمْ يُؤْمَرْ بَعْدُ بالهِجْرَةِ وَالجِهَادِ،فَجَاءَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ تُعَزِّزُ هَذَا الأَمَلَ وَتُخَفِّفُ الحُزْنَ وَالأَسَى،وَتحثُّهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى كَيْدِ قَوْمِهِ وَإيذائهم،علَّهم يُدْرِكُونَ خطأهم وَيثوبون إلى رشدهم كما فعل إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَ تَعَرُّفِهِمْ إِلَيْهِ من مِصْرَ!!

وَسُورَةُ القَصَصِ نَزَلَتْ في مَكَّة بَعْدَ نُزُولِ يُوسُفَ قريبًا من هِجْرَةِ النَّبِيِّ وَالمسْلِمُونَ قِلَّةٌ مُسْتَضْعَفَةٌ، وَالمُشْرِكُونَ يَبْطِشُونَ بهم وَيَتَجَبَّرُونَ وَيَمْلِكُونَ القُوَّةَ وَالمال وَالسُّلْطَانَ، بَلْ إِنَّ أحدى آيَاتِها وَهِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾[1]، نَزَلَتْ بالجَحْفَة في وَقْتِ هِجْرَةِ الرَّسُولَ ﷺ إلى المَدِينَةِ[2]. وَقَالَ ابنُ عباس: «القَصَصُ كُلُّهَا مَكيَّةٌ إلا آية وَاحِدَةً نَزَلَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَقَالَ الحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاء: كُلُّهَا مَكيَّةٌ»[3]. وهِيَ تَقُصُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَمَلِيَّةَ إِعْدَادِ أَخِيهِ مُوسَى عليه السلام لِمُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ، وَحَالَةِ الخَوْفِ التي كَانَ يَعِيشُهَا حَتَّى غادر مِصْرَ هاربًا من الملأ بَعْدَ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٥٨

٢- انظر: «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٧/٢٢٩.

٣- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٧/٢٢٩.

إنْذارِهِ بِتآمُرِهِمْ لِقَتْلِهِ، فَيَخْرُجُ وَحِيدًا بلا زادٍ وَلا راحلةٍ وَلا دليلٍ، هاربًا إلى مِدْيَنَ في صُورَةٍ تشابه خُرُوجِ النَّبِيِّ صلى مهاجرًا إلى المَدِينَةِ من وَرَائِهِ قُرَيْشٌ وَفرسانُهُمْ تلاحقُهُ لتَبْطِشَ به، فَكَانَ نُزُولُهَا في ذَلِكَ الوَقْتِ غايَةَ الحِكْمَةِ لِتَنَاسُبِهِ مَعَ الحَالِ الذي كَانَ يعانيه من قَوْمِهِ وَكأَنَّهَا تهيئةٌ نَفْسِيَّةٌ لِمَرْحَلَةِ الهِجْرَة، «وَيتوجَّهُ الخِطَابُ في نِهَايَةِ سُورَةِ القَصَصِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ قَصَّ عليه مُوَاجَهَةَ أَخِيهِ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ من بلدِهِ، وَمُطَارَدٌ مِنْ قَوْمِهِ وَهُوَ في طريقه إلى المَدِينَةِلم يبلغْهَا بَعْدُ، فقَدْ كَانَ بالجَحْفَةِ قَرِيبًا من مَكَّة، قَرِيبًا من الخَطَرِ، وَيتعلق قلبُهُ وَبَصَرُهُ بِبَلَدِهِ الذي يحبُّهُ وَالذي يَعِزُّ عَلَيْهِ فُرَاقُهُ لولا أَنَّ دَعْوَتَهُ أَعَزُّ عليه من بلدِهِ وَمَوْطِنِ صباهُ وَمهدِ ذِكْرَيَاتِهِ وَمَقَرِّ أَهْلِهِ من بَعْدِ أَنْ رَدَّ اللهُ مُوسَى عليه السلام من قَبْلُ إلى الأَرْضِ التي خَرَجَ منها هَارِبًا مُطَارَدًا، رَدَّهُ فأَنْقذ بِهِ المُسْتَضْعَفِينَ من قَوْمِهِ وَدَمَّرَ بِهِ فِرْعَوْنَ وَملأه، وَكَانَتِ العاقبةُ للمُهْتَدِينَ، فامضِ إذن في طريقِكَ وَدَعْ أَمْرَ الحُكْمِ فيما بَيْنَكَ وَبيْنَ قَوْمِكَ للهِ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ» [1].

عاد النَّبِيُّ ﷺ إلى مَكَّة في حجَّةِ الوَدَاعِ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ من الهِجْرَة إلى المَدِينَة؛ أَيْ بَعْدَ نُزُولِ قِصَّةِ مُوسَى في القَصَصِ عليه بالجَحْفَةِ في حِينِ أَنَّهُ فتح مَكَّة بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ من الهِجْرَة، وَهِيَ المُدَّةُ التي اشترطها الشَّيْخُ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٥٦.

الصَّالِحُ في مِدْيَنَ عَلَى مُوسَى عليه السلام عَلَى أَنْ يُنْكِحَهُ إحدى ابْنَتَيْهِ حِينَ قَالَ: ﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1]. وحِينَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن أيِّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى عليه السلام، قَالَ: «قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا»[2].

فَكَانَ الفَتْحُ المَاديُّ لمَكَّةَ وَالعَوْدَةُ الأُولَى بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ، ثُمَّ الفَتْحُ المَاديُّ وَالرُّوحِيُّ في العامِ العاشر لِلْهِجْرَةِ وَبتطهيرها من الأصنامِ وَمَنْعِ حجِّ المُشْرِكِينَ إلى البيتِ الحرام أو الطَّوَافِ بِالبَيْتِ عُراة، وَقدومِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهَا حاجًا مُوَدِّعًا بَعْدَ عشر سَنَوَاتٍ عَلَى خُرُوجِهِ منْها مُهَاجِرًا إلى المَدِينَةِ.

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٧.

٢- «صحيح البخاري».

الفَصْلُ الثَّانِي

وَحْدَةٌ فِي الرِّسَالَةِ
وَاخْتِلافٌ فِي المَهَمَّاتِ

جاء الأَنْبِيَاءُ جميعًا بِرِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ منَ اللهِ هِيَ رِسَالَةُ التَّوْحِيدِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ، فهُوَ رَكْبٌ وَاحدٌ كَرِيمٌ، يقُودُهُ آدَمُ عليه السلام وَيختمُهُ سَيِّدُ الخَلْقِ وَخاتمُ النَّبِيّين مُحَمَّد بن عبد اللهِ ﷺ يَدْعُونَ النَّاسَ لعبوديَّةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شريك له.

كَلِمَةٌ قَالَها نُوحٌ عليه السلام لِقَوْمِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ورددها هودٌ عليه السلام من بَعْدِه: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[2].

وقَالَها صَالحٌ عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وسُمِعَ شُعَيْبٌ عليه السلام يأمر قَوْمَهُ بها : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

١- سُورَة الأعراف : الآيَة ٥٩.

٢- سُورَة الأعراف : الآيَة ٥٦.

٣- سُورَة الأعراف : الآيَة ٧٣.

٤- سُورَة الأعراف : الآيَة ٨٥.

رِسَالَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنِ اخْتَلَفَ الزَّمَانُ وَالمَكَانُ وَتَبَدَّلَتِ الأَقْوَامُ، وَتَعَدَّدَ الأَنْبِيَاء، وَرُغْمَ وَحْدَةِ رِسَالَتِهِمْ تَتَعَدَّدُ مَهَمَّةُ الأَنْبِيَاء؛ فَكُلُّ نَبِيٍّ يبعثه اللهُ في فَتْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ من مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ لِيَنْقُلَهَا خُطُواتٍ إلى الأَمَامِ وَيُعِدُّها لاستقبال الرِّسَالَةِ التاليَةِ التي تَنْقُلُهَا خُطُواتٌ أُخْرَى حَتَّى وَصلت البَشَرِيَّةُ بقِيَادَة الأَنْبِيَاء وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ إلى مَرْحَلَة الرشد وَالتَّمَامِ من الأَهْلِيَّةِ، فأكمل اللهُ دينه وَأَتَمَّ نعمته بمُحَمَّد ﷺ الذي نَقَلَ البَشَرِيَّةَ إلى أرقى وَأسمى مستوى بلغته في يَوْمٍ من الأَيَّامِ، وَسيبقى ذَلِكَ الأفق الوضيء السابق مَحَطَّ أنظار البَشَرِ إلى يَوْمِ الدِّينِ، يرجون وَيتطلعون للوصول إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لمسوه حقيقة برِسَالَة مُحَمَّد ﷺ وَالمُجْتَمَعِ الإِنْسَانيِّ المتحضر الذي أَنْشأه عَلَى هَذِهِ المعمورة يَوْمًا.

نَزَلَ آدَمُ عليه السلام وَزَوْجُهُ إلى الأَرْضِ مُزَوَّدًا بِالعِلْمِ، بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُ اللهُ ﷻ الأسماءَ كُلَّهَا، وَمُزَوَّدًا بالتَّجْرُبَةِ التي اخْتُبِرَ فيها، فأَكَلَ من الشَّجَرَةِ فكَانَتْ مَهَمَّته أَنْ يُمَهِّدَ الأَرْضَ لنَسْله لِتَكُونَ لهم دارًا إلى حِينٍ، وَيَرِثُهُمْ عِلْمَهُ وَتَجْرِبَتَهُ وَيُحَذِّرُهُمْ عَدُوَّهُمُ الأَوَّلَ الذي أُخْرِجُوا بِسَبَبِهِ مِنَ الجَنَّةِ.

وعاشت البَشَرِيَّةُ قرونا تتوارث تركته العظيمة لِيَبْدَأَ بَعْدَها الانحراف وَتأسَنُ الأَرْضُ وَتَتَعَفَّنُ، وَتوشك أَنْ تختفيَ مَعَالِم التَّوْحِيدِ، فَيُرْسِلُ اللهُ ﷻ نُوحًا عليه السلام بمَهَمَّةِ إنقاذٍ لما تَبَقَّى مِنْ فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ وَنُفُوسٍ قَابِلَةٍ للحَيَاة، فيحملهم عَلَى السَّفِينَةِ، وَيغسل الماء وَجه المعمورة من رجس الشِّرْكِ وَعفونته ، وَتعود من جَدِيدٍ، لائقة ببَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَيْسَ مصادفة أَنْ

يمكثَ نُوحٌ عليه السلام في قَوْمِهِ ألف سَنَةٍ إلا خمسين عَامًا؛ لأنَّ مَهَمَّتَهُ استنقاذُ أيِّ فطرة قبالة للحَيَاةِ، وَهِيَ مَهَمَّة شاقةٌ جِدًّا جَعَلَتْهُ يَدْعُو قَوْمَهُ ليلاً وَنهارًا، سِرًّا وَعلانِيَّةً فُرادَى وَجماعَاتٍ، وَلَيْسَ مصادفة أنْ يَكُونَ نَجَّارًا وَأنْ يُرْسَلَ في مناطقَ جبليَّةٍ شاهقةٍ؛ ذَلِكَ أنَّ نَجَاةَ مَا تَبَقَّى مِنْ نسل آدَمَ عليه السلام الأطهار الطَّيِّبِينَ مَرْهُونٌ بصناعته للفلك التي تَمَّتْ برِعَايَةِ اللهِ عزوجل وَأَمْرِهِ ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَ لا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾[1].

وهَكَذَا كُلَّمَا تَرَدَّدَتِ البَشَرِيَّةُ وَارتكستِ الفِطْرَةُ وَتلوثتِ النفوسُ ينهض بالمَهَمَّة نَبِيٌّ من أَنْبِيَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى جاء إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فرفعَ القواعد وَوضعَ أساس الحَنَفِيَّةِ في الأَرْضِ، وَأسكنَ ذُرِّيَّتَهُ أَطْهَرَ بُقْعَتَيْنِ فِيهَا: الحجاز وَفِلَسْطِين. فكَانَتْ مَهَمَّته إرساء قواعد التَّوْحِيدِ وَتنقيته من أيِّ شرك وَوضع بذرة الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ قرب المسجد الحرام بإسكانه إسماعيلَ عليه السلام وَأُمَّهُ بوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، وَعَلَى الجهة الأُخْرَى تُرِكَ إِسْحَقُ عليه السلام وَذُرِّيَّتُهُ المُبَارَكَةُ.

فتوارثتْ ذريَّةُ إِبْرَاهِيمَ أبي الأَنْبِيَاءِ النُّبُوَّةَ جيلاً بَعْدَ جيل في الصفوة من الأَنْبِيَاءِ حَتَّى انتهت إلى مُحَمَّد ﷺ وَارِث الحَنَفِيَّةِ السمحة، الذي أَخْرَجَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَكَانَتْ هَذِهِ مَهَمَّته التي قام بها

١- سُورَة هود : الآيَة ٣٧.

خير قيام، وَأشْهَدَ اللّهَ وَأشْهَدَ النَّاسَ في حجَّةِ الوَدَاعِ عَلَيْهَا فَشَهِدُوا، وَنَشْهَدُ نَحْنُ مَعَهُمْ بَعْدَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا: أَنَّهُ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأدّى الأَمَانَةَ وَتَرَكَنَا عَلَى المحَجَّةِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَتَنَكَّبُهَا إلا ضَالٌّ أَوْ مُشْرِكٌ.

ومن هنا نَبْدَأُ الطَّرِيقَ لفَهْمِ سَبَبِ اخْتِلافِ عَمَلِيَّةِ الإِعْدَادِ القِيَادِيِّ التي مَرَّ بها كُلٌّ من يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ أنها اخْتِلافُ مَهَمَّةِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَسُورَتَا يُوسُفَ وَالقَصَصِ تضعانِ أَمَامَنا عَمَلِيَّةَ الإِعْدَاد القِيَادِيّ لِنَبِيَّيْنِ من ذريَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام من نسل يَعْقُوب بن إِسْحَق عليه السلام- قُدِّر لهُمَا قِيَادَة بَنِي إِسْرَائِيلَ - في فَتْرَةٍ من تاريخ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعلينا أن نستحضرَ حقيقة دَوْرِ الأَنْبِيَاءِ في بَنِي إِسْرَائِيلَ فقَدْ كَانُوا قَادَة بَنِي إِسْرَائِيلَ الذينَ يرجعون إِلَيْهِمْ في إِدَارَةِ أُمُورِهِمْ وَسِلمهم وَحربهم وَدينهم وَدُنْيَاهُمْ، لِقَوْلِهِ عز وجل: ﴿كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ﴾ (١).

فَكَانَ لا بُدَّ لِلنَّبِيِّ القَائِد من عَمَلِيَّةِ إِعْدَاد تُؤَهِّلُهُ للدَّوْرِ القِيَادِيِّ المُوَكَّلِ به، وَبمقارنة القُدْرَةِ القِيَادِيَّةِ لهَارُون عليه السلام أخي مُوسَى عليه السلام وَنَبِيٍّ مثله في الظُّروفِ ذَاتِهَا وَالزَّمَانِ وَالمكانِ ذَاتِهِمَا، إلا أَنَّهُ لَمْ يتَأَهَّلْ للقِيَادَة، كما تَأَهَّلَ مُوسَى عليه السلام فَلَمْ يَتَمَكَّنْ من قِيَادَة بَنِي إِسْرَائِيلَ كما فَعَلَ مُوسَى عليه السلام رُغْمَ حُبِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ له وَحِكْمَتِهِ في إِدَارَةِ الأُمُورِ وَصَبْرِهِ عَلَى طَبِيعَتِهِمْ

١- سُورَة الأعراف : الآيَة ١٥٠.

الصَّعْبَةِ وَنَفْسِيَّاتِهِمْ المُعَقَّدَةِ.

وَغايَةُ ما بلغه المستوى القِيَادِيّ لهَارُون عليه السلام أَنْ يَكُونَ وَزِيرًا لمُوسَى عليه السلام بَلْ وَصل الأمرُ ببَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يستضعفوه وَيُهَدِّدُوهُ بِالقَتْلِ حِينَ نَهَاهُمْ عنْ عِبَادَةِ العِجْلِ، فيما سَيْطَرَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عليه السلام بِشَخْصِيَّتِهِ القِيَادِيَّةِ وَقُوَّتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَالبَدَنِيَّةِ حِينَ رجع من مُنَاجَاةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

ورُغْمَ حِكْمَةِ هَارُونَ عليه السلام في مُعَالجةِ المَوْقِفِ وَموازنته للمَصَالِحِ بإيثار انْتِظَارِ عَوْدَةِ أخيه مُوسَى عليه السلام خَشْيَةَ أَنْ يُتَّهَمَ بِشَقِّ صف بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعدم انْتِظَارِ عَوْدَةِ أخيه مُوسَى عليه السلام ليقضيَ في الأمْرِ، إلا أَنَّ الحَادِثَةَ كنَمُوذَجٍ تُظْهِرُ ضَعْفَ القُدْرَةِ القِيَادِيَّةِ عِنْدَ هَارُون عليه السلام عَلَى عكس أخيه القَائِدِ القويِّ مُوسَى عليه السلام الذي عالج المَوْقِفَ مُبَاشَرَةً فَحَرَقَ العِجْلَ الذي عَبَدُوهُ، وَبذَلِكَ أَبْطَلَ فِتْنَتَهُ، وَنفى السَّامِرِيَّ صَاحِبَ الفِتْنَةِ وَمثيرَهَا، وَأمر بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، فَقَتَلَ مُؤْمِنُهُمْ كافِرَهُمْ، فتابَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِم.

١- سُورَة هود: الآيَة ٣٧.

إِنَّ عَمَلِيَّةَ إِعْدَادِ أيِّ قائد تعتمد عَلَى الهدف من عَمَلِيَّةِ الإِعْدَاد وَالمَهَمَّة التي سَيُكَلَّفُ بها مُسْتقبلاً، فإِعْدَادُ قائدٍ للجيشِ غيرُ إِعْدَادِ قائدٍ للدَّوْلَةِ أو الثَّوْرَةِ، وَالقَائِدُ في الحَرْبِ قَدْ لا يصلح لمَرْحَلَة البناء وَالاسْتِقْرَار وَالسِّلْمِ. «وَالقِيَادَةُ هِيَ تحريكُ النَّاسِ نَحْوَ الهدف، وَمكانُ القَائِد يَجِبُ أنْ يَكُونَ في المُقَدِّمَةِ؛ لِيَكُونَ دليلاً لجماعته عَلَى الخير وَمُرْشِدًا لهم إلى ما فيه صلاحُهُمْ، وَأصلُهَا مِنَ القَوَدِ؛ وَهُوَ نقيضُ السَّوق، يُقَالُ: قَادَ الدَّابةَ مِنْ أَمَامِهَا، وَسَاقَهَا مِنْ خَلْفِهَا»[1].

فما المَهَمَّةُ القِيَادِيَّةُ التي أُعِدَّ لها يُوسُفُ عليه السلام!!.

عاش يَعْقُوب عليه السلام وَبَنُوهُ في فِلَسْطِينَ حياةَ بَدَاوَةٍ وَرِعَايَةِ أغنامٍ حَيْثُ كَانَ أَبْنَاؤُهُ يَعِيشُونَ حَيَاةً بريَّةً يَرْعُونَ وَيَسْتَبِقُونَ كما نلمسُ في كَلامِهم مَعَ أبيهم لإِقْنَاعِهِمْ بإِرْسَالِ يُوسُفَ عليه السلام معهم للرَّعْيِ: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾[2]. وانظرْ تَصَوُّرَهُمُ الأَجْوَاءَ البَرِّيَّةَ في قَوْلِهِمْ لأَبِيهِم ﴿**قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا**

١- «لِسَان العَرَب» ٣/ ٨٤ .

٢- سُورَة يُوسُف : الآيات ١٠- ١١.

صَادِقِينَ﴾[1]. فالسِّيَاقُ يُصَوِّرُ أجْواءً بريَّةً وَرعَاءً وَذِئَابًا وَمَتَاعًا يَحْتَاجُ لِمَنْ يَبْقَى عِنْدَهُ أثناءَ لَعِبِهِمْ بَعِيدًا، وَهَذِهِ حَيَاةُ البَدَاوَةِ البَسِيطَةِ التي عاشوها في فِلَسْطِين لا تُنَاسِبُ بِعْثَةَ نَبِيٍّ من أنْبِيَاءِ اللهِ فيها «وَكَانَ يَعْقُوب عليه السلام تحوَّلَ إلى البَادِيَةِ وَسكنها وَأنَّ اللهَ لَمْ يبعث نَبِيًّا من أهْلِ البَادِيَةِ»[2].

فكَانَتْ مَهَمَّة يُوسُفَ عليه السلام أنْ يَنْتَقِلَ بأبيه وَإِخْوَتِهِ لِيَتَحَوَّلُوا من البَدَاوَةِ للتحضر وَالمدنيَّةِ في مِصْرَ، حَيْثُ البِيئَةُ المُنَاسِبَةُ لِتَحَوُّلِهِمْ من آل يَعْقُوب إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ليصيروا شَعْبًا في بِيئَةٍ غنيَّةٍ بالخيرات مليئةٍ بالخبرات، بَعِيدَةٍ عن الجفاء وَهِيَ النِّعْمَةُ التي ذَكَرَها يُوسُفُ عليه السلام عِنْدَ استقبال أبويْهِ وَإِخْوَتِهِ في قدومهم إلى مِصْرَ فقَالَ اللهُ عزوجل عَلَى لِسَانِه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

«وَالبَدْوُ هُوَ البَسِيطُ من الأَرْضِ، يَبْدُو الشَّخْصُ فيه من بُعْدٍ، وَالبَدْوُ خِلافُ الحَاضِرَةِ، وَكَانَ يَعْقُوبُ وَأَبْنَاؤُهُ أصحابَ ماشيَةٍ فَسَكَنُوا

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٧.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ٥/٢٣٣.

٣- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٠٠.

البَادِيَةَ»[1]. وهَـذِهِ حقيقةٌ يُؤَكِّدُ القُرْآنُ عَلَيْهَا، وَيَذْكُرُ فِي خِتَامِ سُورَةِ يُوسُفَ مُنَوِّهًا لأَهَمِّيَّةِ وَحِكْمَةِ اختيار الأَنْبِيَاءِ من أَهْلِ الأمصار، فيَقُولُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[2]، وَأَهْلُ القرى هُمْ أَهْلُ الأمصار؛ لأَنَّهُم أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ، بخلاف أَهْلِ البَوَادِي بِجَفَائِهِمْ وَجَهْلِهِمْ[3].

بمعنى أَنَّ هَدَفَ إِعْدَادِ يُوسُفَ عليه السلام القِيَادِيّ وَمَهَمَّتَهُ هِيَ نَقْلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ من البَادِيَةِ فِي فِلَسْطِين إلى مِصْرَ؛ لِيَتَحَوَّلُوا إلى شَعْبٍ عَظِيمٍ تَمْهِيدًا لِرِسَالَةِ مُوسَى عليه السلام التي سَتَنْقُلُهُمْ لِيَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، ذَاتَ شَخْصِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ وَرِسَالَةٍ سَامِيَةٍ.

وَقَدْ خاطبهم يُوسُفُ عليه السلام مُعْلِنًا نَجَاحَ مَهَمَّته بِتَمْهِيدِ مِصْرَ لاستقبالهم لِيَعِيشُوا فيها وَيتكاثروا وَيَتَنَاسَلُوا وَيؤدوا دَوْرَهُمْ كجماعة وَظِيفِيَّةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ، فَقَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾[4]. قَالَ صَاحِبُ الأخبار: «إِنَّ يَعْقُوب

١- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٨٧.

٢- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٠٩.

٣- تفسير الجلالين على هامش «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٨٦.

٤- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٩٩.

عليه السلام تجهز لِلخُرُوجِ عَلَى مِصْرَ وَجمع أَهْلَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ اثنانِ وَسَبْعُونَ ما بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَقَالَ مَسْرُوق: ثلاثة وَسَبْعُونَ، وَفِي البَيْضَاوِيِّ: أَنَّهُم كَانُوا حِينَ خَرَجُوا من مِصْرَ مَعَ مُوسَى عليه السلام ستمائة ألف وَخمسمائة وَبضعة وَسَبْعُونَ رَجُلاً سوى الذريَّةِ وَالهرمى»[1]. ونَحْنُ لا نعتمد هَذِهِ الأرقام وَلَكِنْ نَفْهَمَ من السِّيَاقِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ دخلوا مِصْرَ بِإِعْدَادٍ قَلِيلةٍ يُطْلَقُ عَلَيْهَا لَفْظُ آل يَعْقُوب فِي سُورَةِ يُوسُفَ، وَقَدْ كثروا وَصاروا أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً يُطْلَقُ عَلَيْهِم لَفْظُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (يَعْقُوب) فِي سُورَةِ القَصَصِ حَتَّى خشيهم فِرْعَوْنَ عَلَى مُلْكِهِ، وَقرر تحديد نسلهم بِقَتْلِ الذُّكُورِ وَاسْتِحْيَاءِ الإِنَاثِ. وَإِنَّ عَمَلِيَّةَ الانْتِقَالِ التي قادها يُوسُفُ عليه السلام وَنفذها بنَجَاحٍ كَانَتْ مَرْحَلَة عَلَى طريق تَحَوُّلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى أُمَّةٍ ذات شَخْصِيَّةٍ وَرِسَالَةٍ.

كَانَتْ مَهَمَّةُ يُوسُفَ عليه السلام إدخَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى مِصْرَ (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) لِيَعِيشُوا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ وَيَكُونُوا موضع حُبٍّ وَتَرْحِيبٍ مِنْ أَهْلِهَا وَزَعَامَتِهَا تَمْهِيدًا لِرِسَالَةِ مُوسَى عليه السلام من جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى كَانَتْ هناك مَهَمَّةٌ مُعَاكِسَةٌ لِمَهَمَّةِ مُوسَى عليه السلام الذي كَانَتْ مَهَمَّتُهُ إِخْرَاجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ من مِصْرَ وَالعَوْدَةُ بِهِمْ إلى فِلَسْطِينَ الأَرْضِ المُبَارَكَةِ التي كَانَ فيها يَعْقُوبُ عليه السلام: ﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**

١- «الفتوحات الإلهية» ٢/٢٨٢.

﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[1].

ولهَذَا نُلاحِظُ أنَّ التَّمْكِينَ في سُورَةِ يُوسُفَ لَمْ يَكُنْ لآلِ يَعْقُوبَ أوْ بَنِي إسْرَائِيلَ، إنَّمَا كَانَ لِيُوسُفَ فَحَسْبُ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فقَدْ عاشُوا في مِصْرَ ضيوفًا كِرَامًا لَمْ يمكَّنْ لَهُمْ فيها،أمَّا في القَصَصِ فَكَانَ التَّمْهِيد المُوسَوِيّ للتَّمْكِينِ لبَنِي إسْرَائِيلَ في الأَرْضِ وَلَمْ يُمَكِّنْ لهم فعلاً بَلْ كَانَتْ مَرْحَلَةً عَلَى طريق التَّمْكِينِ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[3].

فرُغْمَ أنَّ مُوسَى عليه السلام نجحَ في مَهَمَّته بإخْرَاجِهِمْ من مِصْرَ فقَدْ غَادَرَهُمْ في سَيْنَاءَ في مَرْحَلَةِ التِّيه بَعْدَ رَفْضِهِمُ الدُّخُولَ إلى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ. فَلَمْ يَتِمَّ التَّمْكِينُ لهُمْ في حَيَاتِهِ عليه السلام، وكَانَتْ مَهَمَّتُهُ الأشَقُّ وَالأَصْعَبُ مَهَمَّةَ المُصْلِحِ لِنَفْسِيَّاتِهِمْ التي أُشْرِبَتِ الذُّلَّ وَعَقِيدَتِهِمْ وَما طَرَأَ عَلَيْهِم مِنَ انْحِرَافٍ حَتَّى عَبَدُوا العِجْلَ، وَمَسْلَكِيَّاتِهِمْ السَّلبيَّةِ كجماعةٍ بشريَّةٍ مُعَقَّدَةِ الطِّبَاعِ عَجِيبَةِ التَّرْكِيبِ .

وهَذِهِ المَهَمَّة لَمْ تَتَعَرَّضْ لها سُورَةُ القَصَصِ؛ لأنَّهَا وَكما ذَكَرْنَا سَابِقًا

١- سُورَة طه : الآيَة ٤٧.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٦.

٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ٥.

تَعْرِضُ عَمَلِيَّةَ الإِعْدَاد القِيَادِيّ لِمُوسَى عليه السلام، كما أنَّ وَاقع الدَّعْوَةِ لَمْ يَكُنْ يستدعي بَعْدُ ذِكْرَ التَّجْرُبَةِ الإِصْلاحِيَّةِ المريرةِ التي عاناها مُوسَى عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ لأنَّ المُوَاجَهَةَ وَقْتَها في مَكَّة كَانَتْ مَعَ المُشْرِكِينَ.

وَعِنْدَمَا قَامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلامِ في المَدِينَةِ وَتمثَّلَ الإِسْلامُ في مُجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ له علاقاتُهُ الداخليَّةُ وَالخارجيَّةُ المتشابكةُ نَزَلَتْ الحَلقَاتُ التي تَتَحَدَّثُ عَنْ عَمَلِيَّةِ الإِصْلاحِ الموسويِّ، وَما وَاجَهَهُ مُوسَى عليه السلام المُصْلِحُ من عقوباتٍ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِتَكُونَ عِبْرَةً وَدُرُوسًا للمُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ وَالأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الناشئةِ في المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ كما قَصَّتْهَا سُورَةُ المائدَة: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾[1].

فَهَلْ نَجَحَ مُوسَى عليه السلام في أَدَاءِ مَهَامِّهِ الثَّلاث ؟؟

لقَدْ نجحَ وَلا شَكَّ في مَهَمَّتِهِ الأُولَى نَجَاحًا كاملاً، وَعبرَ البَحْرَ ببَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَهْلَكَ اللهُ عزوجل عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهِيَ المَهَمَّةُ التي تَذْكُرُهَا سُورَةُ القَصَصِ مَوْضُوعُ بَحْثِنَا: ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

١- سُورَة المائدة : الآيَة ٢١.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٤٠.

أمَّا مَهَمَّته كَمُصْلِحٍ فكَانَتْ مَهَمَّةً شَاقَّةً مُرْهِقَةً، بَلْ هِيَ أعظمُ وَأشَقُّ مَهَمَّةٍ كُلِّفَ بها نَبِيٌّ من أنْبِيَاءِ اللّٰهِ بَعْدَ مُحَمَّد ﷺ وَلَمْ ينجحْ رُغْمَ جُهُودِهِ الجَبَّارَةِ التي بذلها في تحويل بَنِي إسْرَائِيلَ إلى أُمَّةٍ ذاتِ شَخْصِيَّةٍ مُمَيّزَةٍ وَرِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ، فقَدْ كَانَتْ المَهَمَّةُ أعظمَ وَأضْخَمَ مِنْ أنْ يَقُومَ بها بَشَرٌ في جيلٍ وَاحِدٍ مِنَ الأجْيَالِ، وَقَدْ أبرأ مُوسَى عليه السلام نَفْسَهُ وَأخاهُ أمَامَ اللّٰهِ عزوجل عَلَى أبوابِ فِلَسْطِين بَعْدَ أنِ اسْتَنْفَدَ جُهْدَهُ مَعَهُمْ وَيَئِسَ مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ رُغْمَ كُلِّ جُهُودِهِ مَعَهُمْ وَحَثِّهِ لَهُمْ قَائِلاً: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[1].

وهنا تَوَلَّتِ الإرَادَةُ الرَّبَّانِيَّةُ إتْمَامَ مَهَمَّة الإصْلاحِ وَلَكِنْ بَعْدَ أنْ هَلَكَ ذَلِكَ الجيلُ من بَنِي إسْرَائِيلَ الذينَ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ مُهَيَّئِينَ لعَمَلِيَّةِ النُّضُوجِ وَالإصْلاحِ وَالتَّحَوُّلِ لأُمَّةٍ رَبَّانِيّةٍ ذاتِ رِسَالَةٍ، فَأعْلَنَ اللّٰهُ عزوجل حُكْمَهُ الرَّهِيبَ فيهم قائلاً: ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[2].

وَفِعْلاً تَمَّتِ المَهَمَّةُ بَعْدَ أربعينَ سَنَةٍ بيَدِ طالوتَ القَائِدِ الرَّبَّانِيِّ الذي أُوتيَ بَسْطَةً في العِلْمِ وَالجِسْمِ وَمَعَهُ دَاودُ الفَتَى المُؤْمِنُ المجاهدُ المتَحَمِّسُ للتَّغْيِيرِ.

١- سُورَة المائدة : الآيَة ٢٥.

٢- سُورَة المائدة : الآيَة ٢٦.

وَنُلاحِظُ أَنَّ إِتْمَامَ المَهَمَّة تَمَّ بِتَوْجِيهٍ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عليه السلام وَلَكِنَّ هَذَا النَّبِيَّ لَمْ ينفذ المَهَمَّة بنَفْسِهِ، فهُوَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أعد للقِيَامِ بها، بَلْ أوكلت لمن أعد لها وَأوتي بسطة في العِلْمِ وَالجِسْمِ.

وَيحدثنا سَيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللّهُ عن جسامة الرِّسَالَةِ وَالمَهَمَّة التي كلِّف بها مُوسَى عليه السلام فيَقُولُ: «إِنَّ الرِّسَالَةَ -أَيْ رِسَالَةَ مُوسَى عليه السلام- تَكْلِيفٌ ضَخْمٌ شاقٌ مُتَعَدِّدُ الجوانب وَالتبعات؛ يحتاجُ صَاحِبُهُ إلى زادٍ ضَخْمٍ من التَّجَارُبِ وَالإِدْرَاكِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّذَوُّقِ في وَاقع الحَيَاةِ العَمَلِيِّ، إلى جانبِ هِبَةِ اللّهِ اللدُنِيَّة، وَوَحْيِهِ وَتوجيهِهِ للقَلْبِ وَالضمير .وَرِسَالَةُ مُوسَى قَدْ تَكُونُ أضخمَ تَكْلِيفٍ تَلَقّاهُ بَشَرٌ عَدَا رِسَالَةِ مُحَمَّد ﷺ فهُوَ مُرْسَلٌ إلى فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ المتَجَبِّرِ، أعتى مُلوكِ الأَرْضِ في زَمَانِهِ، وَأَقْدَمِهِمْ عرشًا، وَأَثْبَتِهِمْ مُلْكًا، وَأَعْرَقِهِمْ حَضَارَةً، وَأَشَدِّهِمْ تَعَبُّدًا لِلخَلْقِ وَاسْتِعْلاءً في الأَرْضِ . وهُوَ مُرْسَلٌ لاسْتِنْقَاذِ قَوْمٍ قَدْ شربوا من كؤوس الذُّلِّ حَتَّى استمرؤوا مذاقَهُ، فَمَرَدُوا عَلَيْهِ وَاستكانُوا دهرًا طَوِيلاً. وَالـذُّلُّ يُفْسِدُ الفِطْرَةَ البَشَرِيَّةَ حَتَّى تَأْسَنَ وَتَتَعَفَّنَ؛ وَيَذْهَبَ بما فيها من الخيرُ وَالجمالُ وَالتَّطَلُّعُ وَمن الاشمئزازِ من العفنِ وَالنتنِ وَالرجسِ وَالدنسِ، فاستنقاذُ قَوْمٍ كهَؤُلاءِ عملٌ شَاقٌّ عَسِيرٌ . وهُـوَ مُرْسَلٌ إلى قَـوْمٍ لهم عَقِيدَةٌ قَدِيمَةٌ؛ انحرفوا عنها، وَفسدتْ صُورَتُهَا في قلوبهم . فلا هِيَ قلوبٌ خامة تتقبل العَقِيدَةِ الجَدِيدَةِ ببَرَاءَةٍ وَسلامة؛ وَلا هِيَ باقيةٌ عَلَى عَقِيدَتِهَا القَدِيمَةِ، وَمُعَالجَةُ مِثْلِ هَذِهِ القلوبِ شاقَّةٌ عَسِيرَةٌ، وَالالتواءَاتُ فيهـا وَالرَّوَاسبُ وَالانْحِرَافَاتُ

تَزِيدُ المَهَمَّة مشقةً وَعُسْرًا. وهُوَ في اختصارٍ مُرْسَلٌ لإعادةِ بناء أُمَّةٍ، بَلْ لإنْشائِهَا من الأساسِ، فلأوَّلِ مَرَّةٍ يُصْبِحُ بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبًا مُسْتَقِلاً، له حَيَاةٌ خَاصَّةٌ، تحكمها رِسَالَةٌ، وَإِنْشَاءُ الأُمَمِ عملٌ ضَخْمٌ شَاقٌّ عَسِيرٌ»[1].

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/ ٢٦٩٠.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

السِّمَاتُ الشَّخْصِيَّةُ لِيُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ

إِنَّ عَمَلِيَّةَ الإِعْـدَادِ القِيَادِيِّ وَمتطلباتها وَمَرَاحِلهَا تخْتَلِفُ باخْتِلافِ سَجَايَا وَطِبَاعِ وَمزايا الشَّخْصِ المُرادِ تأهيلِهِ للقِيَادَة،سواءٌ مزايا نَفْسِيَّةٍ أَمْ أَخْلاقِيَّةٍ أَمْ عَقْلِيَّةٍ أَمْ بَدَنِيَّةٍ، فالمُتَعَجِّلُ يحتاج أَنْ يَتَعَلَّمَ الأناةَ وَالصَّبْرَ ، وَالمُتَلَفِّتُ يحتاج أَنْ يَتَعَلَّمَ الطَّاعَةَ وَالانْضِبَاطَ، وَالمُنْعِمُ المُتْرَفُ يحتاج دَوْرَةً في الخشونةِ وَالمشاقِ، وَسَاكِنُ القَصْرِ كَرِيمُ المثوى يحتاجُ تأهيلاً يَعِيشُ بِهِ بَيْنَ العَامَّةِ وَالفقراء .

وَسَيُوضِّحُ لنا فَهْمُنَا للسِّمَاتِ الشَّخْصِيَّةِ لهَذَيْنِ النَّبِيَّيْنِ الكَرِيمينِ سَبَبَ الاخْتِلافِ في عَمَلِيَّةِ الإِعْدَاد وَدِقَّةِ الوَصْفِ القُرْآنِيّ في كُلِّ مَرْحَلَة وَفي كُلِّ حَالَةٍ .

يُوسُفُ الكَرِيم

يُلاحِظُ المُتَأَمِّلُ لرَوْعَةِ وَجمالِ وَبهاءِ الشَّخْصِيَّةِ اليُوسُفِيَّةِ أَنَّ أبرزَ سِمَةٍ من سِمَاتِ يُوسُفَ عليه السلام أَنَّهُ الكَرِيمُ في نَفْسِهِ وَأخلاقِهِ وَسَجَايَاه وَمَشَاعِرِه، بَلْ إِنَّهُ كما وَصَفَه أصدقُ الخَلْقِ وَأكملُهم خَلقًا مُحَمَّدٌ بن عبد اللّه ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنْ أَكْرَمِ النَّاسِ، فَقَالَ : «أتقاهم، فقَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ :فيُوسُفُ نَبِيُّ اللّهِ ابنُ نَبِيِّ اللّهِ ابنُ خَلِيلِ اللّهِ».

وَتظهرُ شَخْصِيَّةُ يُوسُفَ الكَرِيمِ ابن الكرامِ في كُلِّ حَرَكَةٍ وَكَلِمَةٍ وَموقف من مواقف يُوسُفَ عليه السلام مَعَ إِخْوَتِهِ وَامْـرَأَةِ العَزِيز وَالنِّسْوَةِ وَصَاحِبَي السِّجْنِ، فَعِنْدَمَا تُرَاوِدُهُ امْرَأَةُ العَزِيز، التي رُبِّيَ في بيتها وَرَعَاهُ زَوْجُهَا،

يَرُدُّ عَلَيْهَا بِرَدٍّ جَمِيلٍ يظهر فيه كرمُ أصلِهِ وَحُسْنُ خُلُقِهِ، فهُوَ لا يجازي مَنْ أَحْسَنَ مثواه وَأَمَّنَهُ عَلَى بيته، وَجَعَلَهُ في مَقَامِ الوَلَدِ بخيانته في أَهْلِهِ، فيَقُولُ مُذَكِّرًا امْرَأَة العَزِيز في هياجِهَا المَسْعُورِ، وَهُجُومِهَا المجنونِ، تُرَاوِدُهُ عن نَفْسِهِ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1]. فَرَبِّي أَيْ سَيِّدِي أَكْرَمَنِي فلا أَخُونُهُ، وَهَذِهِ صِفَةُ الكِرَامِ الرد عَلَى الإِحْسَانِ بالإِحْسَانِ،لا بالخِيَانَةِ وَالإِساءَةِ وَانتهاك الأعراض .

وهُوَ كَرِيمٌ في خطابِهِ مَعَ رَفِيقَيْهِ في السِّجْنِ حِينَ يَتَوَجَّهَانِ إِلَيْهِ لتَأْوِيلِ رُؤْيَاهما، فلا يُفَسِّرُ الرُّؤْيَا مُبَاشَرَةً، بَلْ يدْخُلُ إليهِمَا بمدخلٍ لطيفٍ: «فهُوَ يَبْدَأُ معَهُمَا الحَدِيثَ عَنْ مَوْضُوعِهِمَا الذي يَشْغَلُ بالَهُمَا»[2]. فيَقُولُ عليه السلام لِصَاحِبَيْهِ المتلهفَيْنِ لتلقي الجواب ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[3].

وبَعْدَ أَنْ طمأنهُمَا أَنَّهُمَا سيَجِدَانِ عِنْدَهُ تَأْوِيلَ رُؤْيَاهُمَا، يَتَّجِه إِلَيْهِمَا بالدَّعْوَةِ بأجملِ أسلوبٍ، فعِنْدَ الحَدِيثِ عن الكفر لا يواجههُمَا بكفرهما،بَلْ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٣.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ١٩٨٨/٤.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٧.

يَقُولُ مُعَرِّضًا: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1]. «مُشِيرًا إلى القَوْمِ الذِينَ رُبِّيَ فِيهِمْ؛ إِنَّهُم بَيْتُ العَزِيز وَحَاشِيَةُ المَلِكِ وَالملأ من القَوْمِ وَالشَّعْب الذي يتبعهم، وَالفَتَيَانِ عَلَى دِينِ القَوْمِ، لَكِنَّهُ لا يواجههُمَا بِشَخْصَيْهِمَا، إِنَّمَا يواجهه القَوْمَ عَامَّة كي لا يحرجهُمَا وَلا ينفرهُمَا، وَهِيَ كياسَةٌ وَحِكْمَةٌ وَلطافةٌ وَحُسْنُ مَدْخَلٍ» [2].

وَالرَّجُلُ الكَرِيمُ لا يواجه النَّاسَ بما يسوؤهم، بَلْ يُعرِّضُ تَعْرِيضًا، وَيلمح تَلْمِيحًا إلى ذَلِكَ، وَهَذَا ما كَانَ يفعله أكرم النَّاسِ وَأكملهم خُلُقًا ﷺ فَكَانَ يُعرِّضُ بالمخطئِ، فيَقُولُ: (ما بال أقوام يفعلون كذا كذا).

وَيَبْدُو كَرَمُ الخِطَابِ اليُوسُفِيِّ مَعَ رَفِيقَيْهِ فِي السِّجْنِ حِينَ يناديهِمَا بنداء جميل بقربهِمَا إِلَيْهِ، فيَقُولُ مُتَحَبِّبًا إِلَيْهِمَا: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[3]، وَيُكَرِّرُ عَلَى مَسَامِعِهِمَا النِّدَاءَ النَّدِيَّ الجميلَ المُحَبَّبَ لسَامِعِهِ، فيَقُولُ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٣٧.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/١٩٨٨.

٣- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٣٩.

الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1]، «إِنَّهُ يتخذ مِنْهُمَا صَاحِبَيْنِ وَيَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمَا بهَذِهِ الصفة المؤنسة)[2]. وَهَذَا خُلُقُ صَاحِبِ الخُلُقِ العَظِيمِ مُحَمَّد ﷺ حِينَ كَانَ يخاطب أَصْحَابَهُ فينادي زَوْجَهُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (يا عائش)، وَيلاطفها قائلاً: (حميراء)، وَينادي ابنَ عَمِّهِ الصَّغِيرَ عَبْدَ اللهِ بن عَبَّاسَ، فيَقُولُ: (يا غُلام إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ)، وَيُلاطِفُ غُلامَ أَبِي طَلْحَةَ الصَّغِيرَ «حَفْص»، فيَقُولُ: (يا أبا عُمَيْر مَا فَعَلَ النُّغير؟! «[3].

وحِينَ يغضَبُ عَلِيٌّ رضي الله عنه مَعَ فاطمةَ ابْنَةِ الرَّسُولِ ﷺ يذهب إِلَيْهِ في المسجد وَيَقُولُ مُتَحَبِّبًا: (قُمْ أَبَا التُّرَابِ) فَكَانَ ﷺ يملك قلوبهم وَيأسرهم وَيأسر أرواحهم فَيَفْدُونَهُ بالروحِ وَالمالِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ، وهَذَا خُلُقُ الكِرَامِ أَنْ يُنَادَى الرَّجُلُ بِأَحَبِّ الأسماء إِلَيْهِ .

وَيُوسُفُ عليه السلام كَرِيمٌ أَيْضًا في أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ، حَيْثُ يَسْتَخْدِمُ الدَّعْوَةَ غيرَ المُبَاشِرَةِ، فيَقُولُ عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لله أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[4]، «فهُوَ يُعرِّضُ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤١.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/١٩٨٩.

٣- «مختصر صحيح البخاري» التجريد الصحيح - رقم ١٩٥٢.

٤- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤١.

تَعْرِيضًا في سُؤَالٍ يَهْجِمُ عَلَى الفطرة في أعماقها وَيهزها هَزًّا شَدِيدًا» [١].

وَالكَرِيمُ لا يواجه النَّاسَ بالخبر السيئ حَتَّى عِنْدَمَا يضطر لإخبارهم به، وهَذَا خُلُقُ يُوسُفَ الكَرِيم عليه السلام حِينَ تَأْوِيلِه لِلرُّؤْيَا فَهُوَ لا يحدد المَقْصُودَ مِنْهُمَا بِالقَتْلِ أو النَّجَاةِ، بَلْ يَقُولُ: ﴿**يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ [٢]، «ولم يُعَيِّنْ مَنْ هُوَ صَاحِبُ البُشْرَى وَمَنْ صَاحِبُ المصير السيئ، تلطُّفًا وَتحرُّجًا من المُوَاجَهَةِ بِالشَّرِّ وَالسُّوءِ» [٣].

وهَذَا ما تَفْعَلُهُ الصَحَابِيَّةُ الجليلةُ، أكرم النَّاسِ مهرًا، أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مَلْحَان رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حِينَ تضطر لإبلاغ زَوْجِهَا أبي طلحة رضي الله عنه بنبأ وَفاةِ طِفْلِهَا الصَّغِيرِ حَفْص، فتقول مُتَلَطِّفَةً دُونَ مُوَاجَهَةٍ: «يَا أَبَا طَلْحَة، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا أَهْلَ بَيْتٍ عَارِيَةً، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لا قَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابنَكَ» [٤].

١- «مختصر صحيح البخاري» التجريد الصحيح - رقم ١٩٥٢.

٢- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٤.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤١٩٩٢.

٤- «مختصر صحيح مسلم» المنذري - رقم ١٤٠١.

جُودٌ بِالخِبْرَةِ

وحِينَ يَأْتِيهِ صَاحِبُهُ طَالِبًا من تَأْوِيلِ رُؤْيَا المَلِكِ يُؤَوِّلُهَا عليه السلام دُونَ أيِّ تَحَرُّجٍ أو اشْتِرَاطِ أَجْرٍ أَوْ حَتَّى عتاب لِصَاحِبِهِ الذي نَسي أمره بَعْدَ خُرُوجِهِ من السِّجْنِ، وَلا يكتفي بِمُجَرَّدِ التَّأْوِيلِ الصَّادِقِ لِلرُّؤْيَا، بَلْ يَزِيدُ بتقديمه خُطَّةَ النَّجَاةِ بالبلاد وَالعباد من المَجَاعَةِ لِمُدَّةِ خمسة عشر عَامًا، فهَلْ بَعْدَ هَذَا الكَرَمِ اليُوسُفِيِّ من كَرَمٍ؟ ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[1].

وحِينَ يُرْسِلُ المَلِكُ مَنْ يُخْرِجُهُ مِنَ السِّجْنِ، يَرُدُّهُ يُوسُفُ الكَرِيمُ عليه السلام مُطَالِبًا بِبَرَاءَتِهِ أَوَّلاً، وَالكِرَامُ تهون عَلَيْهِم أرواحُهُمْ وَلا تهون عَلَيْهِم أَنْفُسُهُمْ وَسُمْعَتُهُمْ وَأعراضُهُمْ، وَيطالب بِبَرَاءَتِهِ دُونَ إساءَةٍ للمَرْأَةِ التي رُبي في بيتها رُغْمَ أَنَّهَا السَّبَبَ في سِجْنِهِ، وَلا يسيءُ حَتَّى للنِّسْوَةِ اللاتي رَاوَدْنَهُ عن نَفْسِهِ مَعَهَا، بَلْ قَالَ مُعَرِّضًا بالحَادِثَةِ التي عُرِفَتْ وَاشْتُهِرَتْ في أَوْسَاطِ القَصْرِ وَنِسْوَةِ المَدِينَةِ: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي**

١- سُورَة يُوسُف : الآيَات ٤٧- ٤٩.

بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[1]، وَهُنَا حُسْنُ السُّؤَالِ وَهُنَا غايَةُ الكرم!!

بَلْ إِنَّ إِخْوَتَهُ الذينَ أَلْقَوهُ في البِئْرِ يَعُودُونَ بإساءَةٍ جَديدَةٍ فيَتَّهِمُونَهُ أَنَّهُ كَانَ سارقًا وَلا يَرُدُّ إساءتهم، بَلْ يُسِرُّهَا في نَفْسِهِ: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[2]، وَعِنْدَمَا يَتَعَرَّفُونَ إليْهِ وَيَعْتَرِفُونَ بذنبهم أَمَامَهُ وَهِيَ اللحظة التي ينتظرها كُلُّ مظلوم لينتصفَ ممن ظَلَمَهُ وَيأخذَ الحق منه نَجِدُ يُوسُفَ عليه السلام الكَرِيمَ يسارع للعفو عنهم دُونَ تأنيب وَلا توبيخ، بَلْ يرجو لهم المغفرة، وَيطمعهم برحمة اللهِ تَعَالى، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانه: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3]، وَجوابه هنا في منتهى الحُسْنِ وَكرم الأخلاق.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ رضوانُ اللهِ عَلَيْهِم يَعْلَمُونَ أَنَّ مَوْقِفَ يُوسُفَ عليه السلام هُوَ قِمَّةٌ في حُسْنِ الخُلُقِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقًا، وَلا يَقْبَلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ من الخَلْقِ أَحْسَنَ منه خُلُقًا، وَعِنْدَمَا رفض ﷺ العفو عن أبي سفيان بن الحارث، قَالَ له علي رضي الله عنه: إئت رَسُولَ اللهِ ﷺ من قِبَلِ وَجهه، فَقُلْ لَهُ ما قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِيُوسُفَ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٠.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٧٧.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٩٢.

وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1]،فَإِنَّهُ لا يرضى أَنْ يَكُونَ أحدٌ أَحْسَنَ منه قولاً، ففعل ذَلِكَ أبو سفيان، فَقَالَ له رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»[2].

وَكَانَ جَوَابُهُ للطُّلَقَاءِ في مَكَّة جوابَ أَخِيهِ الكَرِيمِ يُوسُفَ عليه السلام يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ حِينَ ذَكَّرُوهُ أَنَّهُ أَخٌ كريمٌ وَابنُ أخ كريمٍ، فَكَانَ مِنْ خُطْبَتِهِ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: ما تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كريمٌ ، وَابنُ أخ كريمٍ، قَالَ فَإِني أقولُ لكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ عليه السلام لإِخْوَتِهِ: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[3]. وجوابُ النَّبِيِّ ﷺ شهادَةٌ لِكَرَمِ خُلُقِ يُوسُفَ عليه السلام وَحُسْنِ جَوَابِهِ، فلَوْ كَانَ هناك من جَوَابٍ أكرمَ وَأجملَ وَأَحْسَنَ مِنْ جَوَابِ يُوسُفَ عليه السلام لقاله النَّبِيُّ ﷺ، فَهُوَ الموصوفُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَنَّهُ عَلَى خُلُقٍ عظيم .

بَلْ إِنَّ يَعْقُوب عليه السلام لا يجيب هَذِهِ الإجابة لأَبْنَائِهِ حِينَ طلبوا منه أَنْ يستغفر لهم، بَلْ يَقُولُ: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4]. «ونلمح هنا أَنَّ في قلبِ يَعْقُوب عليه السلام شَيْئًا من بَنِيهِ، وَأَنَّهُ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٩١.

٢- «زاد المعاد» - ابن القيم ٣/٢٩١.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ٢٠٢٨.

٤- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٩٨.

لَمْ يَصْفُ لهم بَعْدُ وَإِنْ يعِدُهم باستغفار اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم بَعْدَ أَنْ يصفو وَيسكن وَيستريح، وَحكايَةُ عبارته بِكَلِمَةِ «سوف» لا تخلو من إِشَارَةٍ إلى قَلْبِ إِنْسَانٍ مَكْلُومٍ» [١].

وَيُقَدِّمُ يُوسُفُ عليه السلام العذرَ لإِخْوَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرَ لهم فِعْلَهُمْ بيُوسُفَ وَأَخِيهِ فيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**﴾[٢]، «أَيْ فَعَلْتُمْ وَقْتَ جَهْلِكُمْ، وَهَذَا يجري مَجْرَى العُذْرِ لَهُمْ،يعني: إِنَّكُمْ إِنَّمَا أَقْدَمْتُمْ عَلَى هَذَا الفِعْلِ القَبِيحِ المُنْكَرِ حَالَ كَوْنِكُمْ جَاهِلِينَ»[٣].

وَيَذْكُرُ نِعْمَةَ اللهِ بإِخْرَاجِهِ من السِّجْنِ وَلا يَذْكُرُ بُرُودَةَ الجُبِّ وَأَلَمَ الغُرْبَة الذي تَسَبَّبَ بِهِ إِخْوَتُهُ، وَيَنْسِبُ ما كَانَ منهم إلى نَزْغِ الشَّيْطَان، فيَقُولُ مُخَاطِبًا أَبَاهُ يَعْقُوبَ عليه السلام: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[٤]؛ «أَيْ افسد

١- «مختصر صحيح مسلم» المنذري – رقم ١٤٠١.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٨٩.

٣- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٧٩.

-«صحيح البخاري « ٣٣٨٢، فتح الباري ابن حجر العسقلاني ٧٧٣.

٤- سُورَة يُوسُف : الآيَة ١٠٠.

بَيْنَنَا، أَصْلُ النَّزْغِ الدُّخُولُ في أمرٍ لإفْسَادِهِ»[1].

ونَخْتِمُ حَدِيثَنَا بأصدق شهادة لكرم يُوسُفَ عليه السلام من الصَّادِقِ المَصْدُوقِ ﷺ «الكَرِيمُ بن الكَرِيم بن الكَرِيم يُوسُفُ بن يَعْقُوب بن إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم عليهم السلام»[2].

وهَذِهِ السِّمَةُ البَارِزَةُ في شَخْصِيَّةِ يُوسُفَ عليه السلام كَانَتْ ذاتَ دَوْرٍ أَسَاسِيٍّ في تسهيل أدائه لمَهَمَّته، فكَانَتْ تَفْتَحُ له القلوبَ وَتزيلُ سَخَمَ الحقدِ وَالحسدِ من قلوبِ المبغِضِينَ وَالحاسِدين من حَوْلِهِ، وَتُحَوِّلُ عَدَاوَتَهُمْ محبَّةً وَوُدًّا .

يُوسُفُ المُحْسِنُ

السِّمَةُ البَارِزَةُ الثَّانِيَةُ في شَخْصِيَّةِ يُوسُفَ عليه السلام التي تُكْمِلُ الأُولَى وَتُزَيِّنُهَا هِيَ الإحسانُ مَعَ الخَلْقِ وَالخَالِق،فكَانَتْ هَذِهِ الصفةُ تفتحُ أَمَامَهُ مغاليقَ الأبواب،وهِيَ صفةٌ ضروريَّةٌ لأَدَاءِ مَهَمَّته القِيَادِيَّةِ لأَنَّهُ سَيُكَلَّفُ بخَزَائِنِ مِصْرَ،وأرزاق النَّاسِ وَأقواتهم، وَبإحسانه إلى أَهْلِ مِصْرَ وَما حَوْلَهَا يَكُونُ لكَلامِهِ القبول عِنْدَهم، وَهَذَا ما حصل فعلاً في السِّجْنِ بَعْدَ أَنْ أُلقي فيه يُوسُفُ عليه السلام بريئًا من كُلِّ ذنب مُبَرَّءًا من كُلِّ عَيْبٍ، جُرمُهُ

١- «الفتوحات الإلهية» ٤٨٣/٢.

٢- «صحيح البخاري» ٣٣٨٢، فتح الباري ابن حجر العسقلاني٧٣/٧.

الوَحِيدُ العِفَّةُ وَالطَّهَارَةُ في مُجْتَمَعٍ فاسدٍ مُترَفٍ. فقَدْ تَأَثَّرَ السُّجَنَاءُ بِمُعَامَلَتِهِ وَإِحسانِهم إِلَيْهِمْ،وَصار محلَّ حُبِّهِمْ وَاحترامِهِمْ وَموضعَ سرهم وَإِلَيْهِ يلجأون لحلِّ مُشْكِلاتِهِمْ وَما يُحَيِّرُهُمْ وَيُشْغَلُ بَالَهُمْ، وَ«لقَدْ ظهر للعَزِيز وَأَهْلِ مشورته من بَعْدِ ما رأوا علامات بَرَاءَةِ يُوسُفَ عليه السلام من قَدِّ القميص من دُبر وَشهادة الشاهد،وَحزِّ الأيدي، وَقلة صَبْرِ النِّسْوَةِ عن لقاء يُوسُفَ بَعْدَ أَنْ سَجَنُوهُ كِتْمَانًا للقِصَّةِ ألا تشيعَ في العَامَّةِ، وَللحيلولة بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَة العَزِيز إلى حِينِ انْقِطَاعِ ما شاعَ في المَدِينَةِ» [1].

فلما انتهى يُوسُفُ عليه السلام إلى السِّجْنِ «وَجد فيه قَوْمًا قَدْ انقطعَ رجَاؤُهم، وَاشتدَّ بلاؤهم،فجَعَلَ يَقُولُ لهم: اصْبِرُوا وَأبشروا تؤجروا... فقَالُوا له: يا فتى ما أَحْسَنَ حَديثَكَ، لقَدْ بورك لنا في جوارك !!»[2]، فَكَانَ من صُوَرِ إِحْسَانِهِ لأصحابِهِ في السِّجْنِ أنه «كَانَ يُعزّي فيه الحَزِينَ وَيعودُ فيه المَريضَ، وَيُدَاوي فيهِ الجَرِيحَ، وَيُصَلِّي فيه الليلَ كُلَّه... فَطَهُرَ بِهِ السِّجْنَ وَاسْتَأْنَسَ بِهِ أَهْلُ السِّجْنِ، فَكَانَ إذا خَرَجَ الرَّجُلُ من السِّجْنِ رجع حَتَّى يُحْبَسَ في السِّجْنِ مَعَ يُوسُفَ عليه السلام»[3].

وَلَعَلَّ ما ذُكِرَ مُجَرَّدَ أَمْثِلَةٍ تُضْرَبُ عَلَى صُورَةِ إحسانِه للأسرى الذِينَ

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٩٢.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٦٤.

٣- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٦٥.

شَارَكُوهُ السِّجْنَ وَتَأَثَّرُوا بإحْسَانِه، فَكَانَ هَذَا التَّأَثُّرُ وَالقُبُولُ بشخصِهِ عِنْدَهم أرضيَّةً صالحةً للدَّعْوَةِ إلى الإسْلام، وَما قِصَّةُ دَعْوَتِهِ لِصَاحِبَيْهِ اللذَيْنِ طَلَبَا تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا إلا نَمُوذَجٌ من نماذج دَعْوَتِهِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السِّجْنِ، ذَكَرَها السِّيَاقُ القُرْآنِيّ لتعلقها بمصير يُوسُفَ عليه السلام لأنَّهَا السَّبَبُ الذي قدره اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِخُرُوجِهِ من السِّجْنِ، فقَدْ بَدَأَ يُوسُفُ عليه السلام الدَّعْوَةَ إلى الإسْلامِ دِيَانَةَ التَّوْحِيدِ الخَالِص وَهُوَ في السِّجْنِ، وَقَرَّرَ أنها دينُ آبائِهِ إبْرَاهِيمَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، وَقَرَّرَهَا في صُورَةٍ وَاضِحَةٍ كَامِلَةٍ دَقِيقَةٍ شَامِلَةٍ، فيما حكاه القُرْآنُ من قَوْلِهِ :﴿**قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوب مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لله أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

وتوسع نطاقُ إحسانِه إلى الخَلْقِ حِينَ صار عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ اسْتَمَرَّ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَات ٣٧- ٤٠.

في دَعْوَتِهِ إلى الإِسْلامِ عَلَى الإِحْسَانِ تَوْطِئَةً وَتمْهِيدًا لقبولِ دَعْوَتِهِ في مِصْرَ وَمُحيطِهَا الإِقْلِيمِيِّ: «وَمن الواضح أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَمَا سيطر عَلَى مقاليد الأُمُورِ في مِصْرَ اسْتَمَرَّ في دَعْوَتِهِ إِلَى الإِسْلامِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الوَاضِحِ الكامِلِ الدَّقِيقِ الشَّامِلِ، وَلا بُدَّ أَنَّ الإِسْلامَ انتشر في مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، وَهُوَ يقبضُ عَلَى أقوات النَّاسِ وَأزوادهم لا عَلَى مُجَرَّدِ مَقَاليدِ الحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَانْتَشَرَ كذَلِكَ في البِقَاعِ المُجَاوِرَةِ مِمَّنْ كَانَتْ وُفُودُهَا تأتي لِتَقْتَاتَ مما ادُّخِرَ بِحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وقَدْ رَأَيْنَا دَرَجَةَ الجَدْبِ التي حَلَّتْ بِالمنْطِقَةِ كُلِّهَا في الفَتْرَةِ حَتَّى إِنَّ إِخْوَتَهُ يأتُونَ من أرضِ كنعانَ المجاورةِ في الأَرْضِ ضمن غيرهم من القوافل لِيَمْتَارُوا من مِصْرَ وَيَتَزَوَّدُوا»[1].

وَلقَدْ كَانَ لإِحْسَانِ يُوسُفَ إلى أَهْلِ مِصْرَ وَكرم أخلاقه وَشمائله الأَثَرُ العَمِيقُ في إِنْشَاءِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ في مِصْرَ، بَلْ إِنَّ آثارَ دَعْوَتِهِ في مِصْرَ بقيتْ إلى عَصْرِ مُوسَى عليه السلام كما سنفضل إِنْ شَاءَ اللَّهُ عِنْدَ الحَدِيثِ عن عَصْرِ وَفَتْرَةِ رِسَالَةِ كُلٍّ من يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وقَدْ شَهِدَ يُوسُفُ عليه السلام بإحسانِ رَبِّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وكفى بِهِ شَهِيدًا فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2].

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ١٩٦٠

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٦.

وشَهِدَ له بالإحسانِ إِخْوَتُهُ الذِينَ كادوا وَأساؤوا إِلَيْهِ حِينَ جاؤوا يَمْتَارُونَ من مِصْرَ، فقَالُوا يَسْتَنْجِدُونَهُ لإطْلاقِ أَخِيهِمْ لِيَعُودَ مَعَهُمْ إلى فِلَسْطِين:﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]. وكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ لَهُ بِالإحْسَانِ بَعْدَ أَنْ مكَّن اللّٰهُ له في الأَرْضِ فيما نَسْمَعُ شَهَادَةَ صَاحِبَيْهِ في السِّجْنِ بالإحْسانِ في زَمَنِ الشِّدَّةِ وَالعَوَزِ وَقسوة القيد فَطَلَبَا تَأْوِيلَ ما رَأَيَاهُ: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2]. وهَذِهِ شهادة مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ لأَنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَكُونُ مُحْسِنًا في حَالِ فقره وَعوزه فإذا بسط اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له في الرزق وَمكَّن له في الأَرْضِ بطر وَاستغنى كما سَنَعْرِضُ من حَالِ قارون في القَصَصِ وَكما نشاهد في وَاقع الحَيَاةِ من حَوْلِنَا.

واشْتُهِرَ إحسانُ يُوسُفَ عليه السلام إلى النَّاسِ وَعُرِفَ أَنَّهُ يُوفِي الكيل إِلَيْهِمْ، وَيحسنُ ضِيَافَتَهُمْ وَمَنْزِلَهُمْ فَقَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكايَةً عَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا يُوسُفَ عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**﴾[3].

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٧٨.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٦.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٩.

يُوسُفُ الصِّدّيق

اشْتُهِرَ يُوسُف عليه السلام لدى عارفيه بمبالغته في الصِّدْقِ حَتَّى دَعَاهُ صَاحِبُهُ في السِّجْنِ بالصِّدِّيقِ حِينَ جاء يَطْلُبُ تَأْوِيلَ رُؤْيَا المَلِك، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[1].

وَكَانَ في صدقِهِ مَعَ صَاحِبَيْهِ في السِّجْنِ السَّبَبُ في ذِكْرِهِ أَمَامَ المَلِكِ عِنْدَ طلبِهِ تَأْوِيلَ رُؤْيَاه وَخُرُوجِهِ من السِّجْنِ وَالتَّمْكِينِ له في الأَرْضِ بَعْدَ أَنْ رأى المَلِكُ صدقه في بَرَاءَتِهِ مما نُسبَ إِلَيْهِ زُورًا وَبهتانًا من أمر النِّسْوَةِ وَامْرَأَة العَزِيز.

يُوسُفُ المُخْلِص

وَيُوسُفُ مُخْلِصٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبرَّأٌ من كُلِّ عَيْبٍ أَوْ نَقِيصَةٍ، اجتباهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فأراه ذَلِكَ الاجْتِبَاءَ في رُؤْيَا صَادِقَةٍ قصَّها صَغِيرًا عَلَى أبيهِ يَعْقُوبَ عليه السلام ، فَأَوَّلَهَا أَنَّهَا لِوَلَدِهِ الصَّغِيرِ يُوسُفَ عليه السلام من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوب كَمَا**

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤٦.

أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وشَهِدَ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِبَرَاءَةِ يُوسُفَ عليه السلام من كُلِّ عَيْبٍ أَوْ نَقِيصَةٍ حِينَ رَاوَدَتْهُ امْرَأة العَزِيز عن نَفْسِه فاستعصم، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

وَتَوَلَّى اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَرْفَ كُلِّ سُوءٍ عن عبدِهِ المُخْلِصِ يُوسُفَ عليه السلام، وشَهِدَتِ النِّسْوَةُ بِبَرَاءَتِهِ من كُلِّ سُوءٍ أَمَامَ المَلِكِ بَعْدَ سَنَوَاتِ الحَادِثَةِ، فاعْتَرَفْنَ بذَلِكَ عَلَى رؤوس الأشهاد حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[3]، تَنْزِيهًا للّه وَتَعَجُّبًا من عِفَّةِ يُوسُفَ عليه السلام، وَشَهِدَتْ له بذَلِكَ امْرَأَةُ العَزِيز أَمَامَ المَلِكِ بَعْدَ سَنَوَاتٍ عَلَى سَجْنِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4].

وَشَهِدَتْ بِبَرَاءَتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَمَامَ النِّسْوَةِ في القَصْرِ في المأدُبَةِ التي أَعَدّتها لردِّ كَيْدِهِنَّ وَإِخْرَاسِ ألسنتِهِنَّ عن النيل منها، فاعْتَرَفْتْ دُونَ حَيَاءٍ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٦.
٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٤.
٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥١.
٤- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤٦.

أَوْ مُوَارَبَةٍ أَنَّهَا رَاوَدَتْهُ عن نَفْسِهِ، فَيَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِها: ﴿**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[1]. فتَشْهَدُ بطَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ وَتَمَاسُكِهِ أَمَامَ تهالكها عليه، وَطلبِهَا إِيَّاهُ وَهمِّها بِهِ تُرَاوِدُهُ عن نَفْسِهِ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ.

فنَحْنُ أَمَامَ نَبِيٍّ اجتباه رَبُّهُ، وَطَهَّرَهُ من كُلِّ سُوءٍ، وَأَخْلَصَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ صديقٌ كريمٌ لا يَمْلِكُ المرءُ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ أَنْ يطيرَ بِهِ حُبًّا وَهيامًا. وهِيَ الصفاتُ وَالمزايا التي أَهَّلَتْهُ للقِيَامِ بمَهَمَّته خيرَ قيام، فجَعَلَ مِصْرَ أرضاً خَصْبَةً لدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَجَعَلَ قدوم وَأبويه وَإِخْوَتِهِ إلى مِصْرَ موضعَ ترحيبٍ من أَهْلِهَا وَحكامها، فدخلوها آمِنِينَ وَعاشوا قروناً في هناءٍ وَسعادة وَترحاب، حَتَّى تكاثروا وَتَنَاسَلُوا وَصَارُوا طائِفَةً عَظِيمَةَ العددِ وَالتَّأْثِيرِ في مِصْرَ، لدرجةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ زَمَنَ مُوسَى صار يَخْشَاهُمْ عَلَى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِه،وَسامهم سُوءَ العَذَابِ، فَقَتَّلَ أَبْنَاءَهُمْ، وَاسْتَحْيَى نِسَاءَهُمْ، وَسخَّرهُمْ في الشَّاقِّ المُذِلِّ من العمل إلى أَنْ جاء مُوسَى عليه السلام لِيُكْمِلَ مَهَمَّةَ أَخِيهِ يُوسُفَ عليه السلام في الدَّعْوَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ في مِصْرَ وَالعملِ عَلَى استنفاذ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِخْرَاجِهِمْ من مِصْرَ عائدين إلى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ التي قَدِمُوا مِنْهَا مَعَ أبيهم يَعْقُوب عليه السلام ، ويصنع منهم أُمَّةً ذَاتَ شَخْصِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ وَرِسَالَةٍ سامية.

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٢.

وَقَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ لبَحْثِ أبرز سِمَاتِ وَمزايا مُوسَى عليه السلام نشير إلى قَضِيَّةٍ تتعلقُ بموضوعنا في دراسة سِمَاتِ شَخْصِيَّةِ يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ وَهي: «أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عليهم السلام لَيْسُوا عَلَى طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلا ضَيْرَ في ذَلِكَ مَا دَامَ كُلٌّ منهم تدفعُهُ طبيعتُهُ إلى ابتغاءِ رضوانِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَطَبِيعَةُ نُوحٍ عليه السلام وَسَجِيَّتُهُ غيرُ طَبِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَسَجِيَّتِه، وَقَدْ شبّه النَّبِيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ رضي الله عنه بإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَعمرَ رضي الله عنه بنُوحٍ عليه السلام، وَفي كُلٍّ خَيْر.وَلا نَجِدُ في القُرْآنِ أَنَّهُ وَصَفَ مُوسَى عليه السلام بما وَصَفَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَلَمْ يقلْ فيه إِنَّ مُوسَى عليه السلام لأوّاهٌ حليمٌ، كما قَالَ في إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَلا عَيْبٌ في ذَلِكَ وَلا قُصُورٌ، فصفاتهم كُلُّهَا صفاتُ الكمال، وَلنا في رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفيهم الأسوةُ الحَسَنَةُ، فلا ضَيْرَ أَنْ تَتَنَوَّعَ الاسْتِجَابَاتُ، وَتَتَعَدَّدُ المواقفُ مَا دَامَ ذَلِكَ في سبيلِ اللهِ وَبما يرضي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» [1].

بَلْ إِنَّني أرى بَعْدَ دراسةٍ طَوِيلَةٍ وَبَحْثٍ عَميقٍ أَنَّ اخْتِلافَ السَّجَايَا وَالطِّبَاعِ ضرورةٌ نابعةٌ من اخْتِلافِ مَهَمَّةٍ وَبِيئَةٍ وَظُرُوفِ رِسَالَةِ كُلِّ نَبِيٍّ من الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، لا بَلْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يسر إلى أَنَّ ردَّةَ فِعْلِهِ كَانَتْ ستخْتَلِفُ عن أَخِيهِ يُوسُفَ عليه السلام يَوْمَ دَعَا لِلخُرُوجِ من السِّجْنِ : «إِنَّ الكَرِيمَ بن الكَرِيمِ بن الكَرِيمِ بن الكَرِيمِ يُوسُفَ بن يَعْقُوب بَنِي إِسْرَائِيلَ إِسْحَق بَنِي إِسْرَائِيلَ إِبْرَاهِيم، لَوْ لبثتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ، ثُمَّ جَاءَنِي الرَّسُولُ

١- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ٨٢.

أَجَبْتُ» [١]. أيْ «لأسْرَعْتُ الإجابةَ في الخُرُوجِ من السِّجْنِ، وَلما قَدَّمْتُ طَلَبَ البَرَاءَةِ، وَهُوَ وَصْفٌ لِيُوسُفَ عليه السلام بشدَّةِ الصَّبْرِ حَتَّى لَمْ يبادرْ بالخُرُوجِ من السِّجْنِ » [٢].

وهَكَذَا فَاخْتِلافُ السَّجَايَا وَالطِّبَاعِ لا ينتقصُ من أيِّ نَبِيٍّ من الأنْبِيَاءِ؛ ذَلِكَ أنَّ كُلا منهم قَدْ بَلَغَ ذُرْوَةَ القِمَّةِ التي لا يمكنُ لأيِّ بشرٍ بُلُوغُهَا، وَهِيَ قِمَّةُ النُّبُوَّةِ وَرفعةُ الرِّسَالَةِ «وَالنُّبُوَّةُ هِيَ الرِّفْعَةُ؛ وَهِيَ نِعْمَةٌ يمن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها عَلَى من يَشَاءُ، وَلا يبلُغُهَا أحدٌ بِعِلْمِهِ، وَلا كَشْفِهِ، وَلا يَسْتَحِقُّهَا بِاسْتِعْدَادٍ وَنِيَّةٍ، وَمَعْنَاهَا الحَقِيقِيُّ شَرْعًا مَنْ حَصَلتْ له النُّبُوَّةُ»[٣]. وَما اخْتِلافُ سَجَايَا كُلِّ نَبِيٍّ إلا اخْتِلافٌ تقتضيه مَهَمَّته وَاخْتِلافُ عَمَلِيَّةِ الإعْدَاد القِيَادِيِّ التي مَرَّ بها لِيَكُونَ الشَّخْصِيَّةَ التي أراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ تَكُونَ لتُوَاجِهَ عَصْرَهَا وَتُؤَدِّيَ فيه دَوْرَهَا.

مُوسَى الانْفِعَالِيّ

وبَعْدَ تَعَرُّفِنَا إلى سِمَاتِ وَمَزَايَا الشَّخْصِيَّةِ اليُوسُفِيَّةِ، نَتَعَرَّفُ إلى أبرز سِمَاتِ وَطِبَاعِ مُوسَى عليه السلام أعظمِ أنْبِيَاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ وَأبرزِ قادتهم عَبْرَ

١- «صحيح البخاري» ٣٣٧٢، الجامع لأحكام القُرْآن القُرْطُبِيّ ١٨٩/٥.

٢- « فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ٦٨/٧.

٣- « فتح الباري» ابن حجر العسقلاني - أحاديث الأنْبِيَاء ٣/٧.

تَاريخِهِم الطَّوِيلِ.

وَتصادفُكَ الانْفِعَالِيَّةُ في كُلِّ موقفٍ أَوْ حدثٍ في حَيَاةِ مُوسَى عليه السلام، وَلعَلَّ هَذِهِ الصفةَ كَانَتْ وَلِيدَةً بظُرُوفِ نشأته، وَما كَانَ في طُفُولَتِهِ مِنْ تَنَاقُضَاتٍ جَعَلَتْهُ حادًّا سريعًا حاسمًا قاطعًا، كالسيفِ في ردود فعله؛ فقَدْ وُلِدَ في أجواءِ الخَوْفِ ليجدَ نَفْسَهُ ملقى في تابوتٍ يجري بِهِ في اليَمِّ دُونَ ذنبٍ أَوْ جريرَةٍ إلا حمايته من سِكِّينِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ المُتَرَبِّصِينَ بِمَواليدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُربّى في قَصْرِ عَدُوِّهِ اللَّدُودِ فِرْعَوْنَ، فيما يَعِيشُ مَعَ أُمِّهِ الحقيقيَّةِ عَلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ مُرْضِعٍ لا يُمْكِنُهُ أَنْ يناديها (أمي) أَوْ يَقُولُ لأخيهِ أَوْ أخته يا (إِخْوَتَاهُ)، وَيجدُ نَفْسَهُ مُنْعَمًا في القَصْرِ فيما صَاحِبُ القَصْرِ يسومُ قَوْمَهُ سُوءَ العَذَابِ، وَيُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ العبيد، وَيُسَخَّرون في المُذِلِّ الشَّاقِّ المُهِينِ مِنَ العَمَلِ، تَنَاقُضَاتٌ رُبَّمَا شكَلتْ حَالَةَ عدم اسْتِقْرَارٍ وَسرعةٍ في ردات الفعلِ في نَفْسِ مُوسَى عليه السلام جَعَلَتْهُ انْفِعَالِيًّا حادًّا في كُلِّ مَرْحَلَةٍ أَوْ موقفٍ من حياته، وَيُشِيرُ سَيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللّٰهُ إلى هَذِهِ التناقضات التي رافقت حَيَاةَ مُوسَى عليه السلام فيَقُولُ: «إِنَّ الخَوْفَ وَالأَمْنَ يتعاقبانِ سريعًا عَلَى هَذِهِ النَّفْسِ، وَيَتَعَاوَرَانِهَا في مَرَاحِلِ حياتها جَمِيعًا. إِنَّهُ جَوُّ هَذِهِ الحَيَاةِ من بِدْئِهَا إلى نِهَايَتِهَا؛ وَإِنَّ هَذَا الانفعالَ الدَّائِمَ المَقْصُودَ في تِلْكَ النَّفْسِ مُقَدَّرٌ في هَذِهِ الحَيَاةِ، لأَنَّهُ الصفحةُ المقابلةُ لِتَبَلُّدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمُرُوِّدُهُمْ عَلَى الاستكانةِ ذَلِكَ الأمدِ الطَّوِيلِ، وَهُوَ تدبيرُ القُدْرَةِ وَتقديرُهَا العميقُ

الدقيقُ»[1].

وبعدَ أنْ بلغ مُوسَى عليه السلام أشُدَّهُ وَاستوى، وَبمُجَرَّدِ دخوله المَدِينَةَ يرى رَجُلاً من قَوْمِهِ يقتتل مَعَ قِبْطِيٍّ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ، فلا يَمْلِكُ نَفْسَهُ أنْ يَتَصَبَّرَ، مُلَبِّيًا الاسْتِغَاثَةَ وَبضربةٍ وَاحِدَةٍ حاسمةٍ يَقْتُلُ عَدُوَّهُ وَيَقْطَعُ أنْفَاسَهُ!! ﴿وَدَخَلَ المَدِينَة عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[2]. ويسألُ اللّهَ المغفرةَ مُقِرًّا بِظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ وَيعاهدُ اللّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحرارةٍ وُجْدَانِيَّةٍ وَانْدِفَاعِيَّةٍ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾[3]. «وَهَذِهِ الارتعاشةُ العنيفةُ وَقَبْلَها الانْدِفَاعُ العنيفُ، تُصَوِّرُ لنا شَخْصِيَّةَ مُوسَى عليه السلام شَخْصِيَّةً انْفِعَالِيَّةً حَادَّةَ الوُجْدَانِ، قَوِيَّةَ الانْدِفَاعِ»[4].

ولا يَسْتَطِيعُ مُوسَى عليه السلام إخفاءَ انْفِعَالِيّته في حَرَكَتِهِ في المَدِينَةِ بَعْدَ تَوَرُّطِهِ بِحَادِثَةِ القَتْلِ، فنراهُ يَسِيرُ مُتَلَفِّتًا مُتَرَقِّبًا، يرقبُ كُلَّ نَظْرَةٍ إِلَيْهِ، وَيَحْسِبُ لِكُلِّ حَرَكَةٍ أَوْ همسةٍ تُقَالُ، وَهَذَا التَّصَرُّفُ مخَالِفٌ لما يَجِبُ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ٢٦٩٢/٥.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٥.

٣- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٧.

٤- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ٢٦٨٢/٥.

اتباعُهُ عِنْدَ خشْيَةِ الانْكِشَافِ، وَالأصلُ التَّلَطُّفُ كَمَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[1]. أيْ أنَّ المَطْلُوبَ التَّصَرُّفُ بِكُلِّ أريحيَّةٍ دُونَ لَفْتِ النَّظَرِ إِلَيْهِ بِأيِّ تصرفٍ غريبٍ سواءٌ أكَانَتْ حَرَكَةً أمْ كَلِمَةً أمْ التفاتةً قَدْ تجلبُ إِلَيْهِ الأنظار، أوْ تُسَبِّبُ مشَادَّةً أوْ خصومةً تكشِفُ صَاحِبَهَا، وَلَكِنَّ مُوسَىعليه السلام يترقبُ بدَلَ أنْ يتلطفَ فَهُوَ لا يَسْتَطِيعُ الانخلاعَ من طَبِيعَتِهِ،»وَلَفْظُ (يَتَرَقَّبُ) يُصَوِّرُ هيئة القَلَقِ الذي يَتَلَفَّتُ وَيَتَوَجَّسُ، وَيَتَوَقَّعُ الشَّرَّ فِي كُلِّ لحظة. وَهِيَ سِمَةُ الشَّخْصِيَّةِ الانْفِعَالِيَّةِ تَبْدُو فِي هَذَا الموقف كذَلِكَ. وَالتَّعْبِيرُ يُجَسِّمُ هيئةَ الخَوْفِ وَالقَلَقِ بهَذَا اللَّفْظِ، كما أنَّهُ يضخمها بكلمتي (فِي المَدِينَةِ) فَالمَدِينَةُ عادةً موطنُ الأمْنِ وَالطُّمَأنِينَةِ، فإذا كَانَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فِي المَدِينَةِ، فَأعْظَمُ الخَوْفِ ما كَانَ فِي مَأمَنٍ وَمُسْتَقَرٍّ»[2].

ولعلَّ حَالَةَ التَّرَقُّبِ هِيَ التي أثارت حَوْلَهُ الشبهات، وَجَعَلَتْهُ محل اتِّهَامِ القِبْطِيِّ الآخَرِ الذي صادفه فِي اليَوْمِ التَّالِي، يتعارك مَعَ الرَّجُلِ من قَوْمِ مُوسَى عليه السلام، اسْتَغَاثَهُ الرَّجُلِ ذَاتُهُ الذي استنصره بالأمْسِ يَبْدَأُ صِرَاعًا

١- سُورَة الكَهْف : الآيَة ١٩.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ٢٦٨٣/٥.

في نَفْسِهِ الانْفِعَالِيّة، فتَكُونَ رَدَّةُ فِعْلِهِ الأَوَّلِيَّةُ إِدَانةَ صَاحِبِهِ الإِسْرَائِيلِيِّ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**﴾[1]. فمن الواضح أَنَّ الرَّجُلَ القِبْطِيَّ استفزازِيٌّ يَخْرُجُ من وَرطة ليقع في أُخْرَى، في فَتْرَةٍ حسَّاسَةٍ لا تتحمل توريطَ بَنِي إِسْرَائِيلَ في مَعَارِكَ مُرْتَجَلَةٍ خَاسِرَةٍ وَغَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ. ورُغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ يندفع مُوسَى عليه السلام لنصرة الإِسْرَائِيلِيِّ وَالبَطْشِ بِالقِبْطِيِّ وَنراه يُحَاوِلُ مَنْعَ نَفْسِهِ من التَّدَخُّلِ فتدخله سِمَةُ الانْفِعَالِيّة.

وتكرارُ لَفْظِ (أَنْ) في السِّيَاقِ مرتين يُشِيرُ لحَالَةِ التردد وَالصراع الداخليّ في نَفْسِ مُوسَى عليه السلام، ﴿ **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[2]. يَقُولُ سَيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللّٰهُ: «وَلَكِنَّ الذي حدث أَنَّ مُوسَى بَعْدَ ذَلِكَ انفعلت نَفْسُهُ بالغيظ من القِبْطِيِّ، فاندفع يُرِيدُ أَنْ يقضي عَلَيْهِ كما قضى عَلَى الأَوَّلِ بالأَمْسِ! وَلهَذَا الانْدِفَاع دلالته عَلَى تِلْكَ السِّمَةِ الانْفِعَالِيَّةِ التي أشرنا إِلَيْهَا، وَلَكِنْ له دلالته من جانب آخَرَ عَلَى مدى امتلاءِ نَفْسِ مُوسَى عليه السلام بالغيظِ من الظُّلْم، وَالنقمة عَلَى البغي، وَالضيقِ بالأذى الواقعِ عَلَى بَنِي

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٨.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٩.

إِسْرَائِيلَ، وَالتَّوَفُّزُ لِرَدِّ العُدْوَانِ الطَّاغِي، الطَّوِيلِ الأمدِ، الذِي يَحْتَفِرُ فِي القَلْبِ البُشْرَيِّ مَسَارِبَ مِنَ الغَيْظِ وَأَخَادِيدَ»[1].

مُوسَى المُتَرَقِّب

ونلمحُ انْفِعَالِيَّةَ مُوسَى عليه السلام حِينَ يأتيه النَّذِيرُ أَنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فلا يَنْتَظِرُ وَلا يَتَمَهَّلُ أَوْ يتأنّى لبَحْث جِديَّةِ المُؤَامَرَةِ وَدراسة أصوبِ تصرفٍ ينبغي لمواجهتها، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

وَمرَّةً أُخْرَى نَرَاهُ يَتَرَقَّبُ مُتَلَفِّتًا مُتَوَتِّرًا خَائِفًا، مُغَادِرًا المَدِينَةَ دُونَ زادٍ أَوْ رَاحِلَةٍ أَوْ رِفْقَةٍ لا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَنُلاحِظُ أَنَّهُ فِي المَرَّةِ الأُولَى كَانَ يَتَرَقَّبُ خِشْيَةَ انْكِشَافِ أمره، وَفِي الثَّانِيَةِ كَانَ يَتَرَقَّبُ خِشْيَةَ الإِمْسَاكِ بِهِ أَوِ القَبْضِ عَلَيْهِ!! «ونلمحُ شَخْصِيَّةَ مُوسَى عليه السلام فريدًا وَحيدًا مُطَارَدًا فِي الطُّرُقِ الصَّحْرَاوِيَّةِ فِي اتجاه مِدْيَنَ فِي جنوبي الشَّامِ وَشمالي الحجاز، مَسَافَاتٍ شَاسِعَةٍ، وَأَبْعادٍ مُتَرَامِيَةٍ، بِلا زَادٍ وَلا استعداد، فقَدْ خَرَجَ من المَدِينَةِ خائفًا يَتَرَقَّبُ، وَخَرَجَ منزعجًا بنذارة الرَّجُلِ النَّاصِحِ، لَمْ يَتَلَبَّثْ، وَلَمْ يَتَزَوَّدْ وَلَمْ يَتَّخِذْ دَلِيلاً» [3].

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ٢٦٨٣/٥.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢١.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب - ٢٦٨٣/٥.

مُوسَى المُطَارَد

وبَعْدَ قَطْعِ مُوسَى عليه السلام الصَّحْرَاءَ في حَالَةٍ من الجوعِ وَالعَطَشِ وَالإِرْهَاقِ وَالمُعَانَاةِ، جَرَّاءَ الحرِّ وَلَهِيبِ الصَّحْرَاءِ، يرى مَشْهَدًا يَسْتَفِزُّهُ وَيُثِيرُ نَخْوَتَهُ، وَيُذَكِّرُهُ ضَعْفَ أُمِّهِ وَهِيَ تُلقِيهِ في اليَمِّ خَوْفًا عَلَى حياتِهِ، وَضَعْفَ أختِهِ تَقُصُّهُ وَتحتال لإعادته إلى أُمِّهِ، وَضَعْفَ امْرَأة فِرْعَوْنَ المُؤْمِنَةُ في وَجه زَوْجِهَا الطَّاغِيَةِ وَالمُسْتَبِدِّ، تسأل اللهَ أنْ يبدلها بقَصْرِ فِرْعَوْنَ وَالخَوْفِ بجواره بَيْتًا في الجَنَّةِ وَجوارًا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيستثيره مَشْهَدُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ غنمَهُمَا، وَرُعَاةٌ أَقْوِيَاءُ خشنون يَتَفَرَّدُونَ بِالسِّقَاءِ دُونهمَا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1].

«مشى مُوسَى عليه السلام حَتَّى بلغ ماءَ مِدْيَنَ، قبيلةٌ من وَلَدِ مِدْيَنَ بن إِبْرَاهِيم، فَوَجَدَ جَمْعًا كَبِيرًا من النَّاسِ يَسُوقُونَ مَاشِيَتَهُمْ وَوَجَدَ في نَاحِيَةٍ ثانِيَةٍ امْرَأَتَيْنِ تمْنَعَانِ غنمَهُمَا لئلا يَخْتَلِطَ بِغَنَمِ النَّاسِ وَتَطْرُدَانه عن الماءِ خَوْفًا من السّقاةِ الأَقْوِيَاءِ، فوَصَلَ إلى المَرْأَتَيْنِ قَبْلَ وَصوله إلى الأُمَّةِ: قَالَ: ما شَأْنُكُمَا؟ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، واستعمال السؤال بالخطب، إِنَّمَا هُوَ في

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٣.

مُصَابٍ أَوْ مُضْطَهَدٍ، أَوْ مَنْ يُشْفِقُ عَلَيْهِ أَوْ يأتي بمنكر منَ الأَمْرِ»[1].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2].فأخبرتاه بخبرهما،»وَأَنَّ أبوهُمَا شيخ كبير لا يَسْتَطِيعُ لضعفه أَنْ يباشرَ أَمْرَ غَنَمِهِ،وَأَنَّهُمَا لِضَعْفِهِمَا وَقِلَّةِ طاقتِهِمَا لا تَقْدِرَانِ عَلَى مُزَاحَمَةِ الرِّجَالِ، وَأَنَّ عادتهُمَا التأني حَتَّى يَصْدُرَ الرِّعَاءُ مَوَاشِيهِمْ من دَوْرِهِمْ عن الماءِ وَيخلى وَحِينَئِذٍ تَرِدَانِ» [3].

فلم يتأخرْ ردُّ فعله، وَتحرك مُبَاشَرَةً: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[4]، ثُمَّ «وَصَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ مَجْهُودٌ مَكْدُودٌ، وَإذا هُوَ يطلع عَلَى مَشْهَدٍ لا تستريح إِلَيْهِ النَّفْسُ ذات المروءة، السليمة الفطرة، كنَفْسِ مُوسَى عليه السلام وجد الرُّعَاةَ الرِّجَالَ يوردُونَ أَنْعَامَهُمْ لتشربَ من الماء؛ وَوجد هناك امْرَأَتَيْنِ تمنعانِ غنمِهِمَا عن وُرُودِ الماء، وَالأَوْلَى عِنْدَ ذوي المروءة وَالفطرة السليمة أَنْ تسقي المرأتان وَتصدرا بأغنامِهِمَا أَوَّلاً، وَأَنْ يفسح لهُمَا الرِّجَالُ وَيعينوهُمَا .ولم يقعد مُوسَى الهارب المطارد، المسافر المكدود، ليستريح، وَهُوَ يَشْهَدُ هَذَا المنظرَ

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٢٤٧/٧.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٣.

٣- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٢٤٨/٧.

٤- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٤.

المنكرَ المخَالِفَ لِلمَعْرُوفِ، بَلْ تَقَدَّمَ لِلمَرْأَتَيْنِ يَسْأَلُهُمَا عَنْ أمرهِمَا الغَرِيبِ (قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ قَالَتَا: لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ). فأطلعتاه عَلَى سَبَبِ انزوائِهِمَا وَتأخرِهِمَا وَذودِهِمَا لغنمِهِمَا عن الوُرُودِ، إِنَّهُ الضعف، فَهُمَا امرأتانِ وَهَؤُلاءِ الرُّعَاةِ رِجَالٌ، وَأبوهُمَا شيخ كبير لا يقدر عَلَى الرَّعْيِ وَمجالدة الرِّجَالِ! وَثارت نخوة مُوسَى عليه السلام وفطرته السليمة، فتقدم لإقرار الأَمْرِ في نصابه، تقدم ليسقي لِلمَرْأَتَيْنِ أَوَّلاً، كما ينبغي أَنْ يفعل الرِّجَالُ ذوو الشهامة، وَهُوَ غريب في أرض لا يَعْرِفُهَا، وَلا سَنَدَ له فيها وَلا ظهير، وَهُوَ مَكْدُودٌ قَادِمٌ من سفر طَوِيلٍ بلا زاد وَلا استعداد، وَهُوَ مطاردٌ، من خلفه أَعْدَاءٌ لا يرحمون، وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لا يقعد بِهِ عن تلبيَةِ دواعي المروءة وَالنَّجْدَةِ وَالمَعْرُوفِ، وَإقرار الحق الطَّبِيعِيِّ الذي تَعْرِفُهُ النفوس (فسقى لهُمَا). مما يَشْهَدُ بِنُبْلِ هَذِهِ النَّفْسِ التي صنعت عَلَى عين اللهِ، كما يشي بقُوَّتِهِ التي ترهب حَتَّى وَهُوَ في إعياء السفر الطَّوِيلِ، وَلعلها قُوَّةُ نَفْسِهِ التي أوقعت في قلوب الرُّعَاةِ رهبته أكثر من قُوَّةِ جِسْمِه، فَإِنَّمَا يَتَأَثَّرُ النَّاسُ أَكْثَرَ بِقُوَّةِ الأَرْوَاحِ وَالقُلُوبِ»[1].

وَتَتَجَلَّى السِّمَةُ الانْفِعَالِيَّة في مُوسَى عليه السلام في أَجَلِّ صُوَرِها في مَشْهَدِ المفاجأة مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ نَرَاهُ هَارِبًا لا يُعَقِّبُ، بَعْدَ أَنْ رأى عَصَاهُ وَقَدْ تَحَوَّلَتْ حيَّةً تسعى، وَالسِّيَاقُ يوضِّحُ حدَّة رَدَّةِ فِعْلِهِ عِنْدَهُ،

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٢٦٩٢/٥.

بتصويره وَهُوَ يولي هَارِبًا، وَيضيف إِلَيْهَا مُدْبِرًا، وَزِيَادَةً فِي الْمُبَالَغَةِ وَصَفَهُ أَنَّهُ لَمْ يعقِّب، فَلَمْ يراجعْ مَا وَرَاءَهُ لِيَنْظُرَ ما حَصَلَ لعَصَاهُ: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**﴾[1]. «إِنَّهَا المفاجأة التي لَمْ يستعد لها؛ مَعَ الطَّبِيعَةِ الانْفِعَالِيّةِ، التي تأخذُهَا الوَهْلَةُ الأُولَى ﴿**وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾، وَلَمْ يفكر فِي العَوْدَةِ إِلَيْهَا لِيَتَبَيَنَ ماذا بها؛ وَليتأمل هَذِهِ العجيبة الضخمة، وَهَذِهِ هِيَ سِمَةُ الانْفِعَالِيّين البَارِزَةُ تَتَجَلَّى فِي موعدها!»[2].

وَلا يَمْلِكُ مُوسَى عليه السلام جوارحَهُ لرهبة الموقف، وَتظهر انْفِعَالِيَّتُهُ عَلَى شكل رجفةٍ فِي الجسد لا يزيلها إلا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليذهب عنه رهبةَ الموقف، فيأجره اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[3]. «وأدركتْ مُوسَى طَبِيعَتُهُ، فإذا هُوَ يرتجف من رَهْبَةِ المَوْقِفِ وَخَوَارِقِهِ المُتَتَابِعَةِ، وَمرَّةً أُخْرَى تدركُهُ الرِّعَايَةُ الحانيةُ بِتَوْجِيهٍ يَرُدُّهُ إلى السَّكِينَةِ، ذَلِكَ بأَنْ يَضُمَّ يَدَهُ عَلَى قلبه، فتَخْفِضَ من دقَّاتِهِ،وَتُطَامِنَ من خَفَقَاتِهِ: ﴿**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾، وكأنما يَدُهُ جنَاحٌ يَقْبِضُهُ عَلَى

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣١.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٩٢.

٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣٢.

صدره، كما يطمئن الطائرُ فُيُطْبِقُ جَنَاحَهُ، وَالرَّفْرَفَةُ أَشْبَهُ بِالخفقانِ، وَالقبضُ أَشْبَهُ بِالاطْمِئْنَانِ، وَالتَّعْبِيرُ يرسم هَذِهِ الصُّورَةِ عَلَى طَرِيقَةِ القُرْآنِ»[1].

الاسْتِعَانَة بِالخِبْرَات

ويدركُ مُوسَى عليه السلام طَبِيعَتُهُ الانْفِعَالِيَّةُ وَما ينتظرُهُ من مُوَاجَهَةٍ شَرِسَةٍ مَعَ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ، وَطِبَاعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجِبِلَّتُهُمُ النَّكِدَةُ الْمُعَقَّدَةُ صَعْبَةُ الانْقِيَادِ، فيَطْلُبُ من اللهِ تَعَالَى أَنْ يعينَهُ بأَخِيهِ هَارُونَ عليه السلام لِيَكُونَ في شَخْصِيَّتِهِ الهادئةِ وَرزانتِهِ وَحكمتِهِ وَتروِّيهِ في اتخاذ القرار ما يوازنُ انْفِعَالِيَّتَهُ ، إضافة لفَصَاحَةِ هَارُون عليه السلام التي توازنُ عقدةَ لسانِ مُوسَى عليه السلام، فطلب أخاه وَزِيرًا وَعَوْنًا له في أَدَاءِ مَهَمَّتِه الشاقَّة . ﴿ **وَأَخِي هَارُون هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾[2]، وَرِدْءًا أَيْ عَوْنًا مُعِينًا.

فأجاب اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَهُ ، وَجَعَلَ أَخَاهُ مَعَهُ نَبِيًّا يُصَدِّقُهُ وَوَزِيرًا يُعِينُهُ عَلَى مَهَمَّتِه، وَهَذِهِ غايةُ الحِكْمَةِ وَبُعدِ النَّظَرِ في مُوسَى عليه السلام أَنْ يَطْلُبَ عَوْنًا يخَالِفه في الطِّبَاعِ فيَكُونَ مُكْمِلاً لهُ في شَخْصِيَّتِهِ يُوَضِّحُهَا شَيْخُ الإِسْلامِ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٩٢.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣٤.

رَحِمَهُ اللّٰهُ، فيَقُولُ: «إذا كَانَ خُلُقُهُ يميل إلى اللين، فينبغي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نائبه يَمِيلُ إِلى الشِّدَّةِ ؛ وَإذا كَانَ خُلُقُهُ يَمِيلُ إِلى الشِّدَّةِ، فينبغي أَنْ يَكُونَ خُلُقُ نائبه يميل إلى اللين؛ ليعتدل الأَمْرُ. وَلهَذَا كَانَ أبو بكر الصِّدِّيقِ ﷺ يؤثر استنابة خَالِد؛ وَكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ يُؤْثِرُ عَزْلَ خَالِدَ وَاستنَابَةَ أبي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ ﷺ لأَنَّ خَالِدًا كَانَ شَدِيدًا، كعُمَر بن الخَطَّاب، وَأبا عُبَيْدَةَ كَانَ لَيِّنًا كأبي بكر؛ وَكَانَ الأَصْلَحَ لكُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ يُوَلِّيَ مَنْ وَلاه؛ لِيَكُونَ أمرُهُ مُعْتَدِلاً» [1] .

ولم تَكُنْ انْفِعَالِيّةُ مُوسَى عليه السلام عائقًا في أَدَاءِ مَهَمَّتِه أَوْ صفةً سلبيَّةً - لا سمح اللّٰهُ - بَلْ عَلَى العكس من ذَلِكَ كَانَتْ ضرورةً وَحتميَّةً يَتَوَجَّبُ وُجُودُهَا لأَدَاءِ مَهَمَّة الإِصْلاحِ في قَوْمِه لما فسد من فطرتهم وَطِبَاعِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ، وَبمُوَاجَهَةِ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وَتَأَلُّهِه عَلَى الخَلْقِ، ليَهُزَّ بقُوَّتِه النَّفْسيَّةِ وَانْفِعَالِيّتِه وَحِدَّتِه كبرياءَ فِرْعَوْنَ وَثقتِه بِنَفْسِه وَتَسْلِيم مَنْ حَوْلَهُ لاسْتِخْفافِه بِهِمْ وَاسْتِعلائِه عَلَيْهِم .

مُوسَى المُتَعَطِّشُ لِلمَعْرِفَة

وَسِمَةٌ أُخْرَى بَارِزَةٌ في شَخْصِيَّةِ مُوسَى عليه السلام هُيَ تَعَطُّشُهُ للمَعْرِفَةِ وَشَوْقُهُ الجَارِفُ لاكْتِشَافِ المجهول مَهْمَا كَانَتْ العواقبُ وَالمخاطرُ، فَلا

١- «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» ابن تيمية ، ص ١٨.

يَسْتَطِيعُ المرورَ عَلَى أمرٍ دُونَ استجْلائِهِ وَكشفِ غُمُوضِهِ حَتَّى عِنْدَ لقاءِ مَوْلاهُ لا يكتفي بتكليمِهِ إياهُ، بَلْ يَطْلُبُ أنْ يراه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[1].

وَأَمَامَ هَذَا التَّشَوُّقِ وَالرَّغْبَةِ الجَارِفَةِ للمَعْرِفَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ بَعْدَ الشُّهُودِ، يَكُونُ الدَّرْسُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لعبدِهِ عَمَلِيًّا ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[2]. فأدْرَكَ عليه السلام أنَّ لِلْمَعْرِفَةِ حَدًّا بَشَرِيًّا لا يُمْكِنُ تَجَاوُزُهُ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وسُرْعَةُ توبَةِ مُوسَى عليه السلام، وَإقرارِهِ بالذَّنبِ تُذَكِّرُنَا بتوبَتِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ القِبْطِيَّ وَعهده مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتُلائِمُ طَبِيعَتَهُ الانْفِعَالِيَّةَ التي فصلناها سابقًا، وَتُبْرِزُ رغبتَهُ في الاسْتِكْشَافِ وَالمَعْرِفَةِ لحظة وَصوله مِدْيَنَ وَرؤيته ذَلِكَ المَشْهَدِ الغريبِ المستنكرِ لفطرتِهِ السليمةِ، فلا يَمْلِكُ نفسَهُ عن التَّوَجُّهِ للفَتَاتَيْنِ بِالسُّؤَالِ في تَعَجُّبٍ عن حَالِهِمَا وَسَبَبِ طردِهِمَا للغَنَمِ عَنِ الماءِ في حِينِ يسقي غيرهُمَا من الرُّعَاةِ الأشرارِ الأقوياءِ؟!! فَقَالَ

١- سُورَة الأعراف : الآيَة ١٤٣.

٢- سُورَة الأعراف : الآيَة ١٤٣.

٣- سُورَة الأعراف : الآيَة ١٤٣.

ما خطبكما ؟؟

وتَظْهَرُ رغبتُهُ في الاسْتِكْشَافِ وَالمَعْرِفَةِ أَيْضًا في رِحْلَةِ عَوْدتِهِ إلى مِصْرَ من مِدْيَنَ مَعَ أَهْلِهِ حِينَ رأى نَارًا، فشَدَّهُ التَّشَوُّقُ لِلْمَعْرِفَةِ وَعتمةُ الطَّرِيقِ وَبردُ الشتاء إِلَيْهَا، لعله يجدُ عِنْدَهَا خبرًا أَوْ ينتفعَ فيها بجَذْوَةٍ، فانفتحَ أَمَامَهُ عالمٌ جَدِيدٌ، وَاصْطَفَاهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ بِالرِّسَالَةِ ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾[1].

إِنَّهُ يُقَدِّمُ رَغْبَتَهُ في الحُصُولِ عَلَى خَبَرٍ عَلَى الحَاجَةِ إلى جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ يَجِدُ فيها وَأَهْلُهُ شَيْئًا مِنَ الدِّفْءِ وَالنُّورِ، بَلْ إِنَّ اسْتِكْشَافَهُ وَمَعْرِفَتَهُ لكُلِّ ما حَوْلَهُ دَفَعَهُ للاعتقاد أَنَّهُ أَعْلَمُ أَهْلِ الأَرْضِ،فكَانَتْ رحلتُهُ مَعَ العبدِ الرَّحِيمِ دَرْسًا لِمُوسَىعليه السلام «بَيْنَمَا مُوسَىعليه السلام في ملأ من بَنِي إِسْرَائِيلَ جاءَهُ رَجُلٌ فقَالَ:هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ منكَ؟ قَالَ: لا،فأَوْحَى اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى مُوسَىعليه السلام :بَلَى،عَبْدُنا (الخَضِر)» [2].

فَعَلِمَ مُوسَىعليه السلام أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمَ النُّبُوَّةِ وَعِنْدَ (الخَضِر) عِلْمًا لَدُنِيًّا، ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾[3].

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٩.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٤٨.

٣- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٦٥.

مُوسَى المُبْغِضُ لِلظُّلْمِ

والسِّمَةُ الثَّالِثَةُ البَارِزَةُ في شَخْصِيَّةِ مُوسَى عليه السلام وَهِيَ أهم سِمَاته كَمُصْلِحٍ: هِيَ بُغْضُهُ الشَّدِيدُ لِلظُّلْمِ وَالاضْطِهَادِ وَالاسْتِضْعَافِ، وَتَدَخُّلُهُ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَانْدِفَاع لرَفْعِ ما يرَاهُ ظُلْمًا يَقَعُ عَلَى غَيْرِهِ، دُونَ نظرٍ للعواقبِ وَالتَّبِعَاتِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى ذَلِكَ.

فَهُوَ لا يُطِيقُ رؤيَةَ القِبْطِيِّ يقتتلُ مَعَ رَجُلٍ من بَنِي إِسْرَائِيلَ المُسْتَضْعَفِينَ دُونَ أَنْ يَتَدَخَّلَ لِرَفْعِ الظُّلْمِ، وَبِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ خاطفَةٍ يُرْدِيهِ قتيلاً!!.

وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ المَشْهَدُ في اليَوْمِ التَّالِي وَمَعَ الرَّجُلِ ذَاتِهِ، وَرُغْمَ عهدِهِ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اليَوْمِ السَّابِقِ، نَجِدُه يعاودُ نُصْرَةَ الرَّجُلِ عَلَى القِبْطِيِّ الآخَرِ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِيَتَحَوَّلَ إلى مُطَارَدٍ وَمطْلُوبٍ لفِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ !!

وبِمُجَرَّدِ أَنْ تَطَأ قَدَمَاهُ ثَرَى مِدْيَنَ، وَيرى الظُّلْمَ الواقع عَلَى الفَتَاتَيْنِ، يَنْسَى ما بِهِ من جُوعٍ وَتعَبٍ وَغُرْبَةٍ وَخَوْفٍ، وَيَتَقَدَّمُ لِرَفْعِ الظُّلْمِ ساقيًا لهُمَا دُونَ أَجْرٍ أو انْتِظَارِ لثناءٍ وَشُكْرٍ، بَلْ إِنَّهُ يختار أَطْوَلَ الأَجَلَيْنِ حِينَ يخيِّرُهُ أَبُوهُمَا، أَنْ يُنْكِحَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ عَلَى أَنْ يأجُرَهُ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ، أَوْ يُتِمَّ عشرًا، فَيَخْتَارُ التَّمَامَ، فَهُوَ يَعْتَبِرُ أَنَّ مِنَ الظُّلْمِ تَرْكُ الشَّيْخِ وَابْنَتَيْهِ عَلَى هَذَا الحَالِ، فَكَانَ وَبحقٍ وَجَدَارَةٍ نَصِيرًا لِلمُسْتَضْعَفِينَ.

مُوسَى المُصْلِح

وقَدْ اشْتُهِرَ مُوسَى عليه السلام ببُغْضِهِ لِلظُّلْمِ، وَانتصارِهِ للضُّعَفَاءِ، فَعُرِفَ في مِصْرَ قَبْلَ هربِهِ إلى مِدْيَنَ كـ (مُصْلِحٍ) وَهَذَا ما دَعَا القِبْطِيُّ الثَّانِي حِينَ رآه يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ إلى اتِّهَامِه أَنَّهُ (جَبَّارٌ وَطَاغِيَةٌ) وَلَيْسَ (مُصْلِحًا) وَلَمْ يَكُنْ أسوأ أَوْ أبغض إِلَيْهِ من وَصْفِهِ بالتَجَبُّرِ وَالطُّغْيَانِ، وَهُوَ أَشَدُّ النَّاسِ بُغْضًا للطُّغْيَانِ وَالتَجَبُّرِ وَالظُّلْمِ، بَلْ إِنَّ حياتَهُ كُلَّهَا مُسَخَّرَةٌ لمحاربة الطُّغْيَانِ وَنُصْرَةِ الضُّعَفَاءِ. ﴿**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[1]. وَتُلْهِمُ العِبَارَةُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ قَدْ اتخذَ له في الحَيَاةِ مَسْلَكًا يُعْرَفُ بِهِ أَنَّهُ رَجُلٌ (صَالحٌ مُصْلِحٌ) لا يُحِبُّ البَغْيَ وَالتَّجَبُّرَ[2].

وَبانْفِعَالِيّتِهِ وَحِدَّةِ طبعِهِ وَتَشَوُّقِهِ لِلْمَعْرِفَةِ وَحُبِّهِ للاسْتِكْشَافِ وَبُغْضِهِ لِلظُّلْمِ وَنصرته لِلْمُسْتَضْعَفِينَ، كَانَ مُوسَى عليه السلام مُؤَهَّلاً للقِيَامِ بمَهَمَّتِهِ خَيْرَ قِيَامٍ.

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٩.

٢- انظر: «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/ ٢٦٨٤.

الفَصْلُ الرَّابِع

دَوْرَاتٌ تدْرِيبِيَّةٌ

يُمَثِّلُ الأَنْبِيَاءُ النَّمَاذِجَ المُثْلَى للبَشَرِيَّةِ فَهُمُ القُدْوَاتُ الذينَ أمَرَ اللّٰهُ تَعَالَى بِاتِّبَاعِهِمْ : ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾[1]. فَكَانَ لا بُدَّ لهَذِهِ النَّمَاذِجِ من اسْتِكْمَالِ صِفَاتِ الكَمَالِ وَالرفعةِ التي يَتَّصِفُونَ بها كمُصْطَفينَ آخْيَارٍ عَبْرَ ابْتِلائِهِمْ بِمِحَنٍ وَشَدَائِدَ وَاخْتِبَارَاتٍ تُنَاسِبُ حَالَ كُلٍّ منهم.

واخْتَارَتِ العِنَايَةُ الإلهيَّةُ مُوسَى عليه السلام لاسْتِكْمَالِ بِنَاءِ شَخْصِيَّتِهِ عَبْرَ دَوْرَةٍ تدريبيَّةٍ قاسيَةٍ اخْتُبِرَتْ خلالها سِمَاتُ شَخْصِيَّتِهِ الرئيسيَّةُ الثلاثُ التي فَصَّلْنَاهَا سَابِقًا وهِيَ: الانْفِعَالِيَّةُ وَالجِدةُ وَالتَّشَوُّقُ لِلْمَعْرِفَةِ وَكَراهِيَّةُ الظُّلْمِ .

فَلَمْ يُقَاوِمْ مُوسَى عليه السلام طِبَاعَهُ لأَكْثَرَ من ثلاثة اخْتِبَارَاتٍ مَعَ العَبْدِ الرَّحِيمِ (الخَضِر) الذي وَردتْ قِصَّتُهُ في سُورَةِ الكَهْفِ، وَكَانَ شرطُ (الخَضِر) الوحيدُ عَلَى مُوسَى عليه السلام الصَّبْرَ عَلَى ما يرى منه دُونَ سؤال حَتَّى يخبرهُ بنَفْسِهِ: ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾[2]. فيما كَانَ دافعُ مُوسَى عليه السلام للصُّحْبَةِ رغبَتَهُ في المَعْرِفَةِ وَاسْتِكْشَافِ المجهولِ وَالعِلْمِ بما وَراءَ عِلْمِ النُّبُوَّةِ من العِلْمِ اللَّدُنِيِّ عِنْدَ (الخَضِر) ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[3].

١- سُورَة الأنعام : الآيَة ٩٠.

٢- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٠.

٣- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٦٦.

ولم يَصْبِرْ مُوسَى عليه السلام في الاختبار الأوَّلِ، فكَيْفَ يُقنِعُ نَفْسَهُ الثَّائِرَةَ عَلَى الظُّلْمِ بالسُّكُوتِ عَلَى خَرْقِ صَاحِبِهِ سَفِينَةً لمَسَاكِينَ أَقَلُّوهَا بِغَيْرِ ذَنْبٍ ارْتَكَبُوهُ أَوْ جُرْمٍ اقْتَرَفُوهُ، خَرْقٌ رُبَّمَا يهد السَّفِينَةَ وَرُكَّابَهَا مما يُشَكِّلُ في نظره قِمَّةَ الظُّلْمِ وَنُكْرَانِ المَعْرُوفِ!! وَكَيْفَ يَسْكُتُ دُونَ مَعْرِفَةِ الدَّافِعِ وَالسِّرِّ مِنْ وَرَاءِ فِعْلَةِ صَاحِبِهِ (الخَضِر)؟! ﴿**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾[1]، يُذَكِّرُ العَبْدُ الرَّحِيمُ بِشُرُوطِ الصُّحْبَةِ، فيَضْبِطُ مُوسَى عليه السلام انْفِعَالِيَّتَهُ وَتَشَوُّقَهُ لِلْمَعْرِفَةِ وَبغضَهُ لِلظُّلْمِ، وَفاءً بالعهد الذي قطعه عَلَى نَفْسِهِ: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾[2]، ومُوسَى عليه السلام كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِطَبِيعَتِهِ وَسِمَاتِ شَخْصِيَّتِهِ فيَقُولُ لِصَاحِبِهِ بَعْدَ تَجْرُبَتِهِ الأُولَى التي لَمْ يَسْتَطِعْ صَبْرًا عَلَيْهَا: ﴿**قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾[3]، أَيْ لا تكلفني بصُحْبَتِي إياكَ ما فيه من الصُّعُوبَةِ وَالمشَقَّةِ عَلَى نَفْسِي، وَلَكِنَّ التَّجْرُبَةَ الثَّانِيَةَ أَشَدُّ صُعُوبَةً عَلَى نَفْسِهِ، وَأَكْثَرُ مَشَقَّةً !!

إِنَّ صَاحِبَهُ يَقْتُلُ غلامًا بريئًا لا إِثْمَ له وَلا ذَنْبَ، فيشتدُّ إِنْكَارُ مُوسَى عليه السلام لفِعْلَتِهِ بِأَشَدّ من إِنْكَارِهِ لحَادِثَةِ السَّفِينَةِ، ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا**

١- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧١.

٢- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٢.

٣- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٣.

لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾[1]، فَيُذَكِّرُهُ العَبْدُ الرَّحِيمُ بِكَلِمَتِهِ الأُولَى له عِنْدَمَا طلب منه المُصَاحَبَةَ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2]. فيشعر مُوسَى عليه السلام بالحرجِ الشَّدِيدِ لعدمِ صَبْرِهِ للمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، فيَطْلُبُ من (الخَضِرِ) فُرْصَةً أَخِيرَةً يختبرُهُ بها، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ !!

وَالاخْتِبَارُ الثالثُ يُذَكِّرُهُ بالرُّعَاةِ القُسَاةِ الذي رآهم في مِدْيَنَ يبخلون عن مساعدة المَرْأَتَيْنِ وَيسْقُونَ دُونَهُمَا، ذَلِكَ أَنَّهُ وَصَاحِبَهُ استطعما أَهْلَ قريَةٍ فَأَبَوْا أَنْ يضيفوهما، فثارتْ نَفْسُ مُوسَى عليه السلام لهَذَا البُخْلِ وَاللؤمِ وَعدمِ الشُّعُورِ بمُعَانَاةِ النَّاسِ، وَفيما هُوَ غارقٌ بمَشَاعِرِه وَأفكارِهِ إذ صَاحِبُه يجدُ جِدَارًا عَلَى وَشكِ الانهيار فَيُقِيمُهُ دُونَ آجْرٍ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ في غيرِ مَحَلِّه في نَظَر مُوسَى عليه السلام ، فاشْتَدَّ إِنْكَارُهُ لِفِعْلَةِ صَاحِبِهِ مُتَعَجِّبًا منها ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[3]. فَكَانَ الفارقَ بَيْنَهُمَا بَعْدَ أَنْ أَشْبَعَ (الخَضِرُ) رَغْبَةَ مُوسَى عليه السلام في المَعْرِفَةِ، وَأخبرَهُ بِالسِّرِّ من وَراء أَعْمَالِه في التَّجَارُبِ الثَّلاثِ التي مَرَّتْ عليه، وَختمَ كَلامَهُ مَعَ مُوسَى عليه السلام بالحَدِيثِ عن الصَّبْرِ، أَوَّلِ شَرْطٍ لِلصُّحْبَةِ ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[4].

١- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٤.

٢- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٥.

٣- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٧٦.

٤- سُورَة الكَهْف : الآيَة ٨٢.

وأدْرَكَ مُوسَى عليه السلام بَعْدَ سَمَاعِهِ تفسيراتِ أفعالِ صَاحِبِهِ أنَّ عِلْمَهُ وَمُؤَهِّلاتِهِ تُنَاسِبُ مَهَمَّته التي أُرْسِلَ بها، وَدَوْرَهُ الذي أُعِدَّ لِتَأْدِيَتِهِ، وَلَوْ صَبَرَ عَلَى الصُّحْبَةِ لكان في الدَّوْرَةِ من الفوائد الشَّيْءُ الكثيرُ، وَهُوَ ما كَانَ يودُّهُ النَّبِيُّ ﷺ حينَ قَالَ: «وَدِدْنَا أنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ صَبَرَ فقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»[1].

وكما أُرْسِلَ مُوسَى عليه السلام في دَوْرَةٍ تَدْرِيبِيَّةٍ قَاسِيَةٍ مَعَ العَبْدِ الرَّحِيمِ كَانَ يُوسُفُ عليه السلام أيْضًا في دَوْرَةٍ تَدْرِيبِيَّةٍ أكْثَرَ مَشَقَّةً، استكملَ فيها شَخْصِيَّتَهُ الرَّبَّانِيَّةَ الفَذَّةَ، وَتخَلَّصَ فيها قَلْبُهُ من أيِّ تَعَلُّقٍ بِسَبَبٍ من الأسْبَابِ، غير تَعَلُّقِهِ باللهِ وَحْدَهُ. فَعِنْدَمَا غادر صَاحِبُهُ السِّجْنَ، سأله يُوسُفُ عليه السلام أنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ المَلِكِ لِيَكُونَ ذِكْرُهُ عِنْدَهُ سَبَبًا لِخُرُوجِهِ من السِّجْنِ: ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾[2].فأراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُوسُفَ عليه السلام أنْ يخلص قلبه من العلائق الدنيويَّةِ فنسي الرَّجُلُ أنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَ المَلِكِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾[3]. فلبث يُوسُفُ عليه السلام في السِّجْنِ بضعَ سِنِينَ في دَوْرَةٍ تَدْرِيبِيَّةٍ قَاسِيَةٍ رَبَّاهُ فيها رَبُّهُ وَأدَّبَهُ، فَكَانَ بَعْدَها شَخْصِيَّةً أُخْرَى

١- «فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ٩٣/٧.

٢- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٤٢.

٣- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٤٢.

تَتَمَتَّعُ بالسَّكِينَةِ وَالطُّمَأنِينَةِ وَالثقةِ المطلقةِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاليأسِ من كُلِّ سَبَبٍ من الأَرْضِ، وَيُشِيرُ النَّبِيُّ ﷺ للحكم من هَذِهِ الدَّوْرَةِ القاسيَةِ فيَقُولُ: «رَحِمَ اللهُ يُوسُفَ لولا الكَلِمَةُ التي قَالَهَا ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ»[١].

وبَعْدَ إنهائه الدَّوْرَةِ القاسيَةِ،ننظرُ إلى رَدَّةِ فِعْلِهِ عليه السلام وَقَدْ جاءَهُ رَسُولُ المَلِكِ يَدْعُوه لِلخُرُوجِ من السِّجْنِ، وَإلى أينَ؟؟ إلى المَلِكِ مُبَاشَرَةً، فماذا كَانَ جَوَابُهُ؟؟ وَهُوَ الذي كَانَ يَطْلُبُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ من صَاحِبِهِ مُجَرَّدَ ذِكْرِه عِنْدَ المَلِكِ!! يجيبُهُ جَوَابَ الواثقِ باللهِ، المُسْتَيْقِنِ بِمَعِيَّتِهِ، المُؤْمِنِ بِقَضَائِهِ، لا يَسْتَعْجِلُ الخُرُوجَ، بَلْ يَتَمَهَّلُ طالبًا البَرَاءَةَ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ،حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى:﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[٢].

وَيُشِيدُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالمُسْتَوى الذي وَصَلَ إِلَيْهِ إِخْوَةُ يُوسُفَ عليه السلام فيَقُولُ: «وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ عليه السلام لأَجَبْتُ الدَّاعِي؛ أَيْ لأَسْرَعْتُ الإِجَابَةَ فِي الخُرُوجِ من السِّجْنِ، وَلما قَدَّمْتُ طَلَبَ البَرَاءَةِ، فوَصَفَه بِشِدَّةِ الصَّبْرِ حَتَّى لَمْ يبادرْ بالخُرُوجِ» [٣]. ولَكِنَّا «نَجِدُ يُوسُفَ يَرُدُّ

١- « فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ٦٧/٧.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٠.

٣- « فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ٦٧/٧، « صحيح البخاري « ٣٣٧٢.

عَلَى رَسُولِ المَلِكِ الذي لا نَعْرِفُ إِنْ كَانَ هُوَ السَّاقِي الذي جَاءَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَوْ رَسُولاً تنفيذيًّا مُكَلَّفًا بمثلِ هَذَا الشَّأْنِ ؛ نَجِدُ يُوسُفَ السَّجِينَ الذي طال عَلَيْهِ السِّجْنُ لا يَسْتَعْجِلُ الخُرُوجَ حَتَّى تُحَقَّقَ قَضِيَّتُهُ، وَيَتَبَيَّنَ الحَقُّ وَاضِحًا في موقِفِهِ، وَتُعْلَنَ بَرَاءَتُهُ عَلَى الأَشْهَادِ من الوشَايَاتِ وَالدَّسَائِسِ وَالغمزِ في الظلامِ.قَدْ رَبَّاهُ رَبُّهُ وَأَدَّبَهُ، وَلَقَدْ سَكَبَتْ هَذِهِ التَّرْبِيَةُ وَهَذَا الأدبُ في قلبِهِ السَّكِينَةَ وَالثِّقَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، فَلَمْ يَعُدْ مُسْتَعْجِلاً وَلا عَجُولاً! إِنَّ أَثَرَ التَّرْبِيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ شَدِيدُ الوضوحِ في الفارقِ بَيْنَ المَوْقِفَيْنِ: المَوْقِفِ الذي يَقُولُ يُوسُفُ فيه لِلفَتَى: اذْكُرْنِي عِنْدَ ربِّكَ، وَالموقفِ الذي يَقُولُ له فيه: ارجعْ إلى ربِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنَّ، وَالفَارِقُ بَيْنَ المَوْقِفَيْنِ بَعِيدٌ»[1].

وفي تقديري أَنَّ عَدَمَ خُرُوجِ يُوسُفَ عليه السلام في المَرَّةِ الأُولَى عن طريق صَاحِبِه، وَخُرُوجَهُ في المَرَّةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ إعلانِ براءَتِه عَلَى المَلأ، كَانَ مرتبطًا بِالدَّوْرِ الذي أُعِدَّ لتَأْدِيَتِه، وَالمَهَمَّةِ التي أرادَهُ اللهُ لتحقيقها، فَلَوْ خَرَجَ بِوَسَاطَةِ صَاحِبِهِ بذِكْرِهِ عِنْدَ المَلِكِ لما زَادَ شَأْنُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ، عَلَى أَنْ يَكُونَ حُرًّا طليقًا من سِجْنِه!!

أَمَّا بَعْدَ ثُبُوتِ بَرَاءَتِه وَفَضْلِه عِنْدَ المَلِكِ بتَأْوِيلِه لِلرُّؤْيَا، وَوَضْعِهِ خُطَّةٍ اقْتِصَادِيَّةٍ لِلخُرُوجِ بمِصْرَ وَمُحِيطِهَا الإِقْلِيمِيِّ من سَنَوَاتِ المَجَاعَةِ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ١٩٩٤.

العِجَافِ،فقَدْ استحقَّ من المَلِكِ أنْ يَجْعَلَهُ عنْدَهُ مَكِينًا أمينًا. وأنْ يُسَارِعَ لتَوْلِيَتِهِ عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ وَيَجْعَلَهُ عَلَى خيراتها وَأرزاقِ أهْلِهَا، وَكَانَ جديرًا بذَلِكَ في نَظَرِ المَلِكِ، لَيْسَ لأنَّهَا مِنَّةٌ وَتَفَضُّلٌ عليه، بَلِ استحقاقٌ يُؤَدِّيهِ لَهُ وَأمَانَةٌ يَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْدَ ثُبُوتِ أمَانَتِهِ وَجَدَارَتِهِ.

وبَعْدَ اسْتِعْرَاضِنَا للدَّوْرَاتِ التَّدْرِيبِيَّةِ الاسْتِكْمَالِيَّةِ التي مرّ بها كُلٌّ من يُوسُفَ وَمُوسَىعَلَيْهِمَا السَّلامُ وَسماتِ وَمزايا كُلٍّ مِنْهُمَا، نَسْتَعْرِضُ السِّمَةَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الأنْبِيَاءِ جَمِيعًا كما تبرزُ من خلالِ شَخْصِيَّةِ يُوسُفَ وَمُوسَى وَيَعْقُوب عَلَيْهِمُ السَّلامُ في سُورَتَيْ يُوسُفَ وَالقَصَصِ وَهِيَ الاتِّصَالُ الدَّائِمُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الشِّدَّةِ وَالرخاءِ في المِحْنَةِ وَالمنحةِ، في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

فنَجِدُ يَعْقُوبَ عليه السلام وقَدْ سمِعَ رُؤْيَا وَلَدِهِ، فاستبشر بها يَذْكُرُ نِعْمَةَ اللهِ وَفضلَهُ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوب كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1]. وَيَسْتَمِدُّ العَوْنَ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ أنْبَؤُوهُ بالخَبَرِ المُفْجِعِ وَالمُصِيبَةِ التي كَانَ يخشى أنْ تحل بوَلَدِهِ الصَّغِيرِ الحَبِيبِ يُوسُفَ عليه السلام ، فيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِه وَهُوَ يستعينُ به: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا**

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٦.

تَصِفُونَ﴾[1].

ولا يَفْقِدُ يَعْقُوبُ أملَهُ بِعَوْدَةِ يُوسُفَ عليه السلام رُغْمَ مُرُورِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ عَلَى غيابِهِ، بَلْ يزدادُ يَقينًا بِعَوْدَتِهِ سالمًا عِنْدَمَا يأتيه النَّبَأُ المُفْجِعُ بِفَقْدِ وَلَدِهِ الثَّانِي (بِنْيَامِينَ) فيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وَعِنْدَمَا يستنكر أَبْنَاؤُهُ رجاءه بِعَوْدَةِ يُوسُفَ عليه السلام وَذِكْرَهُ إِيَّاهُ المَرَّةَ تِلْوَ المَرَّةِ، وَأَنَّ فِي ذَلِكَ هَلاكَهُ وَتَلَفَهُ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِه وَهُوَ يَسْتَعِينُ بِهِ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[3].

يَقُولُ سَيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هَذِهِ الكَلِمَاتِ يَتَجَلَّى الشُّعُورُ بحقيقة الأُلوهيَّةِ فِي هَذَا القلب الموصول؛ كما تَتَجَلَّى هَذِهِ الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر، وَلألائها الباهر. إِنَّ هَذَا الواقعَ الظاهرَ الميئسَ من يُوسُفَ، وَهَذَا المدى الطَّوِيلَ الذِي يقطع الرجاء من حياته فضلاً عَلَى عودته إلى أبيه، وَاستنكارِ بنيه لهَذَا التطلع بَعْدَ هَذَا الأمد الطَّوِيلِ فِي وَجْهِ هَذَا الواقع

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ١٨.
٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٨٣.
٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٨٦.

الثقيل، إنَّ هَذَا كُلَّهُ لا يؤثرُ شَيْئًا في شُعُورِ الرَّجُلِ الصالحِ برَبِّهِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ حَقِيقَةِ رَبِّهِ وَمِنْ شَأْنِهِ ما لا يَعْلَمُ هَؤُلاءِ المحجوبون عن تِلْكَ الحقيقة بذَلِكَ الواقع الصَّغِيرِ المَنْظُورِ! وهَذِهِ قيمةُ الإيمانِ باللهِ وَمَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا اللونُ من المَعْرِفَةِ مَعْرِفَةُ التَّجَلِّي وَالشُّهُودِ، وَملابسةُ قدرته وَقدره، وَملامسةُ رحمته وَرعايته، وَإِدْرَاكُ شَأْنِ الألوهيَّةِ مَعَ العبيدِ الصَّالِحِينَ. إنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) تجلو هَذِهِ الحقيقة بما لا تَمْلِكُ كَلِمَاتُنا نَحْنُ أنْ تجلوها، وَتَعْرِضُ مَذَاقًا يُعْرَفُهُ مَنْ ذاق مثله، فيدرك ماذا تعني هَذِهِ الكَلِمَاتُ في نَفْسِ العبد الصالح يَعْقُوب. والقلبُ الذي ذاقَ هَذَا المذاقَ لا تبلغُ الشَّدائدُ منه مَهْمَا بلغتْ إلا أنْ يتعمقَ اللَّمْسُ وَالمُشَاهَدَةُ وَالمذاقُ!» [1].

بَلْ إنَّ يقينَهُ الذي ملأ عَلَيْهِ قلبَهُ وَرُوحَهُ يَنْتَقِلُ إلى جَوارِحِهِ فَيَشُمُّ رَائِحَةَ يُوسُفَ عليه السلام قَبْلَ أنْ يَصِلَهُ العِيرُ، وَيُلْقَى عَلَى وَجهه القَمِيصُ، فيرتدُّ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، وَيُؤَكِّدُ شُهُودُهُ لصِدْقِ يَقِينِهِ بِعَيْنِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُشَاهِدُ بقلبِهِ، فيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِه وَهُوَ يخاطب أَوْلادَهُ المحْجُوبينَ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [2].

وَيَتَجَلَّى قَلْبُ يُوسُفَ عليه السلام الموصولُ برَبِّهِ، كما هُوَ قَلْبُ أبيه يَعْقُوب عليه السلام

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/٢٠٦٦.

٢- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٩٦.

فِي كُلِّ موقف من حياته تجليًا رائعًا نلمسه كُلَّمَا أَعَدْنَا تِلاوَةَ قِصَّتِهِ، وَنَزْدَادُ شُعُورًا بِهِ حِينَ نعيش مَعَهُ وَما كَانَ يعانيه، نَسْتَشْعِرُهُ بجوارِحِنَا فَهُوَ الشَّاكِرُ مَوْلاهُ عن الرَّخَاءِ الصَّابِرُ عَلَى بلواهُ وَقْتَ الشِّدَّةِ.

فحِينَ تُـرَاوِدُهُ امْـرَأَة العَزِيز عن نَفْسِهِ يلتجئ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُسْتَعِينًا بِهِ مما تطلبه المَرْأَةُ من مُوَاقَعَةِ الفَاحِشَةِ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[1]، فَهُوَ يَطْلُبُ الاعْتِصَامَ وَالتَّحَرُّزَ مِنْ دَعْوَتِهَا وَفِتْنَتِهَا، وَعِنْدَمَا تصبحُ المُرَاوَدَةُ عَلنيَّةً وَجماعيَّةً بانضمامِ النِّسْوَةِ لامْرَأَة العَزِيز، وَيَشْتَدُّ الأَمْرُ عَلَى يُوسُفَ عليه السلام يناجي رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوسلاً منه النَّجَاةَ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[2]، فكَانَتْ الإجابة من اللهِ مُبَاشَرَةً لهَذَا القلب العَامِرِ بالإيمانِ الموصول بمَوْلاهُ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[3]، وَنلمس هَذَا الاتِّصَالَ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ من كَلِمَاتِهِ فِي

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٣.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٣.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٤.

السِّجْنِ مَعَ صَاحِبِهِ وَقَدْ طلب إِلَيْهِ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا فَيَبْدَأُ حَدِيثَهُ مَعَهُمَا ناسِبًا الفَضْلَ في عِلْمِهِ بِالتَّأْوِيلِ للهِ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1].

وَيَذْكُرُ فضلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آبائِهِ بِالهِدَايَةِ لِلإِسْلامِ وَالطهارةِ من الشِّرْكِ، حَيْثُ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[2].

ويرثي في خِتَامِ عبارَتِهِ لحَالِ النَّاسِ الذينَ لا يشكرون هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَلا يَسْتَشْعِرُونَ فضلَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِم بِالهِدَايَةِ لِلإِسْلامِ، وَهِيَ أعظمُ نِعْمَةٍ يفوزُ بها الإِنْسَانُ، وَكم من المُسْلِمِينَ لا يَسْتَشْعِرُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْهِم!!

ورُغْمَ المِحْنَةِ وَالشِّدَّةِ وَالوَحْشَةِ في سِجْنِهِ فَإِنَّنَا نَسْمَعُ صَوْتَهُ قَوِيًّا صافِيًا صَادِقًا يَدْعُو إلى دِينِهِ دُونَ مُجَامَلَةٍ في الحَقِّ وَلا مُوَارَبَةٍ في العَقِيدَةِ رُغْمَ رِقَّةٍ وَرَوْعَةٍ وَجمالِ أسلوبِهِ وَكَلِمَاتِهِ النَّابِعَةِ مِنْ كَرَمِ خِصَالِهِ كَمَا فَصَّلْنَا سَابِقًا ، يَقُولُ تَعَالَى مُوَضِّحًا أسلوبَهُ في الدَّعْوَةِ إلى اللهِ تَعَالَى : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٧.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٨.

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لله أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وَعِنْدَمَا يُمَكِّنُ اللّٰهُ له في الأَرْضِ وَيَجْعَلُهُ عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ وَيجمعُ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتَهُ مُقِرِّينَ بِفَضْلِهِ، مُعْتَرِفِينَ بذنبهِمْ، وَيرفعُ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَيرَى تَحَقُّقَ رُؤْيَاهُ بَعْدَ آنْ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَيُعَبِّرُ اللّٰهُ تَعَالَى عن أُمْنِيَتِهِ وَغايَةِ آمالِهِ فيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2]. يَطْلُبُ آنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا وَآنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ مِمَّنْ سَبَقُوهُ، لسانُ حَالِه يَقُولُ: «رَبِّ إِنِّي لا أسألكَ سُلْطَانًا وَلا صِحَّةً وَلا مالاً، رَبِّ إِنِّي أسألك ما هُوَ أبقى وَأغنى،توفني مُسْلِمًا وَألحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وَهَكَذَا يتوارى الجاهُ وَالسُّلْطَانُ وَفَرْحَةُ اللقاءِ، وَاجتماعُ الأَهْلِ وَلَمَّةُ الإِخْوَانِ، وَيَبْدُو المَشْهَدُ الأخيرُ مَشْهَدَ عبدٍ فردٍ يَبْتَهِلُ إلى اللّٰهِ تَعَالَى آنْ يحفظَ له إسلامَهُ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، وَآنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ»[3].

وننظر إلى مُوسَى عليه السلام وقلبِهِ المُعَلَّقِ بِاللّٰهِ تَعَالَى وَنَفْسِهِ المَوْصُولَةِ بِعَلْيَائِهِ

١- سُورَة يُوسُف، الآيات ٣٩-٤٠.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ١٠١.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ٢٠٣٠.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَنُلاحِظُ ذَلِكَ التَّعَلُّقَ الدَّائِمَ وَالاتِّصَالَ مَعَ اللهِ تَعَالَى في كُلِّ مَحَطَّةٍ مِنْ حَيَاتِهِ، وَكُلِّ مَوْقِفٍ مِنَ المَوَاقِفِ، حَتَّى يَصِلَ إلى ذَلِكَ الاتِّصَالِ العَظِيمِ الذي لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ بَشَرٌ حِينَ كلَّمه اللهُ تَعَالَى تَكْلِيمًا، وَهَذَا تَكْرِيمٌ ما بَعْدَه تَكْرِيمٌ وَصِلةٌ وَقربٌ لعبدٍ حَبِيبٍ مِنْ مَوْلاهُ مُقَرَّبٍ إِلَيْهِ.

فبَعْدَ قَتْلِهِ القِبْطِيَّ يَتَوَجَّهُ إلى اللهِ تَعَالَى مُسْتَغْفِرًا منيبًا تائبًا، يُنَاجِيه، مُسْتَشْعِرًا قُرْبَهُ فلا يَسْتَخْدِمُ حَرْفَ النِّدَاءِ: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ**﴾[1]. وحِينَ يأتيه النَّذِيرُ بِتَآمُرِهِمْ عَلَيْهِ لِقَتْلِهِ، فَيُغَادِرُ مِصْرَ هاربًا طريدًا عَلَى مِدْيَنَ، يتوجَّهُ إلى اللهِ تَعَالَى يسألُهُ النَّجَاةَ مِنْ عَدُوِّهِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِه: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2]. وَيَتَّجِهُ إلى مِدْيَنَ في الطَّرِيقِ التي لَمْ يَسْلُكْهَا أَوْ يَعْرِفْهَا يَوْمًا، وَفي سَفَرٍ لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهُ، وَلَمْ يَتَزَوَّدْ لأَجْلِهِ بِطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ رَاحِلَةٍ فَيُنَاجِي رَبَّهُ ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[3].

وبَعْدَ سقايته لِلفَتَاتَيْنِ من البِئْرِ، لا يَسْأَلُ أحدًا شَيْئًا رُغْمَ حَاجَتِهِ وَرِحْلَتِهِ الشَّاقَّةِ الطَّوِيلَةِ من مِصْرَ إلى مِدْيَنَ، بَلْ يَتَوَلَّى إلى الظِّلِّ شاكيًا

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ١٧.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢١.

٣- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٢.

إلى اللهِ وَحْدَهُ فَقْرَهُ وَحَاجَتَهُ لِفَضْلِهِ: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

ويَجْعَلُ اللهَ تَعَالَى وَكيلاً عَلَى عقْده مَعَ الشَّيْخِ في مدْيَنَ بَعْدَ أنْ عَرَضَ عَلَيْهِ أنْ يُزَوِّجَهُ إحْدَى ابْنَتَيْهِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[2].

وَيُكَذَّبُ مُوسَى عليه السلام وَيُتَّهَمُ بِالسُّحِّ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إلى مِصْرَ، فَيكتفي بشَهَادة اللهِ لَهُ، فيَقُولُ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً عنه وَهُوَ وَاثِقٌ برَبِّهِ، مُسْتَيْقِنٌ بِحُسْنِ العَاقِبَةِ: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

وَتَتَجَلَّى ثَمَرَةُ هَذَا الاتِّصَالِ الوثيقِ بِاللهِ وَاسْتِشْعَارِ مَعِيَّتِهِ في قَلْبِ مُوسَى عليه السلام حِينَ يَعْتَرِضُهُ البَحْرُ في هُرُوبِهِ من مِصْرَ من بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ من وَرائِهِ، فَيَصْرُخُ المَحْجُوبُونَ من قَوْمِهِ في فَزَعٍ وَخَوْفٍ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[4]، فيجيبهم إجابَةَ الوَاثِقِ برَبِّهِ، المُسْتَشْعِرِ بِمَعِيَّتِهِ،المُسْتَيْقِنِ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٤.
٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٨.
٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣٧.
٤- سُورَة الشُّعَرَاء : الآيَة ٦١.

بِمَدَدِهِ وَنصرِهِ ﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1]. وهِيَ المَعِيَّةُ التي عبَّر عنها رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أدركه مُشْرِكُو قُرَيْشٍ مَعَ صَاحِبِهِ في الغار يَوْمَ الهِجْرَةِ للمَدِينَةِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ إِلا تَنْصرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيز حَكِيمٌ﴾[2]. فَكَانَ هَذَا ردَّهُ عَلَى كَلِمَةِ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه (يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!!).

فالاتِّصَالُ باللهِ وَاستشعارُ مَعِيَّتِهِ صِفَةٌ مُشْتَرَكَةٌ أَسَاسِيَّةٌ لكُلِّ أولياءِ اللهِ وَأصفيائِهِ من خَلْقِه، وَكُلَّمَا زَادَ الاتِّصَالُ بَيْنَ العبدِ وَرَبِّهِ زادَ مَدَدُهُ إيَّاهُ بِالعَوْنِ وَالقُوَّةِ وَالتَّأييدِ، وَألقى مَحَبَّتَهُ في قلوبِ الخَلائِقِ، فأَحَبَّهُ المُؤْمِنُونَ وَخَافَهُ الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ،وَإِنْ كَانَ فَرْدًا أَعْزَلَ مُجَرَّدًا من كُلِّ قُوَّةٍ أَوْ عَتَادٍ!! فَمَنْ كَانَ مَعَهُ اللهُ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ.

وَإلى جانبِ السِّمَاتِ وَالمزايا الشَّخْصِيَّةِ لمُوسَى وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ وَالمزايا الشَّخْصِيَّةِ لمُوسَى وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ في الجانب السُّلُوكِيّ وَالنَّفْسِيِّ نُلاحِظُ أَنَّ بَيْنَهُمَا اخْتِلافًا في المزايا الجَسَدِيَّةِ أَيْضًا.

١- سُورَة الشُّعَرَاء : الآيَة ٦٢.

٢- سُورَة التَّوْبَة : الآيَة ٤٠.

قُوَّةُ مُوسَى

لقَدْ امتاز مُوسَى عليه السلام بالقُوَّةِ الجَسَديَّةِ، فما أنْ وَكَزَ الفِرْعَوْنيَّ حَتَّى قَتَلَه بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ فقضى عَلَيْهِ، وَحِينَ سَقَى للفَتَاتَيْنِ رَهبَ الرُّعَاةُ قُوَّتَهُ الجَسَدِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةُ فأتاحوا له السِّقَايَةَ من البِئْرِ دُونَ اعْتِرَاضٍ أوْ مُقَاوَمَةٍ.

كما نَرَى قُوَّةَ مُوسَى عليه السلام في قَطْعِهِ الطَّرِيقَ ماشِيًا من مِصْرَ إلى مِدْيَنَ، دُونَ زاد أوْ رَاحِلَةٍ،وَيُعَبِّرُ القُرْآنُ الكَرِيمُ عن هَذِهِ القُوَّةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مُوسَى عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحسنين**﴾[1]. والاسْتِوَاءُ تَعْبِيرٌ عن كَمَالِ النُّضُوجِ العُضْوِيِّ وَالعَقْلِيِّ وَيَكُونُ عَادَةً حَوَالِيْ سِنِّ الثلاثين .

حُسْنُ يُوسُفَ

أمَّا يُوسُفُ عليه السلام فلا يَصِفُهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ بهَذِهِ الصِّفَةِ رُغْمَ اسْتِخْدَامِ العبارَةِ ذَاتِهَا وَالأحرفِ وَالكَلِمَاتِ ذَاتِهَا: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[2]،وَالأشُدُّ بُلُوغُ الحُلم[3]. ويَكُونُ في سِنٍّ أصغرَ من مُوسَى عليه السلام الذي بَلَغَ أشُدَّهُ وَاسْتَوَى، وَذَلِكَ أنَّ يُوسُفَ عليه السلام تَمَتَّعَ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ١٤٠.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٢.

٣- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ١٤٢/٥.

بصفةٍ جَسَدِيَّةٍ أُخْرَى هِيَ الحُسْنُ، فقَدْ وَرَدَ في حَدِيثِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِم وَصْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُوسُفَ عليه السلام «فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ»[1].

وعلينا أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ مِحْنَة مُوسَى عليه السلام كَانَتْ بِسَبَبِ قُوَّتِهِ حِينَ وَكَزَ القِبْطِيَّ فقَتَلَه، وَمِحْنَةُ يُوسُفَ عليه السلام كَانَتْ بِسَبَبِ جَمَالِهِ، حَيْثُ فُتِنَتْ بِهِ امْرَأَة العَزِيز، فرَاوَدَتْهُ المَرَّةَ تِلْوَ المَرَّةِ، حَتَّى بَلَغَ الأَمْرُ بها أَنْ تَخْلَعَ بُرْقُعَ الحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهَا، وَتُكَاشِفَهُ برَغْبَتِهَا، وَتُغَلِّقَ الأَبْوَابَ، وَتُمَزِّقَ قَمِيصَهُ تُرَاوِدُهُ عن نَفْسِهِ.

ولم تَمْلِكِ النِّسْوَةُ حِينَ رَأَيْنَهُ إلا أَنْ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيهِنَّ إِكْبَارًا لَهُ، وَذُهُولاً لحُسْنِ جمالِهِ، حَيْثُ يُصَوِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا المَشْهَدَ بِقَوْلِهِ: ﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾[2]. وَكَانَ في جَمَالِهِ وَحُسْنِهِ مزيدُ ابْتِلاءٍ لَهُ، لِيَصْبِرَ عَلَى فِتْنَةِ مُجْتَمَعٍ مُتْرَفٍ، وَقَصْرٍ فاسدٍ، يعتبرُ الجمالَ وَالمتعةَ وَالجنسَ أعلى قِيمَةٍ، وَكلتا الصِّفَتَيْنِ فيها الحِكْمَةُ؛ لِتَتَنَاسَبَ مَعَ طَبِيعَةِ مَهَمَّةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالعَصْرِ الذي أُرْسِلَ فيه، ففي حِينِ احتاج مُوسَى عليه السلام

١- « صحيح مسلم» ١/٣٨٥ رقم الحديث(٢٣٤).

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٨.

القُوَّةَ ليفرضَ شَخْصِيَّتَهُ القِيَادِيَّةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الذينَ اعتادوا الخَوْفَ من القُوَّةِ وَالخضوعَ لها، وَليرهَبَهُ فِرْعَوْنُ الطَّاغِيَةُ وَجُنْدُهُ المُفْسِدُونَ في الأَرْضِ، وَهم لا يَعْرِفُونَ غيرَ مَنْطِقِ القُوَّةِ وَالبَطْشِ، وَهِيَ أَيْضًا ضَرُورِيَّةٌ لمَنْ يَرْعَى الغَنَمَ عشر سَنَوَاتٍ، وَيَرْحَلُ مِنْ مِصْرَ إلى مِدْيَنَ ذَهَابًا وَإِيَابًا وَيَخْرُجُ بِقَوْمِهِ هاربًا من مِصْرَ إلى فِلَسْطِين، وَيَقُودُهُمْ في سَيْنَاءَ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ، كُلُّهَا مَهَمَّاتٌ وَمواقِفُ تحتاج قُوَّةَ البدنِ وَصلابَتَهُ وَطُولَهُ،كَمَا وَصَفَهُ الرَّسُولُ ﷺ في حَدِيثِ الاسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، حَيْثُ روى البخاري في صحيحه عن ابْنِ عَبَّاسَ: «وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ فَقَالَ مُوسَى آدَمُ طوَالٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ»[1].

أَمَّا يُوسُفُ عليه السلام فلا حَاجَةَ له بهَذِهِ الصفة الجَسَدِيَّةِ لأَدَاءِ مَهَمَّته، فَهُوَ لن يَرْعَى الغَنَمَ في مِدْيَنَ، وَلن يَهْرُبَ مِنْ مِصْرَ إلى مِدْيَنَ، وَلن يُوَاجِهَ بَطْشًا وَطُغْيَانًا للسُّلْطَةِ في مِصْرَ، فَمُوَاجَهَتُهُ وَمَعْرَكَتُهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ!! وَهُوَ ما سَنَسْتَعْرِضُهُ في الفَصْلِ القَادِمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

١- «صحيح البخاري» ١١/١٩٤ رقم الحديث(٣١٤٤). شنوءة: (حَيٌّ مِنَ الْيَمَنِ يُنْسَبُونَ إِلَى شَنُوءَةَ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ، وَلَقَبُ شَنُوءَةَ لِشَنَآنٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِه، وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ شَنُوئِيٌّ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِك رَجُلٌ فِيهِ شَنُوءَةٌ أَيْ تَقَزُّزٌ، وَالتَّقَزُّزُ بِقَافٍ وَزَايَيْنِ التَّبَاعُدُ مِنْ الْأَدْنَاسِ، قَالَ الدَّاوُدِيُّ رِجَالُ الْأَزْدِ مَعْرُوفُونَ بِالطُّولِ.

أنظر: «فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ١٠/١٨٩.

الفَصْلُ الخَامِس

اخْتِلافُ العَصْرِ وَالزَّمَانِ لِبِعْثَةِ كُلٍّ مِنْ يُوسُفَ ومُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ

رُغْمَ أنَّ كلاً من يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ من أنْبِيَاءِ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكلاهُمَا قَضى أغْلَبَ حَيَاتِهِ في قَصْرٍ فإنَّ ظُرُوفَ وَأحوالَ بَنِي إسْرَائِيلَ في عَصْرِ كُلٍّ مِنْهُمَا مُخْتَلِفَةٌ اخْتِلافًا جِذْرِيًّا. وَاخْتِلافُ أجْوَاءِ أدَاءِ المَهَمَّة يُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا عَلَى طَبِيعَةِ مَرَاحِلِ الإعْدَادِ للقَائِدِ إضَافَةً لما ذَكَرْنَا سَابِقًا من طَبِيعَةِ المَهَمَّةِ التي يُكَلَّفُ بِهَا، وَطِبَاعِ القَائِدِ نَفْسِهِ وَسَجَايَاهُ.

وَنُلاحِظُ أنَّ كلاً من سُورَتَيْ القَصَصِ وَيُوسُفَ تُصَوِّرُ عَصْرًا أوْ زَمَنًا مُخْتَلِفًا حَيْثُ يَسْتَخْدِمُ السِّيَاقُ القُرْآنِيّ في سُورَةِ يُوسُفَ لَفْظَةَ (المَلِكِ) لِلتَّعْبِيرِ عن حاكِمِ مِصْرَ وَقْتَها، فيما يُعَبِّرُ في القَصَصِ عنه بِلَفْظِ (فِرْعَوْنَ)، وَكذَلِكَ لفْظُ (العَزِيز) في يُوسُفَ لِلتَّعْبِيرِ عن رئيس وُزراءِ مِصْرَ أوْ وَزيرِ مَالِيَّتِهَا وَأمينِ خَزَائِنِها. «وَكَلِمَةُ العَزِيز في قِصَّةِ، وَتَعْبِيرِ المَلِكِ في القَصَصِ نَفْسِهَا، وَكَلِمَةُ فِرْعَوْنَ في قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام هِيَ ترجمات دقيقة لما كَانَ يستعمل في تِلْكَ الفَتْرَةِ، فالعَزِيز أدَقُّ تَرْجَمَةٍ لِمَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ المَنْصِبِ في حِينِهِ، وَالمِصْرِيُّونَ القُدَامَى كَانُوا يفرقون بَيْنَ المُلُوكِ الذينَ يحكمونهم فيها، فالمَلِكُ غيرُ المَصْرِيِّ الأصْلِ يُسَمُّونَهُ المَلِكَ، وَالمِصْرِيُّ الأصْلِ يُسَمُّونَهُ فِرْعَوْنَ، وَالذي كَانَ يحكم مِصْرَ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام هُوَ من الهِكْسُوسِ فَسَمَّاهُ المَلِكَ، وَالذي يحكُمُهَا زَمَنَ مُوسَى عليه السلام مِصْرِيُّ الأصْلِ فَسَمَّاهُ فِرْعَوْنَ»[1].

١- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي، ص ٧.

فقَدْ جاءت بِعْثَةُ مُوسَى عليه السلام بَعْدَ بِعْثَةِ يُوسُفَ عليه السلام بمئات السِّنين، وَقَدْ تغيّرتْ مِصْرُ وَتبدلتْ أحوالها، وَاخْتَلَفَ حُكَّامُهَا زَمَنَ مُوسَى عليه السلام، وَبالتالي اخْتَلَفَتْ طَبِيعَةُ المُوَاجَهَةِ وَطَبِيعَةُ التَّحَدّيات التي وَاجهتْ كُلاً مِنْهُمَا .

«وَلا يُعْرَفُ تَحْدِيدًا من هُوَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عليه السلام فالتَّحْدِيدُ التاريخيُّ لَيْسَ هَدَفًا من أهداف القِصَّةِ القُرْآنِيَّةِ وَلا يَزِيدُ في دلالتها شَيْئًا. ويكفي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ زَمَانِ يُوسُفَ عليه السلام الذي استقدم أباه وَإِخْوَتَهُ، وَأَبُوهُ يَعْقُوبُ هُوَ إِسْرَائِيلُ، وَهَؤُلاءِ كَانُوا ذُرِّيَّتَهُ، قَدْ تكاثروا في مِصْرَ وَأصبحوا شَعْبًا كَبِيرًا، فلمَّا كَانَ ذَلِكَ الفِرْعَوْنُ الطَّاغِيَةُ (عَلا في الأَرْضِ) وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَجَعَلَ أَهْلَ مِصْرَ شِيَعًا ،كُلُّ طائِفَةٍ في شَأْنٍ من شؤونهَا .وَوَقَعَ الاضْطِهَادُ وَالبَغْيُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لأَنَّ لهم عَقِيدَةً غيرَ عَقِيدَتِهِ هُوَ وَقَوْمُهُ، فَهُمْ يدينون بدينِ جدهم إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَأبيهم يَعْقُوب عليه السلام، وَمهما يَكُنْ قَدْ وَقعَ في عَقِيدَتِهِمْ من فَسَادٍ وَانحرافٍ فقَدْ بقي لها أصلُ الاعتقادِ وَبِإِلَهٍ وَاحِدٍ وَإِنكارُ إلوهيَّةِ فِرْعَوْنَ وَالوَثنِيَّةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ جَمِيعًا. وكذَلِكَ أحسَّ الطَّاغِيَةُ أَنَّ هناك خَطَرًا عَلَى عَرْشِهِ وَمُلْكِهِ مِنْ وُجُودِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ في مِصْرَ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يطردهم منها وَهم جماعةٌ كَبِيرَةٌ أَصْبَحَتْ تُعَدُّ بِمِئَاتِ الأُلُوفِ، فقَدْ يُصْبِحُونَ إِلْبًا عَلَيْهِ مَعَ جيرانه الذينَ كَانَتْ تَقُومُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جيرانِهم الحُرُوبُ، فابتكرَ عِنْدَئِذٍ طَرِيقَةً جَهَنَّمِيَّةً خبيثةً للقضاءِ عَلَى الخَطَرِ الذي يتَوَقَّعُهُ من هَذِهِ الطَّائِفَةِ التي لا تَعْبُدُهُ

وَلا تَعْتَقِدُ بِأُلوهِيَّتِه، تِلْكَ هِيَ تسخيرُهُمْ في الشَّأْنِ الخَطِرِ من الأَعْمَالِ وَاسْتِذْلالُهُمْ وَتعذِيبُهُمْ بشتى أنواع العَذَابِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّه تذبيحُ الذُّكُورِ من أطفالهم عِنْدَ وَلادتهم وَاستبقاءُ الإناث كي لا يَتَكاثَرَ عَدَدُ الرِّجَالِ فيهم، وَبذَلِكَ يُضْعِفُ قُوَّتَهُمْ بنَقْصِ عَدَدِ الذُّكُورِ وَزيادَةِ عَدَدِ الإِنَاثِ فَوْقَ ما يَصُبُّهُ عَلَيْهِم من عَذَابٍ وَنكال»[1].

في حِينِ لا تُشِيرُ سُورَةُ يُوسُف إلى عُلُوٍّ وَتَكَبُّرِ المَلِك في القِصَّةِ أو ادِّعَائِه الأُلُوهيَّةَ أو انْتِسَابِه بِشَكْلٍ ما إلى الآلهة أوْ تسخيره لِلنَّاسِ وَطُغْيَانِه، وَهِيَ أبرزُ أَسْمَاءِ فِرْعَوْنَ زَمَنَ مُوسَى عليه السلام، يَقُولُ ابنُ عَبَّاسَ رضي الله عنه في تفسير قَوْلِه تَعَالَى (عَلا في الأَرْضِ): استكبر وَتَجَبَّرَ، وَيَقُولُ قتادة (عَلا في الأَرْضِ): علا في نَفْسِه عَلَى عبادة رَبِّه بكفره وَادعى الربوبيَّةَ، وَيَقُولُ القُرْطُبيُّ في تفسيره: كَانَ من المفسدين في الأَرْضِ بالعَمَلِ بِالمَعَاصِي وَالتَجَبُّرِ»[2].

وفي حِينِ كَانَ عَهْدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالنُّبُوَّةِ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام غضًّا طَرِيًّا، وَفِطْرَتُهُمْ سَلِيمَةٌ لَمْ تفسدْ بَعْدُ، وَنُفُوسُهُمْ حُرَّةٌ في جَوِّ الرَّخَاءَ وَلَمْ تَتَشَرَّبِ الذُّلِّ وَالهوانِ، وَأَبُوهم يَعْقُوبُ عليه السلام حيٌّ بَيْنَ أظهرهم، نُلاحِظُ أَنَّهُم عِنْدَ بِعْثَةِ مُوسَى عليه السلام كَانَ الأَمْرُ قَدْ طال عَلَيْهِم وَتباعد عهدهم بالنُّبُوَّةِ وَتلَبَّسُوا بِالمَعَاصِي وَالآثام .يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسَ : «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لما

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٧٧.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٧/٤٣٠.

كثروا بمِصْرَ استطالوا عَلَى النَّاسِ وَعملوا بِالمَعَاصِي، فسلط عَلَيْهِم اللَّهُ القِبْطَ وَساموهم سُوءَ العَذَابِ إلى أَنْ نجاهم اللَّهُ عَلَى يَدِ سَيِّدِنَا مُوسَى عليه السلام»[1].

ولا نَجِدُ ذِكْرًا لقصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام في القُرْآنِ غير سُورَةِ يُوسُفَ إلا سُورَةَ غَافِر عَلَى لِسَانِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ يُذَكِّرُهُمْ بتكذيبهم يُوسُفَ عليه السلام من قَبْلِ تَكْذِيبِهِمْ لنَبِيِّ اللهِ مُوسَى عليه السلام فيَقُولُ مُوَبِّخًا آلَ فِرْعَوْنَ: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**﴾[2].وهَذَا المُؤْمِنُ الفدائيُّ هُوَ مَن يُنقِذُ مُوسَى عليه السلام من القَتْلِ المُحَقَّقِ حِينَ يأتيه من أقصى المَدِينَةِ مُحَذِّرًا نَاصِحًا، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[3].

وَسُورَةُ غَافِر أَوْ مُؤْمِن تَتَكَلَّمُ في غَالِبِهَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الكَرِيمِ الوفِيِّ الذي ساندَ مُوسَى عليه السلام وتصدى لفِرْعَوْنَ بالحجة وَالمنطق وَالبيانِ، وَمن الواضح أَنَّ هَذَا المُؤْمِنَ كَانَ مُتَأَثِّرًا ببقايا تعاليمِ رِسَالَةِ سَيِّدِنَا

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٧/ ٤٣٠.

٢- سُورَة غَافِر : الآيَة ٣٤.

٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٠ .

يُوسُفَ عليه السلام التي أَثَّرَتْ عَمِيقًا في المُجْتَمَعِ المَصْرِيِّ حَتَّى ذَكَرَها هَذَا لمُؤْمِنِ لفِرْعَوْنَ وَمَلأِهُ حِينَ كَذَّبُوا رِسَالَةَ مُوسَى عليه السلام.

وهَذِهِ إحدى سماتِ المُجْتَمَعِ المَصْرِيِّ زَمَنَ مُوسَى أنَّ بقايا من دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ كَانَتْ باقيَةً داخلَ القِبْطِ أَنْفُسِهِمْ من آثار دَعْوَةِ يُوسُفَ عليه السلام ذَكَرَنَا مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ كنَمُوذَجٍ، وَعِنْدَنا زَوْجَةُ فِرْعَوْنَ المُؤْمِنَةُ الطَّاهِرَةُ نَمُوذَجٌ آخَرُ وَهِيَ آسيَةُ التي يَقُولُ فيها الرَّسُولُ ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا آسيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَان»[1]، ويَقُولُ فيها رَبُّ العِزَّةِ سُبْحَانَهُ ممتدحًا إيَّاهُمَا:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وَلكيْ نَفْهَمَ المَهَمَّةَ التي أَعَدَّهَا مُوسَى عليه السلام «علينا العَوْدَةُ للفَتْرَةِ التي بُعِثَ فيها يُوسُفُ عليه السلام في مِصْر، لأنَّ دَعْوَتَهُ فيها لا زالتْ مُتَجَدِّدَةً بَعْدَ مئات السِّنِين، بما يُفِيدُنَا أَيْضًا في بِيئَةِ العمل التي أُرْسِلَ كُلاً مِنْهُمَا ليعملَ وَيُؤَدِّيَ عَمَلَهُ خلالها، فاحتاج إلَى إمكانياتٍ وَقدراتٍ وَأساليبَ مُخْتَلِفَةٍ عن الآخَرِ، فنَجِدُ أَنَّ مِصْرَ في الفَتْرَةِ التي أُرْسِلَ فيها يُوسُفُ عليه السلام لم يَكُنْ يحكمها الفَرَاعِنَةُ من الأُسَرِ المِصْرِيَّةِ إنَّمَا كَانَ يحكمها (الرُّعَاةُ)

١- «صحيح البخاري» ٣٤١١، « فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ١٠٩/٧

٢- سُورَة التحريم : الآيَة ١١ .

الذِينَ عاش الكَرِيم وَإِسْحَقُ وَيَعْقُوبُ -عَلَيْهِمُ السَّلامُ - قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَعَرِفُوا شَيْئًا عن دِينِ اللهِ منهم. نأخذ هَذَا من ذِكْرِ القُرْآنِ للمَلِكِ بلقب المَلِكِ في حِينِ يُسَمَّى المَلِكُ في قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام فِرْعَوْنَ لقَبَهُ المِصْرِيَّ المَعْرُوفَ، وَمن هنا يَتَحَدَّدُ زَمَنُ يُوسُفَ عليه السلام في مِصْرَ ما بَيْنَ عهد الأُسْرَةِ الثالثة عشرة وَالأُسْرَةِ السابعة عشرة، وَهِيَ أَسَرُ الرُّعَاةِ الذِينَ سمّاهم المِصْرِيُّونَ (الهِكْسُوسَ) كَرَاهِيَّةً لهُمْ، إذ يُقَالُ إِنَّ معنى الكَلِمَةِ في اللغة المِصْرِيَّةِ القديمةِ (الخنازير، وَرُعَاةِ الخنازير) وَهِيَ فَتْرَةٌ تستغرق نَحْوَ قرن وَنصف قرن «[1].

ومن هنا نستنتجُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام أُرْسِلَ إلى مِصْرَ في مُجْتَمَعٍ مُتَأَثِّرٍ بالتَّوْحِيدِ في حِينِ كَانَ المُجْتَمَعُ المِصْرِيُّ زَمَنَ مُوسَى عليه السلام عَامِرًا بالتَّوْحِيدِ بِبَقَايَا دَعْوَةِ يُوسُفَ عليه السلام بَيْنَ الأقباط أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانُوا يُخْفُونَ عَقِيدَتَهُمْ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِنْ كَانَ تَدَيُّنُهُمْ قَدْ دَخَلَهُ بعْضُ الانْحِرَافَاتِ، وَنلمسُ تَأَثُّرَ مِصْرَ اليُوسُفِيَّةِ بالتَّوْحِيدِ من سِيَاقِ قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام كما يُشِيرُ إلى ذَلِكَ سَيِّد قُطُب - رَحِمَهُ اللهُ - في الظلال بِقَوْلِهِ : «تُشِيرُ سُورَةُ يُوسُفَ إلى آثارٍ باهتةٍ لِلعَقِيدَةِ الإِسْلامِيَّةِ التي عَرَفَ الرُّعَاةُ شيئا منها في أَوَّلِ القِصَّةِ،كما تُشِيرُ إلى انتشارِ هَذِهِ العَقِيدَةِ وَمضمونها بَعْدَ دَعْوَةِ يُوسُفَ عليه السلام بها، الإِشَارَةُ الأُولَى وَردتْ في حِكَايَةِ قَوْلِ النِّسْوَةِ حِينَ طلع عَلَيْهِم

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ١٩٦٠.

يُوسُفُ عليه السلام حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ عن حَالِهِنَّ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]. كما وَردت في قَوْلِ العَزِيز لامْرَأَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[2].

أَمَّا الإِشَارَةُ الثَّانِيَةُ الواضحةُ فقَدْ جاءت عَلَى لِسَانِ امْرَأَة العَزِيز التي يتَجَلَّى أَنَّهَا آمَنَتْ بِعَقِيدَةِ يُوسُفَ عليه السلام وَأَسْلَمَتْ في النِّهَايَةِ فيما حَكَاهُ عَنْهَا السِّيَاقُ القُرْآنِيّ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٥٣) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]. وإذا اتضح أَنَّ دِيَانَةَ التَّوْحِيدِ عَلَى هَذَا المستوى عُرِفَتْ قَبْلَ تَوَلِّي يُوسُفَ عليه السلام مَقَالِيدِ الحُكْمِ فلا بُدَّ أَنْ تكُونَ قَدْ انْتَشَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَاستقرتْ عَلَى نطاقٍ وَاسعٍ في أثناءِ تَوَلِّيهِ الحُكْمَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ في عهد أُسَرِ الرُّعَاةِ، فلما اسْتَرَدَّ الفَرَاعِنَةُ زِمَامَ الأُمُورِ في الأُسْرَةِ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢١ .

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٩ .

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَات ٥١- ٥٣ .

الثامِنَةَ عَشْرَةَ أَخَذُوا يُقَاوِمُونَ دِيَانَةَ التَّوْحِيدِ مُمَثَّلَةً فِي ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ التي تكاثَرَتْ فِي مِصْرَ لإِعَادَةِ الوَثَنِيَّةِ التي تَقُومُ عَلَيْهَا الفِرْعَوْنِيَّةُ، وَهَذَا يكشِفُ لنا سَبَبًا أصيلا من أَسْبَابِ اضْطِهَادِ الفَرَاعِنَةِ لبَنِي إِسْرَائِيلَ إلى جَانِبِ السَّبَبِ السِّيَاسِيِّ وَهُوَ أَنَّهُمْ جَاءُوا وَاسْتَوْطَنُوا وَاسْتَقَرُّوا فِي عهد مُلُوكِ الرُّعَاةِ الوَافِدِين، فَلَمَّا طَرَدَ المِصْرِيُّونَ مُلُوكَ الرُّعَاةِ طارَدُوا حُلَفَاءَهُمْ من بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ اخْتِلافُ العَقِيدَتَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هُوَ التَّفْسِيرُ الأَقْوَى لذَلِكَ الاضْطِهَادِ الفَظِيعِ»[1].

وعلينا الوقوفُ قَليلاً مَعَ كَلِمَةِ امْرَأَة العَزِيز التي ينسبها بعضُ المُفَسِّرينَ خَطَأً لِيُوسُفَ عليه السلام والسِّيَاقُ لا يحتملُ ذَلِكَ كما يُوَضِّحُ وَيَشْرَحُ الدكتور يُوسُفُ القرضاويّ: «فهَذِهِ الجُمَلُ مُتَّصِلَةٌ بما قَبْلَهَا من كَلامِ امْرَأَة العَزِيز اتِّصَالاً وَثِيقًا وَلا مَعْنَى وَلا مُوجِبَ لقطع هَذَا الاتِّصَالِ وَنسبةِ هَذَا الكَلامِ إلى يُوسُفَ عليه السلام فِي حِينِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بحضرة المَلِكِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَإِنَّمَا اسْتَدْعَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ كما حكى القُرْآنُ ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾[2]. فالواضح أَنَّ المَرْأَةَ فِي السِّيَاقِ بَرَّأَتْ يُوسُفَ مما أُلصِقَ بِهِ ظُلْمًا وَزُورًا كما اعْتَرَفَتْ عَلَى نَفْسِهَا لِيَعْرَفَ زَوْجُهَا أَنَّهَا لَمْ تخنه بالغَيْبِ فِي الأَمْرِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَقَعِ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ١٩٦٠.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥٤.

المَحْظُورُ الأَكْبَرُ، إنَّمَا كَانَتْ منها المُرَاوَدَةُ، وَكَانَ من يُوسُفَ عليه السلام الإباء، وَهِيَ لا تُبَرِّئُ نَفْسَهَا وَقَدْ سَعَتْ لِلمَعْصِيَةِ،وَالنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ اللّهُ. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١).

ومن فَهْمِنَا لِمَشَاعِرِ الخَوْفِ التي كَانَ يحملها الفَرَاعِنَةُ من بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالمُؤْمِنِينَ من القِبْطِ بَيْنَهُمْ، نَسْتَطِيعُ فَهْمَ أجواءِ الخَوْفِ التي تسيطرُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام في سُورَةِ القَصَصِ من بِدَايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا مُرُورًا بأَدَقِّ وَأَصْغَرِ تَفَاصِيلِهَا .

فقَدْ وُلِدَ مُوسَى عليه السلام في أجواءِ الارْهَابِ وَالبَطْشِ وَالخَوْفِ التي كَانَتْ تسيطر عَلَى وِلادته لحظةَ ميلادِهِ كَمَا يُعَبِّرُ عَنْهَا السِّيَاقُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

فَكَلِمَةُ الخَوْفِ تَتَكَرَّرُ في الآيَةِ مَرَّتَيْنِ، وَمُوسَى عليه السلام لا يَزَالُ رَضِيعًا في رِعَايَةِ أُمِّهِ الخائفةِ القَلِقَةِ عَلَى حياتِهِ!! « لقَدْ وُلِدَ مُوسَى عليه السلام وَالموتُ يَتَلَفَّتُ عَلَيْهِ، وَالشَّفْرَةُ مُشْرَعَةٌ عَلَى عُنُقِهِ تَهُمُّ أَنْ تَحُزَّ رَأْسَهُ وَها هِيَ أُمُّهُ حائرةٌ بِهِ خائفةٌ عَلَيْهِ قلقةٌ مَلْهُوفَةٌ تَرْتَجِفُ أَنْ تَتَنَاوَلَ عُنُقَهُ السِّكِّينُ، وَها

١- سُورَة يُوسُف الآيَات ٥١- ٥٣ .

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٧.

هِيَ تَرْمِي بطفلها الصَّغِيرِ في قلب المَخَاوِفِ عَاجِزَةً عَنْ حِمَايَتِهِ، عَاجِزَةً عن إِخْفَائِهِ، عَاجِزَةً عن حَجْزِ صَوْتِهِ الفِطْرِيِّ أَنْ يَنُمَّ عَلَيْهِ، فَيُلْقِي اللَّهُ في روعها وَيُلْهِمُهَا أَنْ تلقيَهُ في اليَمِّ بَدَلا مِنْ أَنْ تَضُمَّهُ إلى صَدْرِهَا في رِعَايَةِ اللهِ الذي لا أَمْنَ إلا في جِوَارِهِ، مَنْ جَعَلَ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدًا وَسَلامًا وَيَجْعَلُ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ لِمُوسَى عليه السلام ملجأً وَمَنَاصًا. وَيَتَهَادَى التَّابُوتُ بِمُوسَى ليصلَ إلى قَصْرِ فِرْعَوْنَ، وَهَلْ كَانَتْ أُمّ مُوسَى ترجفُ وَتَخَافُ عَلَيْهِ الا من فِرْعَوْنَ وَملئه، فها هِيَ قُدْرَةُ اللهِ تلقي في يَدِ فِرْعَوْنَ بالطفل الذي يَكُونُ هَلاكُهُ عَلي يَدِهِ مُجَرَّدًا مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ عَاجِزًا عن أَنْ يَدْفَعَ عن نَفْسِهِ أَوْ حَتَّى يَسْتَنْجِد!! كَمْ قَتَلَ فِرْعَوْنُ من أجل ذَبْحِ مُوسَى عليه السلام وَالقَدَرُ يَقُولُ له: لا نُرَبِّيهِ الا في حجْرِكَ لِيَكُونَ عَلَى يَدَيْهِ هَلاكُكَ . مُوسَى الذي تُخَبِّئُ لآلِ فِرْعَوْنَ الأقدارُ من وَرائه ما حَذَّرُوا منهُ طَوِيلاً، وَأُمّ مُوسَى التي أُلقت بفلذة كَبِدِهَا وَفَعَلَتْ مَا لَمْ تَفْعَلْهُ أُمٌّ من قَبْلُ وَطلبتْ لَهُ السَّلامَةَ في هَذِهِ المَخَافَةِ .يُحرِّمُ اللَّهُ المَرَاضِعَ لِيَعُودَ إلى أُمِّهِ المَلْهُوفَةِ مُعَافًى في بَدَنِهِ، مَرْمُوقًا في مكانته، يحميه فِرْعَوْنُ!! وَترعاهُ امْرَأَتُهُ وَتَضْطَرِبُ المَخَاوِفُ من حَوْلِهِ وَهُوَ آمِنٌ قَرِيرٌ، وَتُرْضِعُ أُمّ مُوسَى وَلَدَهَا، وَتَأْخُذُ أَجْرًا عَلَى ذَلِكَ، فَيَا لتَدْبِيرِ اللهِ العَجِيبِ!!»[1].

ويُسَيْطِرُ الخَوْفُ عَلَى جَوِّ القَصْرِ من الدَّاخِلِ، خَوْفٌ من فِرْعَوْنَ

١- «كيف نتعامل مع القُرْآن العظيم « يُوسُف القرضاوي ، ص ٢٣٩.

وَبَطْشِهِ يَظْهَرُ فِي دُعَاءِ امْرَأَتِهِ، تَتَوَجَّهُ إلى اللهِ فِي هَذِهِ المَخَافَةِ تُنَاجِيهِ فِي تَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ وَرَجَاءٍ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]. وهَذَا الخَوْفُ يَدْفَعُ المُؤْمِنِينَ من آلِ فِرْعَوْنَ لإخفاءِ إيمانِهم: ﴿قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2].

بَلْ إنَّ أجْوَاءَ المَدِينَةِ مملوءةٌ بالخَوْفِ وَالرعب وَالإجْرَاءَاتِ الأمنيَّة؛ فعِنْدَما يَدْخُلُهَا عليه السلام يحتاجُ للتَّحَايُلِ عَلَى إجْرَاءَاتٍ أَمْنِيَّةٍ وَحِرَاسَةٍ ﴿وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾[3]، ويجدُ فيها للمَرَّةِ الأُولَى رَجُلانِ يَقْتَتِلانِ، وَيَتَدَخَّلُ فَيَتَوَرَّطُ فِي عَمَلِيَّةِ قَتْلٍ جَعَلَتْهُ يَتَوَجَّسُ خَوْفًا، وَيَتَلَفَّتُ قلقًا، وَيَخْشَى مِنَ انْكِشَافِ أمره، وحِينَ يَدْخُلُهَا المَرَّةَ الثَّانِيَةَ، يجدُ شِجَارًا آخَرَ ويَسْمَعُ نداءَ اسْتِغَاثَةٍ، وَاتِّهَامًا له بِالقَتْلِ وَيَأْتِيهِ النَّذِيرُ يَدْعُوهُ للهَرَبِ، وَيَكْشِفُ لَهُ تَآمُرَ القَوْمِ لِقَتْلِهِ فَهُوَ فِي المَدِينَةِ ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[4].

وَنُلاحِظُ أنَّ إفلاتَهُ من إجْرَاءَاتِ الأَمْنِ وَالحراسةِ فِي المَدِينَةِ،كَانَ صَعْبًا لحْظَةَ هُرُوبِهِ بما لا يَقِلُّ صُعُوبَةً عن دخولها مما يُصَوِّرُ لنا مدى

١- سُورَة التحريم : الآيَة ١١.

٢- سُورَة غَافِر : الآيَة ٢٨.

٣- سُورَة القَصَص : الآيَة ١٥.

٤- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢١.

الخَوْفِ وَالارْهَابِ الْمُسَيْطِرِ عَلَى المَدِينَةِ زَمَنَ مُوسَى عليه السلام فَحِينَ يُغَادِرُهَا يَكُونُ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وَهَذَا عَكْسُ حَالِ المَدِينَةِ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام كما سَنَعْرِضُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ عِنْدَ حَدِيثِنا عن طابع سُورَةِ يُوسُفَ وَأجواء مِصْرَ في عَصْرِه، وَنَلْمَسُ طابِعَ الخَوْفِ في ردة فعل الملأ عَلَى حَادِثَةِ القَتْلِ رُغْمَ أَنَّهَا حَادِثَةٌ فرديَّةٌ إلا أَنَّ مَخَاوِفَهُمْ تَجْعَلُهُمْ يُبَالِغُون في رَدَّةِ الفِعْلِ، وَالإِجْـرَاءَاتِ تجَاهَهَا وَتجَاهَ مُنَفِّذِهَا الْمُفْتَرَضِ مُوسَى عليه السلام: «لقَدْ عَرَفَ الملأ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَهم رِجَالُ حَاشِيَتِهِ وَحكومَتُهُ وَالْمُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ إِنَّهَا فِعْلَةُ مُوسَى عليه السلام، وَما مِنْ شَكٍّ في أَنَّهُمْ أَحَسُّوا فيها بِشَبَحِ الخَطَرِ، فهِيَ فِعْلَةُ طَابِعُهَا الثَّوْرَةُ وَالتَّمَرُّدُ وَالانْتِصَارُ لبَنِي إِسْرَائِيلَ، فهِيَ ظاهرةٌ خطيرةٌ تَسْتَحِقُّ التَّآمُرَ، وَلَوْ كَانَتْ جريمةَ قَتْلٍ عَادِيَّةً ما استحقتْ أَنْ يشتغلَ بها فِرْعَوْنُ وَالملأُ الكبراءُ»[2].

وَيَشْهَدُ اللّٰهُ أَنَّني أشعرُ بتَسَارُعِ دَقَّاتِ قلبي ، وَمَشَاعِرُ الخَوْفِ تَتَمَلَّكُنِي وَأنا أعيشُ أَجْوَاءَ سُورَةِ القَصَصِ، وَأتأَمَّلُ تَعْبِيرَاتِها، حَتَّى إِنَّ أَوَّلَ كَلِمَةٍ يَقُولُها الشَّيْخُ في مِدْيَنَ لمُوسَى عليه السلام بَعْدَ اسْتِمَاعِهِ لِقِصَّتِهِ (لا تَخَفْ) وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ شِدَّةِ حَاجَتِهِ عليه السلام للشُّعُورِ بِالأَمْنِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢١.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٨٥.

القَصَص قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]. فقَدْ «كَانَ مُوسَى عليه السلام في حَاجَةٍ إلى الأَمْنِ،كما كَانَ في حَاجَةٍ إلى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَكِنَّ حَاجَةَ نَفْسِهِ إلى الأَمْنِ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ حَاجَةِ جِسْمِه إلى الزاد، وَمن ثُمَّ أبرَزَ السِّيَاقُ في مَشْهَدِ اللقاءِ قَوْلَ الشَّيْخِ الوَقُورِ: (لا تَخَفْ) فجَعَلَهَا أَوَّلَ لَفْظٍ يُعَقِّبُ بِهِ عَلَى قَصَصِه ليلقيَ في قلبِهِ الطُّمَأنِينَة وَيُشْعِرَهُ بِالأَمَانِ،ثُمَّ بَيَّنَ وَعَلَّلَ ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، فلا سُلْطَانَ لهم عَلَى مِدْيَنَ، وَلا يَصِلُونَ لَمَنْ فيها بأذى وَلا ضرار» [3].

وَلَكِنَّ وُصولَ مُوسَى عليه السلام إلى مِدْيَنَ وَمكوثَهُ عَشْرَ سِنِينَ آمِنًا مُطْمَئِنًّا لا يعني نِهَايَةَ الخَوْفِ وَالشُّعُورِ بالمُطَارَدَةِ وَالاستهدافِ مِنَ الأَعْدَاءِ؛ فبَعْدَ قَضَائِهِ أَتَمَّ الأَجَلَيْنِ وَسَيْرِهِ بِأَهْلِهِ رَاجِعًا إلى مِصْرَ، كَانَتْ مَشَاعِرُ الخَوْفِ تملأُ أَجْوَاءَ الرِّحْلَةِ، الخَوْفُ من وَحْشَةِ السَّفَرِ وَمَتَاهَاتِ الطَّرِيقِ وَمُفَاجَآتِه، وَالخَوْفُ مما يَنْتَظِرُهُ في مِصْرَ من فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه، وَذِكْرَى قَتْلِهِ القِبْطِيَّ لا زَالَتْ حَيَّةً في ذَاكِرَتِه.

وَيَتَجَلَّى التَّعْبِيرُ عن مَشَاعِرِ الخَوْفِ وَالوَحْشَةِ في السِّيَاقِ باسْتِخْدَامِ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٥.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٥.

٣- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ٩٤.

لَفْظَةِ (آنَسَ) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1].

وَالإِنْسَانُ عَادَةً يَشْعُرُ بالأُنْسِ لشَيْءٍ أَوْ شَخْصٍ عِنْدَمَا يَكُونُ خائفًا أَوْ مُسْتَوْحِشًا، وَالأُنْسُ عَكسُ الوَحْشَةِ، وَالحيواناتُ المستأنسةُ هِيَ تِلْكَ التي لا تَخَافُ الإِنْسَانَ وَتَأْنَسُ إِلَيْهِ، فتَقْتَرِبُ منه دُونَ خَوْفٍ، وَيُقَرِّبُهَا وَيَسْتَخْدِمُها فَلا تَخَافُهُ، فانْظُرْ دِقَّةَ التَّعْبِيرِ، وَجمالَ السِّيَاقِ القُرْآنِيّ!!

يَقُولُ السَّامِرَّائِيّ عن أجواءِ الخَوْفِ التي تُصَاحِبُ مَشْهَدَ المُنَاجَاةِ فِي القَصَصِ: «إِنَّ قِصَّةَ مُوسَى عليه السلام فِي القَصَصِ يظللها جَوٌّ مطبوعٌ بطِبَاعِ الخَوْفِ الذي يسيطر عَلَى مُوسَى عليه السلام وَيُلازِمُ القِصّةَ إلى آخِرِهَا، بَلْ حَتَّى لما كَلَّفَهُ رَبُّهُ بالذهابِ إلى فِرْعَوْنَ راجَعَهُ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[2]، وطلب أخاه ظَهِيرًا له يعينُهُ وَيُصَدِّقُهُ لأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُوهُ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ مُوسَى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[3]. ومن الأَمْثِلَةِ عَلَى طَابع الخَوْفِ فِي

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٩.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٣٣.

٣- سُورَة القَصَص: الآيَة ٣٤.

قَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في النَّمْل عن مَشْهَدِ المناجاة (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) وَيَقُولُ تَعَالَى في القَصَص: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1]، فبُنِيَ الكَلامُ في النَّمْل عَلَى القَطْعِ بِقَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2]، وَبُنِيَ في القَصَصِ عَلَى الترَجِّي بِقَوْلِه: (لَعَلِّي آتِيكُمْ)؛ ذَلِكَ أَنَّ مَقَامَ الخَوْفِ في القَصَصِ لَمْ يَدَعْهُ يَقْطَعُ بِالأَمْرِ، فإِنَّ الخَائِفَ لا يَسْتَطِيعُ القَطْعَ بما سَيَفْعَلُ بخلاف الآمِنِ،وَلَمْ يُذْكَرِ الخَوْفُ في النَّمْل بناءً عَلَى الوُثُوقِ وَالقَطْعِ بالأَمْرِ» [3].

وإذا عدنا لوَقْتِ نُزُولِ القَصَصِ وَمُنَاسَبَةِ نُزُولِ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام لما تعيشُهُ الدَّعْوَةُ في مَكَّة وَهُوَ ما تحدثنا عنه في بِدَايَةِ الدِّرَاسَةِ نُلاحِظُ تَنَاسُبَ جَوِّ الخَوْفِ في السُّورَةِ مَعَ حَالَةِ الخَوْفِ التي كَانَ يَعِيشُهَا المسلمون وَقْتَها وَهُمْ يَهْرُبُونَ مُهَاجِرِينَ فرادى وَجماعات إلى المَدِينَةِ، وَحَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ هَارِبًا وَصَاحِبُهُ الصِّدِّيقُ يَخَافُ عَلَيْهِ الرَّصَدَ وَالعُيُونَ حَتَّى يَقُولُ له النَّبِيُّ ﷺ مُطْمَئِنًّا لقلبِهِ وَطَارِدًا عنه المَخَاوِفَ. (يا أبا بكرٍ ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا)، وَقَالَ في سُورَةِ النَّمْل (يا مُوسَى لا تَخَفْ) وَفي سُورَةِ القَصَصِ

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٩.

٢- سُورَة النَّمْل : الآيَة ٧.

٣- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ٩٤.

(يا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ) وَذَلِكَ أَنَّ شُيُوعَ الخَوْفِ في القَصَصِ يَدُلُّ عَلَى إيغالِ مُوسَى عليه السلام في الهرب فَدَعَاهُ إلى الإقبال وَعدم الخَوْفِ فوضع كُلَّ تَعْبِيرٍ في مكانه الذي هُوَ أليق بِهِ. وقَالَ في سُورَةِ النَّمْل (إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) وَفي القَصَصِ (إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ) لأَنَّ المَقَامَ في القَصَصِ مَقَامُ الخَوْفِ وَالخائف لا يحتاج إلى الأَمْن فَأَمَّنَهُ بِقَوْلِهِ (إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ) وَفي النَّمْل مَقَامُ تَكْلِيفٍ وَتشريف»[1].

ويأتيه العلاجُ الرَّبَّانِيُّ لِحَالَةِ الانفعالِ التي انتابَتْهُ عِنْدَ الْمُفَاجَأَةِ (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) وَالرَّهْبُ هُوَ الخَوْفُ وَهَذا مُنَاسِبٌ لجَوِّ الخَوْفِ في القَصَصِ بَينَمَا لَمْ يُذْكَرْ في النَّمْل[2].وتعَزِيزًا لجَوِّ الخَوْفِ في القَصَصِ نُلاحِظُ اخْتِلافَ تَعْبِيرَاتها عن تِلْكَ التَّعْبيراتِ القويَّةِ الواثقةِ في النَّمْل؛ فقَدْ كَرَّرَ فِعْلَ الإتيانِ في النَّمْل فَقَالَ : (سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ)، وَلَمْ يُكَرِّرْهُ في القَصَصِ فَقَالَ: (لعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ) فَأَكَّدَ الإِتْيَانَ في النَّمْل اثنا عشرة مَرَّةٍ، وَفي القَصَصِ ستّ مَرَّاتٍ، فَنَاسَبَ تكرارَ (آتِيكُم) من كُلِّ وَجه،وَجاء في القَصَصِ (جَذْوَة) وَهِيَ الجَمْرَةُ أَو القَبْسَةُ من النَّارِ أَوْ عُودٍ فيه نارٌ بلا لهبٍ، وَفي النَّمْل (شِهَابُ قَبَسٍ) وَالشِّهَابُ شُعْلَةٌ منَ النَّارِ سَاطِعَةٌ، وَالقَبَسُ شُعْلَةُ نَارٍ تُقْتَبَسُ من

١- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ١٠٩.

٢- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ١١٢.

مُعْظَمِ النَّارِ كالمِقْبَاسِ : قَبَسٌ يُقْبَسُ منه نَارًا، أيْ أَخَذ منه نَارًا، وَقبَسُ العِلْمِ اسْتَفَادَةٌ. وَالشِّهَابُ أَحْسَنُ من الجَمْرَةِ لأَنَّهُ يدفئ لما فيه من لهَبٍ سَاطِعٍ وَيَنْتَفِعُ فِي الاسْتِنَارَةِ أَيْضًا،كما ذَكَرْنَا أَنَّهُ سيأتي بالشِّهَابِ مَقْبُوسًا من النَّارِ، لا مُخْتَلِسًا أَوْ مَحْمُولا منها لأَنَّ الشِّهَابَ يَكُونُ مَقْبُوسًا وَغيرَ مَقْبُوسٍ، وَهَـذَا أدلُّ عَلَى القُوَّةِ وَالثَّبَاتِ وَثباتِ الجنانِ لأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَيَذْهَبُ إلى النَّارِ وَيقتبسُ منها شُعْلَةَ نَارٍ سَاطِعَة. وفِي القَصَصِ ذِكْرٌ أَنَّهُ رُبَّمَا أتى بِجَمْرَةٍ من النَّارِ، وَلَمْ يقلْ إِنَّهُ سَيَقْبِسُهَا، منها وَكُلٌّ تَعْبِيرٍ فِي مَوْطِنه اللائقِ به، ففي موطنِ الخَوْفِ ذَكَرَ الجَمْرَةَ وَفِي غير الخَوْفِ ذَكَرَ الشِّهَابَ القَبَسَ»[1].

وَأَجْـواءُ الخَـوْفِ تَتَنَاسَبُ تَمَامًا مَعَ ما كَانَ يواجِهُهُ مُوسَى عليه السلام فِي مِصْرَ من طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَعُلُوِّهِ عَلَى النَّاسِ، وَتسْخِيرِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْتِيلِ أَبْنَائِهِمْ وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ . وَلَكِنَّ مِصْرَ فِي زَمَنِ يُوسُفَ عليه السلام كَانَتْ بَعِيدَةً كُلَّ البُعْدِ عن هَذِهِ الأَجْوَاءِ المُرْعِبَةِ، وَرُغْمَ أَنَّ المَلِكَ وَحَاشِيَتَهُ كَانُوا يَعِيشُونَ حَيَاةَ تَرَفٍ وَفَسَادٍ وَمَلَذَّاتٍ وَانحلالٍ إلا أَنَّهُم كَانُوا لا يَلْجَئُونَ لِلْبَطْشِ وَالتَّجَبُّرِ، وَلِهَذَا لَمْ تُذْكَرْ كَلِمَةُ (العُلُوّ) فِي سُورَةِ يُوسُفَ، وَقَدْ كَانَ الحُكْمُ عِنْدَهُمْ فِي عَائلةٍ حَاكِمَةٍ مُتْرَفَةٍ يَهُمُّهَا صُورَتُهَا أَمَامَ الشَّعْب وَالمظاهرُ الفارغةُ، وَتلجأُ للسِّيَاسَةِ وَالمَكْرِ وَالتَّدْبِيرِ بَدَلَ البَطْشِ وَالطُّغْيَانِ،

١- «لمسات بيانية» فاضل السامرائي ، ص ٩٦.

وَهَذَا ما تَمَّ تَنْفِيذُهُ بحقِّ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَمَا ذاعتْ قِصَّةُ امْرَأة العَزِيز مَعَهُ وَصارتْ حَديثَ النَّاسِ، فلجأ لِسَجْنِهِ فَتْرَةً مُعَيَّنَةً وَالسِّيَاقُ يُعَبِّرُ عنها بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[1].

فالمَقْصُودُ سَجْنُهُ وَإبعادُهُ عن المَسْرَحِ إلى حِينِ تهدأ الأُمُورُ وَتُدْفَنُ القِصّةُ، فمِصْرُ في عَصْرِ يُوسُفَ عليه السلام بلدُ تَرَفٍ وَقُصُورٌ فَارِغَةٌ منَ الاهْتِمَامَاتِ، غرقتْ نساؤُهَا في القيلِ وَالقالِ وَفضائحِ القَصْرِ وَأسرارِ الملأ ، وَهم عَلَى دَرَجَةٍ عاليَةٍ من التَّقَدُّمِ المَادِيّ، فالنِّسَاءُ يأكُلْنَ مَتَّكَآتٍ وَيَسْتَخْدِمْنَ السِّكِينَ لشدَّةِ التَّرفِ وَالبَذَخِ ، وَلا يَتَحَرَّجْنَ من المُجَاهَرَةِ بدَعْوَةِ يُوسُفَ عليه السلام للفَاحِشَةِ، وَالرِّجَالُ في عَصْرِهِ ضَعُفَتِ الغيرَةُ عِنْدَهُمْ عَلَى عَادَةِ المُجْتَمَعَاتِ المُتْرَفَةِ، فما عادوا يُبَالون بفَسَادِ نِسَائِهِمْ وَمُمَارَسَةِ الفَوَاحِشِ في بيوتهم مَا دَامَ ذَلِكَ لا يمسُّ بمظْهَرِهِم الاجْتِمَاعِيِّ وَسُمْعَتِهِمْ وَسْطَ طَبَقَتِهِمُ المُتْرَفَةِ، وَنَحْنُ هنا نَصِفُ المَلِكَ وَبطانَتَهُ وَالملأ من حَوْلِهِ وَحَاشِيَةَ القَصْرِ، أمَّا عَامَّةُ الشَّعْبِ فَيَبْدُو في الصُّورَةِ قِلَّةٌ حِيلَتِهِمْ وَعَجْزُهُمْ وَضياعُ صَوْتِهِمْ، فطوال القِصَّةِ لا نَسْمَعُ لهم ذِكْرًا مما يَدُلُّ عَلَى مدى هامشيتهم، وَيَبْدُو أنَّ السُّجُونَ قَدْ امتلأتْ بِالمَظْلُومِينَ بِسَبَبِ المكائدِ وَدهاليزِ الحكمِ وَالسِّيَاسَةِ أمثالِ يُوسُفَ عليه السلام وَصَاحِبَي السِّجْنِ مَعَهُ .

وَالحَدِيثُ عن المُجْتَمَعِ المُتْرَفِ الاهْتِمَامَاتِ الغارقِ في الشَّهَوَاتِ لا

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٥.

يَتِمُّ دُونَ الحَدِيثِ عن المَرْأةِ في سُورَةِ يُوسُفَ وَمُقَارَنَتِهَا بِالمَرْأةِ في سُورَةِ القَصَصِ، وَنَبْدَأُ بِاسْتِعْرَاضِ حَالِ المَرْأةِ في القَصْرِ حَيْثُ نشأ يوسفُ عليه السلام بَعْدَ بيعه رَقِيقًا في قَصْرٍ وَشِرائِهِ عَلَى يَدِ العَزِيزِ الذي أمر امْرَأتَهُ بِتَكْرِيمِ مَثْوَاهُ، فقَدْ كَانَ القَصْرُ مَعْمُورًا بالفَسَادِ وَالتَّرَفِ وَالإِغْرَاءِ تُرَاوِدُهُ فيه امْرَأة العَزِيزِ المَرَّةَ تِلْوَ الأُخْرَى لا تجدُ مَنْ يَرُدُّهَا أَوْ يَمْنَعُهَا عن ذَلِكَ: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ**﴾[1]. وَالمُرَاوَدَةُ «هِيَ الإِرَادَةُ وَالطَّلَبُ بِرِفْقٍ، وَرَاوَدَتْهُ : طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُوَاقِعَهَا»[2].وَهِيَ كَذَلِكَ «المُطَالَبَةُ، مِنْ رَادَ يُرَاوِدُ إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ لِطَلَبِ شَيْءٍ،وَيجوز أَنْ تَكُونَ من الرُّوَيْدِ وَهُوَ الرِّفْقُ وَالتَّجَمُّلُ، وَتَعْدِيَتُهَا بِـ (عَنْ) لِتَضْمِينِهَا لمَعْنَى المُخَادَعَةِ»[3].

فَالمَرْأةُ تُحَاوِلُ إِغْرَاءَهُ المَرَّةَ تِلْوَ الأُخْرَى وَبوسَائِلَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ وَلَكِنْ برفقٍ دُونَ غضبٍ وَلا مُجَاهَرَةٍ للدَّعْوَةِ إلى المُوَافَقَةِ، «وَكَلِمَةُ (فِي بَيْتِهَا) تُشْعِرُنَا بِضَعْفِ مَوْقِفِ يُوسُفَ عليه السلام أَمَامَهَا، فَهُوَ عَبْدٌ اشْتَرَاهُ زَوْجُهَا بمالِهِ، لا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، وَهُوَ عبريٌّ غريبٌ عن مِصْرَ وَأَهْلِهَا ، جاءَ من البَدْوِ، فَهُوَ في نظرهم أَقَلُّ تمَدُّنًا وَأَقَلُّ شَأْنًا من غيره، وَتستمرُّ المُرَاوَدَةُ بِشَكْلٍ مُتَوَاصِلٍ في جَنَبَاتِ القَصْرِ حَيْثُ اختلاطُ العَبِيدِ بِالحَرِيمِ وَسَيِّدَاتِ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٣.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٤٣.

٣- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٤٤.

القَصْرِ دُونَ حُدُودٍ أَوْ حَوَاجِزَ، فكَانَتِ امْرَأة العَزِيزِ تَتَكَشَّفُ لَهُ وَتَتَزَيَّنُ لَهُ وَتَدْعُوهُ عَلَى أَوْجُهِ اللُّطْفِ» [1] .

ثُمَّ ارتقتْ بها الأُمُورُ عِنْدَمَا لَمْ تجدِ التَّجَاوُبَ مِنْ يُوسُفَ عليه السلام، فَصَارَتْ تُرَاوِدُهُ عن نَفْسِهِ، فَكَأَنَّمَا صَارتْ مُرَاوَدَتُهَا أَشْبَهَ بِالأَوَامِرِ ، وَاسْتَخْدَمَتْ مَا لها مِنْ سُلْطَةٍ عَلَيْهِ لأَنَّهَا سَيِّدَةُ القَصْرِ، وَيُوسُفُ عليه السلام مُجَرَّدُ فتى من فتيانِ القَصْرِ، ثُمَّ تَطَوَّرَتْ حَالُهَا وَكشفتْ عن سُعَارِهَا وَلهفَتِهَا بِهِ فلجأتْ إلى خُطْوَةٍ أَكْثَرَ قدمًا (وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ) وَكَلِمَةُ (غَلَّقَت) تُشيرُ إلى المُبَالَغَةِ في الإغلاقِ وَإِحْكَامِهِ، وَفِي ذَلِكَ إِرْهَابٌ لِيُوسُفَ عليه السلام أَنْ لا مَهْرَبَ أَمَامَكَ وَلا مُنْجِدَ وَلا مُغِيثَ لَكَ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى طَمْأَنَتُهُ لَهُ لَوْ كَانَ الدَّافِعُ لتَمَنُّعِهِ خَوْفَهُ مِنْ رَدَّةِ فعلِ زَوْجِهَا أو انْتِشَارِ نَبَأِ فِعْلَتِهِ مَعَهَا، وَحاشاهُ ذَلِكَ وَهُوَ الطَّاهِرُ المخلصُ الكَرِيمُ .

وَتُفِيدُ كَلِمَةُ (الأَبْـوَابِ) مَعْنَى إضافيًّا؛ فهيَ لَمْ تغلقْ بَابَ حُجْرَتها مثلا عَلَيْهَا بَلْ غَلَّقَتْ بَابًا وَوَرَاءَهُ أَبْوَابٌ وَأَبْوَابٌ مُغْلَقَةٌ، وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَمْ يُرْهِبْ يُوسُفَ عليه السلام وَلَمْ يضعْهُ أَمَامَ إِغْرَاءٍ وَأنوثة سَيِّدَتِهِ، فلجأتْ لما تخجلُ النِّسَاء من فِعْلِهِ وَيَجِدْنَ فيه جَرَحًا لكِبْرِيَاءِ المَرْأَةِ، فطلبتْ منه بِلِسَانِها وبِأَفْصَحِ وَأَوْضَحِ الأَلْفَاظِ مُوَاقَعَتَهَا (وقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) وَما كَانَتْ لِتَلْجَأَ الى هَذَا الطَّلَبِ الصَّرِيحِ لَوْلا جُنُونُهَا بِهِ وَيَأْسُهَا من وُقُوعِهِ في شباكِهَا

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٧٧.

وَحَبَائِلِهَا التي استخدمتْ فيها كُلَّ مَكْرِ النِّسَاء وَكَيْدِهِنَّ وَما خَطَرَ بِبَالِهَا أَنْ يرفضَ طَلَبَهَا بَعْدَ أَنْ بَاحَتْ بِهِ وَتخلتْ عن آخرِ ذَرَّةٍ منْ كِبْرِيَائِهَا كَأُنْثَى تَرْغَبُ أَنْ تَكُونَ دَوْمًا مَحَلَّ طَلَبِ الرِّجَالِ لا أَنْ تَطْلُبَ الرِّجَالَ بِنَفْسِهَا دُونَ مُوَارَبَةٍ، وَلَكِنَّ المفاجأةَ كَانَتْ أكبرَ مِنْ أَنْ تَعْقِلَهَا أَوْ تَصْدِمَهَا، فقَدْ رفضَ يُوسُفُ عليه السلام طَلَبَهَا مُسْتَعِينًا باللهِ (قَالَ مَعَاذَ اللهِ) يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ مُتَحَصِّنًا بِهِ طالبًا حِمَايَتَهُ مِنْ سُلْطَانِها كَسَيِّدَةٍ للقَصْرِ وَإِغْرَائِهَا كَأُنْثَى في أَقْصَى وَأَشَدِّ حَالاتِ الهياج، وَلَكِنَّهَا لا ترتدع فَيُذَكِّرُهَا بِسَيِّدِهِ الذي هُوَ زَوْجُهَا وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ وَكَلِمَتِهِ لها يَوْمَ اشْتَرَى يُوسُفَ عليه السلام لِيُرَبَّى في بيته (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)، وَهِيَ الكَلِمَةُ التي قالها زَوْجُهَا في أَوَّلِ مَشْهَدٍ لِيُوسُفَ عليه السلام في بيته لامْرَأَتِهِ. وما كَانَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتُ رُغْمَ شِدَّةِ وَقْعِهَا لِتُوقِفَ سُعَارَهَا المَجْنُونِ، فلجأ للوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ بِعَاقِبَةِ الظُّلْمِ وَالخيانة وَتَعَدِّي الحُدُودِ (إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ). وقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا أَنَّ المُجْتَمَعَ المِصْرِيَّ وَقْتَها كَانَ فيه نوعٌ مِنَ التَّأَثُّرِ بِدِيَانَةِ التَّوْحِيدِ فيمكن لهَذِهِ الكَلِمَاتِ أَنْ تُؤَثِّرَ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ وَقَدْ ثارتْ في جَسَدِهَا دِمَاءُ الشَّهْوَةِ وَلَذَّاتُ الجَسَدِ العَارِمَةِ، لقَدْ فَقَدَتْ كُلَّ أَسْلِحَتِهَا كأنثى وَلَمْ يبقَ بِيَدِهَا إلا سلاحَها كَسَيِّدَةٍ لقَصْرٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْرِضَ الأُمُورَ فَرْضًا بسُلْطَانِها (وَلقَدْ هَمَّتْ بِهِ). فإِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ وَالإِغْرَاءُ وَالأَمْرُ بالكَلِمَاتِ لَمْ تنفعْ فلتفعلْ هِيَ بِنَفْسِهَا ما تُرِيدُ، فكانَ مَوْقِفًا مَهُولا عَلَى يُوسُفَ عليه السلام لولا تَثْبِيتُ اللهِ وَاصطفاؤُهُ له وَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ وَهُوَ الكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابنُ الكَرِيمِ ابنُ الكَرِيمِ (وَهَمَّ بِهَا لَوْلا

أن رَّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أيْ «لولا رؤيتُهُ بُرْهَانِ رَبِّهِ لهمَّ بها، لَكِن امتنعَ هَمُّهُ بِهَا بِوُجُودِ وَرُؤيَةِ بُرْهَانِ رَبِّهِ، فَلَمْ يحصلْ مِنْهُمُ البَتَّةَ» [1].

وبهَذَا صَرَفَ اللّٰهُ عنهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ جَزَاءَ صَبْرِهِ عَلَى إغْرَائِهَا وَفِتْنَتِهَا (كذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ) وَأيُّ ابْتِلاءٍ أعظمُ من هَذَا الابْتِلاءِ يَسْتَحِقُّ يُوسُفُ عليه السلام أنْ ينالَ عَلَيْهِ وِسَامًا من اللّٰهِ سُبْحَانَهُ بهَذِهِ الدرجة (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ) وَلَكِنَّ امتناعَهُ لا يَكْفِي، فهِيَ لَمْ تعد تُرَاوِدُهُ أوْ تأمر بلسانها إِنَّهَا تبادر للفَاحِشَةِ، فَأيْنَ المَفَرُّ وَقَدْ غلّقَتِ الأبْوَابَ أمَامَهُ، وَهِيَ تُلاحِقُهُ تُرِيدُ أنْ تَسْبِقَهُ إلى البابِ لمنْعِهِ مِنَ الهَرَبِ أوْ طلبِ النَّجَاةِ أوْ إثارَةِ أيِّ انْتِبَاهٍ (وَاسْتَبَقَا البَابَ)، وَلَمْ يتوقفْ يُوسُفُ عليه السلام من الهرب، فَتُحَاوِلُ إمْسَاكَهُ مِنْ قَمِيصِهِ فَيَتَمَزَّقُ لشِدَّةِ هربه أمَامَهَا وَشِدَّةِ حِرْصِهَا عَلَى إمْسَاكِهِ (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ)، فَتَدَخَّلَتْ عنايَةُ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تثبيته لعبدِهِ المُخْلِصِ يُوسُفَ عليه السلام، فإذا بِزَوْجِهَا شَاهِدٌ عَلَى أغْرَبِ مَشْهَدٍ يمكنُ أنْ يتخيل رَجُلٌ رؤيَةَ زَوْجَهُ عَلَيْهِ (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ) وَإذا بِنَا نُفَاجَأُ بِقُوَّةِ شَخْصِيَّةِ هَذِهِ المَرْأةِ وَجرأتها وَرَبَاطَةِ جَأْشِهَا في مِثْلِ هَكَذَا مَوْقِفٍ مُهِينٍ مُحْرِجٍ، فَلْنُحَاوِلْ فَهْمَ هَذِهِ المَرْأةِ وَخَلْفِيَّاتِ هَذَا المَشْهَدِ من حَيَاةِ يُوسُفَ عليه السلام في قَصْرِ العَزِيزِ، لقَدْ كَانَ يُوسُفُ عليه السلام غلامًا عِنْدَمَا التقَطَتْهُ السَّيَّارَةُ وَبَاعَتْهُ، أيْ أنَّهُ كَانَ

١- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٤٦.

في حوالي الرابعة عَشْرَة تَنْقُصُ وَلا تَزِيدُ، فهَذِهِ السِّنُّ التي يُطْلَقُ فِيهَا لَفْظُ الغلامِ، وَبَعْدَها يُسَمَّى فتىً فشَابًّا فَرَجُلاً، وَهِيَ السِّنُّ التي يَجُوزُ فيها أَنْ يَقُولَ يَعْقُوبُ عليه السلام وَأَخَافُ أَنْ يأْكُلَهُ الذِّئْبُ» .

وفي هَذَا الوَقْتِ كَانَتْ هِيَ الزَّوْجَةُ، وَيَبْدُو أَنَّهُمَا لَمْ يُرْزَقَا أَوْلادًا كَمَا يَبْدُو من قَوْلِهِ (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، فهَذَا الخَاطِرُ خَاطِرُ التَّبَنِّي لا يَرِدُ عَلَى النَّفْسِ عَادَةً إلا حِينَ لا يَكُونُ هُنَاكَ وَلَدٌ، وَيَكُونُ هُنَاكَ يَأْسٌ أَوْ شبه يَأْسٍ من الوَلَدِ . فلا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ مَضَتْ عَلَى زواجِهَا فَتْرَةٌ، يَعْلَمَانِ فيها أَنْ لا وَلَدَ لهما، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فالْمُتَوَقَّعُ عِنْدَ رئيسِ وُزراء مِصْرَ – أَوْ وَزِيرِ مَالِيَّتِهَا- أَنْ لا تَقِلَّ سِنُّهُ عن أربعينَ سَنَةٍ وَأَنْ تَكُونَ سِنُّ زَوْجِهِ حِينَئِذٍ حَوَالي الثَّلاثينَ. وَنَتَوَقَّعُ كذَلِكَ أَنْ تَكُونَ منها أَرْبَعِينَ سَنَةً، عِنْدَمَا يَكُونُ يُوسُفُ عليه السلام في الخَامِسَةِ وَالعِشْرِينَ أَوْ حَوَالَيْهَا، وَهِيَ السِّنُّ التي نُرَجِّحُ أَنَّ الحَادِثَةَ وَقَعَتْ فيها، نُرَجِّحُهُ لأَنَّ تصرفَ المَرْأَةِ في الحَادِثَةِ وَما بَعْدَها يُشِيرُ إلى أَنَّهَا امْرَأَةٌ مكتَمِلَةٌ جَرِيئَةٌ مَالِكَةٌ لكَيْدِهَا مُتَهَالِكَةٌ كذَلِكَ عَلَى فَتَاهَا. وَنُرَجِّحُهُ من كَلِمَةِ النِّسْوَةِ فيما بَعْدُ (امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ) وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةُ (فَتَى) تُقَالُ بمَعْنَى عَبْدٍ وَلَكِنَّهَا لا تُقَالُ إلا وَلها حَقِيقَةٌ مِنْ مَدْلُولِها مِنْ سِنِّ يُوسُفَ عليه السلام وَهَذَا ما تُرَجِّحُهُ شَوَاهِدُ الحَالِ.

وَنَصِلُ إلى نَتِيجَةٍ مَفَادُهَا «أَنَّ التَّجْرُبَةَ أو المِحْنَة التي مَرَّ بها يُوسُفُ عليه السلام لَمْ تَكُنْ فَقَطْ في مُوَاجَهَةِ المُرَاوَدَةِ في هَذَا المَشْهَدِ الذي يُصَوِّرُهُ السِّيَاقُ، إِنَّمَا كَانَتْ في حَيَاةِ يُوسُفَ عليه السلام فَتْرَةَ مُرَاهَقَتِهِ كُلَّهَا في جَوِّ هَذَا

القَصْرِ مَعَ هَذِهِ المَرْأَةِ بَيْنَ سِنِّ الثلاثين وَسِنِّ الأربعين مَعَ جَوِّ القَصْرِ وَجَوِّ البِيئَةِ التي يُصَوِّرُهَا قَوْلُ الزَّوْجِ أَمَامَ الحَالَةِ التي وَجَدَ فيها امْرَأَتَهُ مَعَ يُوسُفَ عليه السلام (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وَكَفَى»[1].

وهَذَا المَشْهَدُ وَهَذِهِ الواقعةُ مجردُ نَمُوذَجٍ لحَالِ المَرْأَةِ في عَصْرِ يُوسُفَ عليه السلام في مِصْرَ ، وَتُصَوِّرُ درجَةَ الانحلالِ وَضَعْفَ مَعَانِي الرُّجُولَةِ في مُجْتَمَعِ مِصْرَ حِينَها، وَلَكِنَّ الأُمُورَ لا تقفُ عِنْدَ هَذَا الحدِّ بَلْ نَجِدُ ردَّةَ فِعْلِهِ (أَيْ زَوْجِهَا) وَنَظْرَةَ المُجْتَمَعِ إِلَيْهَا وَرؤيتِهِ لِفِعْلَتِهَا صُورَةً أَكْثَرَ بَشَاعَةٍ من الجريمة نَفْسِهَا.

ومما يُؤَكِّدُ أَنَّ المُرَاوَدَةَ استمرتْ فَتْرَةً طَوِيلَةً من حَيَاةِ يُوسُفَ عليه السلام في قَصْرِ العَزِيزِ وَلَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ حَادِثَةٍ عابِرَةٍ، كما يخيل لمن يقرأ القُرْآنَ قراءَةً سَطْحِيَّةً دُونَ تَمَعُّنٍ وَتَفَكُّرٍ وَرَبْطٍ بَيْنَ آيَاتِهِ، مما وَرد عَلَى لِسَانِ النِّسْوَةِ ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[2]. «فَجَاءَتْ كَلِمَةُ (تُرَاوِدُ) بالمضارع؛ أَيْ أَنَّهَا عَمَلِيَّةٌ طَوِيلَةٌ وَمُتَوَاصِلَةٌ لا أَنَّهَا رَاوَدَتْ بالماضي وَانتهى الأَمْرُ بَلِ المُرَاوَدَةُ سبقتِ المَشْهَدَ وَتَوَاصَلَتْ بَعْدَه كما شاعَ بَيْنَ النِّسْوَةِ وَتناقلتْهُ في

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/١٩٧٩.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٠.

مجالسهنَّ الفارغةِ المُتْرَفَةِ فجِيءَ بِالمُضَارِعِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ المُرَاوَدَةَ صَارَتْ مِحْنَةً لها وَدَيْدَنًا دُونَ الماضي، فَلَمْ يَقُلْنَ رَاوَدَتْ «[1].

وَحَدِيثُهُنَّ عن يُوسُفَ عليه السلام بتَعْبِيرِ فتاها يُشِيرُ إلى نَوْعٍ مِنَ الازْدِرَاءِ لِيُوسُفَ عليه السلام لأَنَّهُ عبدٌ من فِتْيَانِ القَصْرِ من جِهَةٍ وَمن جِهَةٍ أُخْرَى نَسَبَتْهُ إِلَيْهَا وَكأَنَّه مَتَاعٌ أَوْ شَيْءٌ يَخُصُّهَا، وَتَعْبِيرِ (فَتَاهَا) يَفُوحُ بِرَائِحَةِ احتقارِ الطَّبَقَاتِ الفَقِيرَةِ المُعْدَمَةِ وَنَظْرَةِ الاسْتِعْلاءِ عَلَى العَامَّةِ لمدى الطَّبَقَاتِ المُتْرَفَةِ في المُجْتَمَعِ المَصْرِيِّ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام.

وعلينا أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ النِّسْوَةَ هنا يَعِبْنَ عَلَى المَرْأَةِ أَنَّهَا تُرَاوِدُ فَتَاهَا، فَالمُشْكِلَةُ وَالعَيْبُ في نظرِهِنَّ أَنَّهَا تُرَاوِدُهُ بِمَعْنى أَنَّهَا هِيَ التي تَطْلُبُهُ، وَترغبُ فيه وَتَسْتَمِيلُهُ إِلَيْهَا بدل أَنْ تَكُونَ هِيَ محلَّ رَغْبَةِ الرَّجُلِ، وَالمُشْكِلَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ الرَّجُلَ المَقْصُودَ هنا مُجَرَّدُ فَتًى من فِتْيَانِ القَصْرِ، عَبْدٍ اشْتَرَاهُ سَيِّدُهَا (زَوْجُهَا) وَهُوَ مُلْكُهَا (فَتَاهَا) ، وَرُغْمَ ذَلِكَ تُرَاوِدُهُ عن نَفْسِهِ، إِنَّهَا الفَضِيحَةُ بِنَظَرِهِنَّ وَالعَيْبُ بِعَيْنِهِ!!

أَمَّا الزَّوْجُ الفاقدُ لِمَعَانِي الرُّجُولَةِ وَالغيرة عَلَى الأَرْضِ فَيُجْرِي تَحْقِيقًا شَكْلِيًّا مَعَ زَوْجَتِهِ يَتَبَيَّنُ منه بالدَّلِيلِ القَاطِعِ جرمَهَا المَشْهُودَ،فماذا يفعلُ؟؟؟!! هَلْ تثورُ نَخْوَتُهُ وَمَشَاعِرُ الغيرة عِنْدَهُ فيعاقبها؟! طَبْعًا، لا، حَتَّى التَّوْبِيخَ لا نَسْمَعُهُ منه بَلْ كَلِمَاتٍ ضَعِيفَةً لَيِّنَةً رِخْوَةً فيها الإِطْرَاءُ لأُنُوثَتِهَا

١- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٤٩.

أَكْثَرُ مِمَّا فيها من اللَّوْمُ والعِتَابُ بَلْ إِنَّهُ لا يُبَادِرُ بِإِبْعَادِ يُوسُفَ عليه السلام عنها، بَلْ تستمرُّ مُرَاوَدَتُهَا له بَعْدَ الحَادِثَةِ كما أَوْضَحْنَا سَابِقًا من كَلامِ النِّسْوَةِ.

وَتَشْعُرُ امْـرَأَةُ العَزِيز، وَهِـيَ بِنْتُ بِيئَتِهَا المُتْرَفَةِ الغارقة في المظاهر وَالشَّكْلِيَّات، تَشْعُرُ بِالإِهَانَةِ لَمَا تَتَنَاقَلُهُ النِّسْوَةُ في مجالسِهِنَّ وَغَمْزِهِنَّ بِعَيْبِ سُلُوكِهَا الذي يُعْتَبَرُ انْحِطَاطًا عَنْ مُسْتَوَاهَا الاجْتِمَاعِيِّ. فقَدْ كَانَ الأصلُ في امْرَأَةٍ مثلِهَا ألا تنظرَ لفَتًى من فتيانِ القَصْرِ، فَمَا بَالُكَ أَنْ تُرَاوِدُهُ وَأَنْ يَنْبُعَ حُبُّهُ في قلبها شغافة !! فَأَرَادَتِ اسْتِعَادَةَ كَرَامَتِهَا وَسُمْعَتِهَا وَسْطَ طَبَقَتِهَا، أَرَادَتْ أَنْ تبرهنَ للنِّسْوَةِ أَنَّ (فَتَاهَا) كما يَصِفْنَهُ في أحاديثِهِنَّ لَيْسَ مُجَرَّدَ (عَبْدٍ) أَوْ حَتَّى مُجَرَّدَ رَجُلٍ، فَمَاذَا فَعَلَتْ ؟؟ (فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ) وَمن الواضحِ أَنَّ التَّعْبِيرَ يُشِيرُ إلى مكانَةِ هَؤُلاءِ النِّسْوَةِ في المُجْتَمَعِ، بحَيْثُ أَنَّهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ الدَّعَوَاتِ للحُضُورِ إلى المَأْدُبَةِ التي أَعَدَّتْهَا (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً) فلَيْسَت مُجَرَّدَ مَأْدُبَةٍ عَادِيَّةٍ بَلْ مأدبَةٌ تَجْلِسُ فيها النِّسْوَةُ يَأْكُلْنَ مُتَّكآتٍ في أماكنَ مُعَدَّةٍ مجَهَّزَةٍ لمثل هَذَا (وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا) فَالأَكْلُ في وَسَطِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ المُتْرَفَةِ مليء بالمظاهر وَالشَّكْلِيَّات سَوَاءٌ وَسَائِلُ الدَّعْوَةِ لكُلٍّ منهُنَّ أَوْ إِعْدَادُ المُتَّكَأ لكُلِّ وَاحِدَةٍ فيهِنَّ أو اسْتِخْدَامُ السِّكِّينِ في الأَكْلِ، إِنَّهُ المُجْتَمَعُ المُتْرَفُ الفَارِغُ منَ الاهْتِمَامَاتِ الحَقِيقِيَّةِ، المليءُ بِالشَّكْلِيَّاتِ وَالمظاهر الخادعة «تتحدث فيه النِّسْوَةُ عن امْـرَأَة العَزِيز، فيَكُونُ جوابها عليهِنَّ مَأْدُبَةً يَخْرُجُ عَلَيْهِنَّ يُوسُفُ فيها، فَيُفْتَتَنَّ بِهِ وَيُصَرِّحْنَ، فَتُصِرُّ المَرْأَةُ ﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ**

نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1]، «فهَذِهِ البِيئَةُ التي تَسْمَحُ فِيهَا بذَلِكَ بِيئَةٌ خَاصَّةٌ، هِيَ بِيئَةُ الطَّبَقَةِ المُتْرَفَةِ دَائِمًا ،وَيُوسُفُ عليه السلام كَانَ فيها مَوْلى وَتَرَبَّى فيها في سِنِّ الفِتْنَةِ، فهَذِهِ هِيَ المِحْنَة الطَّوِيلَةُ التي مرّ بها يُوسُفُ عليه السلام وَصمد لها وَنجا منها وَمن تَأْثِيرَاتِهَا وَمغرياتها وَميوعتها وَوَسَائِلِهَا الخبيثة. وَلِسِنِّهِ وَسِنِّ المَرْأَةِ التي يَعِيشُ معها تحتَ سقْفٍ وَاحدٍ كُلَّ هَذِهِ المُدَّةِ قِيمَةٌ في تَقْدِيرِ مَدَى الفِتْنَةِ وَخُطُورَةِ المِحْنَةِ وَالصُّمُودِ لها هَذَا الأمدَ الطويلَ . أمَّا هَذِهِ المَرَّةُ فلَوْ كَانَتْ وَحْدَهَا وَكَانَتْ مُفَاجَأَةً وَبلا تَمْهِيدٍ من إِغْرَاءٍ طويل لما كَانَ عسيرا أنْ يصمدَ لها يُوسُفُ عليه السلام وَنَجِدُ منه أنَّهُ هُوَ المَطْلُوبُ فيها لا طالبٌ،وَتَهَالُكُ المَرْأَةُ قَدْ يَصُدُّ مِنْ نَفْسِ الرَّجُلِ، وَهِيَ كَانَتْ مُتَهَالِكَةً» [2].

وَتُوضِحُ سُورَةُ يُوسُفَ مَدَى انْحِطَاطِ وَضعَ المَرْأَةِ في المُجْتَمَعِ المَصْرِيِّ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام من خلال مَشْهَدِ المُرَاوَدَةِ الجماعيَّةِ التي يَتَعَرَّضُ لها عَلَى يَدِ النِّسْوَةِ اللاتي قُلْنَ في امْرَأة العَزِيز ما قُلْنَ بِسَبَبِ افتضاح مُرَاوَدَتِهَا لِيُوسُفَ عليه السلام وَنَفْهَمُ أنَّ المُرَاوَدَةَ صارت جماعيَّةً من النِّسْوَةِ بَعْدَ أنْ كَانَتْ فرديَّةً من امْرَأة العَزِيز من خلال السِّيَاقِ القُرْآنِيّ حَيْثُ نَسْمَعُ يُوسُفَ عليه السلام يُنَاجِي اللهَ بَعْدَ مَشْهَدِ المَأْدُبَةِ قَائِلا ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٢.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/ ١٩٨٠.

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1].فالقَضِيَّةُ لَمْ تَعُدْ كَيْدَ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ (كَيْدَهُنَّ) وَلا دَعْوَةَ امْرَأَة العَزِيز وَحْدَهَا بَلْ (يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) نِسْوَةُ المَدِينَةِ الغَارِقَةِ في الفَسَادِ وَالانْحِطَاطِ الخُلُقِيِّ، وَلَمْ يَعُدْ يُوسُفُ عليه السلام يخْشَى الميلَ وَالوُقُوعَ في حَبائِلِ امْرَأَة العَزِيز وَحْدَهَا، وَلَكِنَّهُ يخشى أنْ يصب (إِلَيْهِنَّ) فقَدْ تَحَوَّلَتِ النِّسْوَةُ إلى جماعةٍ من الذِّئَابِ البَشَرِيَّةِ الجائعةِ الباحثةِ عن الشَّهْوَةِ وَالمتعةِ دُونَ اعتبارٍ لأيِّ أدبٍ أوْ خُلُقٍ أوْ حَتَّى مَظَاهِرَ شَكْلِيَّةٍ !! لقَدْ كشفتْ نِسْوَةُ المُجْتَمَعِ المُتْرَفِ عن الحقيقةِ المقرِفَةِ التي يُخْفِينَهَا خلفَ وُجُوهِهِنَّ الزائفةِ ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾[2].

لقَدْ ألقتْ امْرَأَةُ العَزِيزِ مُفَاجَأَةً بَيْنَ النِّسْوَةِ وَهِيَ تَعْرِفُ ما تكُونُ عَلَيْهِ حَالهُنَّ بَعْدَها فهِيَ بِنْتُ هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَتَعْرِفُ مداخلَهَا وَأسرارَهَا، رَدَّتْ عَلَى الكَيْدِ بالكَيْدِ وَعَلَى المَكْرِ بالمَكْرِ «لقَدْ أقامت لهُنَّ مأدبة في قَصْرِهَا وَندرك من هَذَا أَنَّهُنَّ كُنَّ من نساء الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ فهُنَّ اللواتي يُدْعَيْنَ إلى المآدب في القُصُورِ وَهُنَّ اللواتي يُؤْخَذْنَ بهَذِهِ الوَسَائِلِ الناعمة المظهر، وَيَبْدُو أَنَّهُنَّ كُنَّ يأكُلْنَ مَتَّكَآتٍ عَلَى الوَسَائِدِ وَالحشايا عَلَى عادة الشَّرْقِ في ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُؤْخَذُ مِنَ اسْتِخْدَامِ السَّكَاكِينِ في الأكْلِ أَنَّ الحَضَارَةَ الماديَّةَ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٣.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣١.

في مِصْرَ كَانَتْ قَدْ بلغتْ شأوًا بَعِيدًا وَأَنَّ التَّرَفَ في القُصُورِ كَانَ عظيمًا فإنَّ استعمالِ السَّكَاكِينِ قَبْلَ هَذِهِ الآلافِ من السِّنِين له قِيمَتُهُ في تَصْوِيرِ التَّرَفِ وَالحَضَارَةِ الماديَّةِ !! .

وَبَيْنَمَا هُنَّ مُنْشَغِلاتٌ بِتَقْطِيعِ اللَّحْمِ وَتَقْشِيرِ الفَاكِهَةِ فَاجَأَتْهُنَّ بيُوسُفَ عليه السلام ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾[1]. وهَـذِهِ التَّعْبِيرَاتُ دَليلٌ عَلَى تَشَرُّبِ شَيْءٍ من دِيَانَاتِ التَّوْحِيدِ في ذَلِكَ الزَّمَانِ وَرأت المَرْأَةُ أَنَّهَا انْتَصَرَتْ عَلَى نساء طبقتها، وَأَنَّهُنَّ لقين من طَلْعَةِ يُوسُفَ عليه السلام الدهشةَ وَالإعجابَ وَالذهولَ، فقَالَتْ قَوْلَةَ المَرْأَةِ المُنْتَصِرَةِ التي لا تَسْتَحِي أَمَامَ النِّسَاء من بناتِ جنسِها وَطبقَتِهَا التي تفتخرُ عليهِنَّ بِأَنَّ هَذَا في مُتَنَاوَلِ يَدِهَا وَإِنْ كَانَ قَدْ استعصى اقتيادَهُ مرَّةً، فهِيَ تَمْلِكُ هَذَا الاقتيادَ مرَّةً أُخْرَى ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**﴾[2]. ولقَدْ بهر في مِثْلِكُنَّ فَرَاوَدَتْهُ عن نَفْسِهِ فطلب الاعْتِصَامِ تُرِيدُ أَنْ تقول : إِنَّهُ عانى في الاعْتِصَامِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ دَعْوَتِهَا وَفِتْنَتِهَا !!

ثُمَّ تظهرُ سَيْطَرَتُهَا عَلَيْهِ أَمَامَهُنَّ في تبجيحِ المَرْأَةِ في ذَلِكَ الوَسَطِ حَيْثُ لا ترى بأسا من الجَهْرِ بنزواتها الأنثويَّةِ مُجَاهَرَةً مَكْشُوفَةً في مَعْرِضِ النِّسَاء ﴿**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٥.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣٢.

وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1]. فَهُوَ الإصرارُ وَالتبجحُ وَالتَّهْديدُ وَالإغْرَاءُ الجَديدُ في ظل التَّهْديد، وَيَسْمَعُ يُوسُفُ عليه السلام هَذَا القَوْلُ في مُجْتَمَعِ النِّسَاءِ المَبْهُورَاتِ المُبْدِيَاتِ لَفَاتِنِهِنَّ في مِثْلِ هَذِهِ المُنَاسَبَاتِ، وَنَفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُنَّ كُنَّ فاتِنَاتٍ مَفْتُونَاتٍ في مُواجَهَتِهِ وَفي التَّعْلِيقِ عَلَى هَذَا القَوْلِ مِنْ رَبَّةِ القَصْرِ، «فهُنَّ جَميعًا كُنَّ مُشْتَرِكَاتٍ في الدَّعْوَةِ سَوَاءٌ بِالقَوْلِ أَمِ الحَرَكَاتِ وَاللفَتَاتِ، وَإذا بيُوسُفَ الصِّدِّيقِ الكَرِيمِ عليه السلام يستنجد رَبَّهُ أَنْ يصرف عنه مُحَاوَلَتَهِنَّ لإيقاعِهِ في حِبَالِهِنَّ خِيفَةَ أَنْ يضعفَ في لحظةٍ أَمَامَ الإغْرَاءِ الدَّائِمِ، فيقعُ فيمَا يَخْشَاهُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَدْعُو اللهَ أَنْ ينقذه منه وَهِيَ دَعْوَةُ إِنْسَانٍ عارفٍ ببشريَّتِهِ، لا يَغْتَرُّ بِعِصْمَتِهِ، يُرِيدُ مَزِيدًا من العنايَةِ الإلهيَّةِ تعاونُهُ عَلَى ما يعترضُهُ من فِتْنَةِ وَكَيْدٍ وَإغْرَاءٍ»[2].

وَيَطْلُبُ يُوسُفُ عليه السلام هُنَا العَوْنَ وَالنَّجَاةَ من كَيْدِهِنَّ بَيْنَمَا مُوسَى عليه السلام كَانَ يَطْلُبُ النَّجَاةَ من البَطْشِ وَالقَتْلِ وَالطُّغْيَانِ، وَهَذَا ما يفسر لنا طابع الخَوْفِ في سُورَةِ يُوسُفَ وَجوها المليء بالكَيْدِ وَالمَكْرِ عَلَى خلاف طابع الخَوْفِ في سُورَةِ القَصَصِ حَيْثُ المُوَاجَهَةُ مَعَ طُغْيَانٍ وَبَطْشٍ، فيمَا المُوَاجَهَةُ هُنَا مَعَ كَيْدٍ وَمَكْرٍ يَقُومُ بِهِ الأقاربُ وَالمُحِبُّونَ نَتِيجَةَ ضَعْفٍ بَشَرِيٍّ

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٣٢.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/١٩٨٥.

أَمَامَ الغَرَائِزِ وَالنَّزَعَاتِ النَّفْسِيَّةِ للاسْتِئْثَارِ وَالتَّمَلُّكِ . وَسَنَعُودُ لاسْتِعْرَاضِ طابع وَأجواء سُورَةِ يُوسُفَ – إِنْ شَاءَ اللّٰهُ كما اسْتَعْرَضْنَا أَجْوَاءَ وَطابعَ سُورَةِ القَصَصِ بَعْدَ أَنْ نَسْتَطْلِعَ حَالَ المَرْأَةِ في سُورَةِ القَصَصِ .

فعَلَى النَّقِيضِ مِنْ حَالِ المَرْأَةِ زَمَنَ يُوسُفَ عليه السلام من تَرَفٍ وَفسَادٍ وَانْحِرافٍ وَشَهْوَانِيَّةٍ نَجِدُ المَرْأَةَ زَمَنَ مُوسَى عليه السلام رمزًا للفضيلةِ وَالإيمانِ وَالعِفَّةِ وَالحَيَاءِ .

فأُمُّ مُوسَى عليه السلام المُؤْمِنَةُ المتَّصِلَةُ باللّٰهِ الموقنةُ بصدقِ وَعْدِهِ نَجِدُها تُلْقِيهِ في اليَمِّ تلبيةً لهاتفٍ مجهولٍ وَاثقةً بعودَتِهِ سالمًا إِلَيْهَا، وَأختُهُ الوَفِيَّةُ البارَّةُ بِأُمِّهَا تَقُصُّ أَثَرَهُ وَتَسْتَخْدِمُ حِيلَةَ المَرْأَةِ وَكَيْدَهَا في إعادَتِهِ إلى أُمِّهِ، وَلاحِظْ أَنَّ المَرْأَةَ في الحَالَيْنِ صَاحِبَةُ كَيْدٍ فهَذَا طَبْعٌ غريزيٌّ فيها لضعفها، وَلَكِنَّهَا يمكن أَنْ تَسْتَخْدِمَه في الخير أو الشَّرِّ ﴿**قَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**﴾[1].

فهِيَ تَتَّبِعُ أَثَرَهُ لِتَعْلَمَ خَبَرَهُ، وَلَكِنَّها تبقى عَلَى مَسَافَةٍ لئَلا تُلْفِتَ إِلَيْهَا الأَنْظَارَ، «وَالسِّيَاقُ يَسْتَخْدِمُ تَعْبِيرَ (عَنْ جُنُبٍ) أَيْ «بُعْدٍ أَوْ جَانِبٍ أَوْ نَاحِيَةٍ» وَقَالَ قتادة: «جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بناحيَةٍ كأَنَّهَا لا تُرِيدُهُ « وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أَنَّهَا

١- سُورَة القَصَص : الآيات ١١١-١١٢.

أُخْتُهُ لأَنَّهَا كَانَتْ تمشي عَلَى السَّاحِلِ حَتَّى رأتهم قَدْ أَخَذُوهُ»[1].

وصيغةُ سُؤَالِهَا تَنِمُّ عن ذكاء المَرْأَةِ وَكَيْدِها فهيَ توجه إِلَيْهِمْ بحياديَّةٍ وَكأن الأَمْرُ لا يعنيها، وَتَعْرِضُ عَلَيْهِم عَرْضًا مغريًا سخيًا أَنْ تدلهم عَلَى أَهْلِ بيت، وَلا تقول إِنَّهُ بيتها، أَوْ إِنَّ المرضع هِيَ أُمُّهَا، لئلا تَكُونَ محل اتِّهَامٍ أَوْ شك وَتغريهم بهَذَا البيت وَأَهْلِهِ فَهُمْ يَكْفُلُونَهَ وَفَوْقَ هَذِهِ يَنْصَحُونَ لَهُ، فهنا امْرَأة تَكِيدُ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ امْرَأةٍ وَامْرَأة، وَبَيْنَ كَيْدٍ وَكَيْد.

ثُمَّ تَعْرِضُ السُّورَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ المُؤْمِنَةَ الطَّاهِرَةَ التَّقِيَّةَ سَيِّدَةَ نساءِ العالمين آسيَةَ ،كاملةَ النِّسَاء، صِنْوَ مَرْيمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، كما وَصَفَها رَسُولُ اللهِ ﷺ ،الحريصةَ عَلَى نَجَاةِ هَذَا الطِّفْلِ الرَّضِيعِ البَرِيءِ، فَتَنْهَاهُمْ عَنْ قَتْلِهِ وَتُطْمِعُهُمْ بِخَيْرٍ لهمْ: ﴿**عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[2].وَتُرَبِّيهِ فِي القَصْرِ عَلَى أَعْيُنِهَا وَتحْتَ رِعَايَتِهَا، تَغْرِسُ فيه مَعَانِيَ الأيمانِ وَالتَّوْحِيدِ اليُوسُفِيِّ التي استقرتْ فِي نَفْسِهَا وَامْتَزَجَتْ بِدَمِهَا وَلحْمِهَا، وَتحْمِيهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ .

وَنَصِلُ مِدْيَنَ مَعَ مُوسَى عليه السلام فإذا بنا أَمَامَ نَمُوذَجَيْنِ رَائِعَيْنِ للفَضِيلَةِ وَالحَيَاءِ وَرَجَاحَةِ العَقْلِ يَتَمَثَّلُ فِي ابْنَتَي الشَّيْخِ الكبيرِ اللتَيْنِ تُمَثِّلانِ أَرْوَعَ نَمَاذِجِ الفِقْهِ وَالحَيَاءِ وَالعَقْلِ عِنْدَ المَرْأَةِ .

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٢٥٨/٧.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٩.

وأوَّلُ ما يَلْفِتُ انْتِبَاهَ مُوسَى عليه السلام إِلَيْهِمَا أَنَّهُمَا تَذُودَانِ غَنَمَهُمَا لئلا يَخْتَلِطَ بغنم الرُّعَاةِ فتضطرانِ لمُزَاحَمَةِ الرِّجَالِ وَمُدَافَعَتِهِمْ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1].

وَتَتَجَلَّى رَوْعَةُ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ في تَصْوِيرِ حَيَاءِ المَرْأَةِ حِينَ تَرْجِعُ إِحْدَاهُنَّ تَدْعُوهُ لأبيها فهِيَ (تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ) وَحِينَ تَتَكَلَّمُ (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ) وَحِينَ تعبِّر فَبِأَجْمَلِ وَأَوْجَزِ العِبَارَاتِ وَالكَلِمَاتِ ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَص قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وَهُنَا حَيَاءٌ في المَشْيِ، وَحَيَاءٌ في القَوْلِ، وَتُوَضِّحُ جِهَةَ الدَّعْوَةِ فهِيَ من أبيها، وَهدفَ الدَّعْوَةِ وَهُوَ جَزَاءُ السِّقَايَةِ لهُمَا، «فقَدْ جَاءَتْهُ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ مِشيَةَ الفَتَاةِ الطَّاهِرَةِ الفَاضِلَةِ العَفِيفَةِ النَّظِيفَةِ حِينَ تَلْقَى الرِّجَالَ (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ) في غيرِ ما تَبَذُّلٍ وَلا تَبَرُّجٍ وَلا إِغْوَاءٍ، جاءَتْهُ لتنهيَ إِلَيْهِ دَعْوَةَ أبيها في أَقْصَرِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ وَأَدَلِّهِ (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ) فَمَعَ الحَيَاءِ الإِبَانَةُ وَالدِّقَّةُ وَالوُضُوحُ، لا التَّلَجْلُجُ وَالتَّعَثُّرُ وَالرَّبْكَةُ»[3].

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٣.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٥.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٨٦.

وَالمَشْهَدُ التالي أكثرُ رَوْعَةً وَجَمَالا فَهُوَ لا يَعْكِسُ حَيَاءَهَا وَعِفَّتَهَا وَخُلُقَها الكَرِيمَ فَقَطْ، بَلْ فوق ذَلِكَ كُلِّه رَجَاحَةَ عَقْلِهَا وَقُوَّةَ مَنْطِقِهَا وَحُسْنَ إِدْرَاكِها لِمُوَاصَفَاتِ مَنْ يَحْمِلُ الأَمَانَةَ، فهِيَ تَتَوَجَّهُ لأَبِيهَا بِكُلِّ أَدَبٍ وَحَيَاءٍ، وَتَعْرِضُ رأيَهَا في مُوسَى عليه السلام بَعْدَ ما رأت من قُوَّتِهِ وَأَمَانَتِه: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾[1]. وَبِكُلِّ أدب وَاستقامة تُزَكِّي مُوسَى عليه السلام وَتُرَشِّحُهُ لِتَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ وَتَذْكُرُ قُوَّتَهُ وَأَمَانَتَهُ لوالدها الشَّيْخِ الكبيرِ ،»فَكَانَ قَوْلُهَا من جِنْسِ التَّصْوِيتِ، إِذْ أَنَّهَا زَكَّتْ مُوسَى عليه السلام وَرَشَّحَتْهُ وَعَرَفَتْ صِفَةَ المُسْلِمِ النَّاجِحِ في عَمَلِهِ فوَصَفَتْهُ بِالقَوِيِّ الأَمِينِ»[2].

«تُرِيدُ الرَّاحَةَ مِنْ مُعَانَاتِهَا وَأُخْتِهَا في رَعْيِ الغَنَمِ وَمن مُزَاحَمَةِ الرِّجَالِ عَلَى الماءِ وَمن الاحْتِكَاكِ الذي لا بُدَّ مِنْهُ للمَرْأَةِ التي تُزَاوِلُ أَعْمَالَ الرِّجَالِ، وَهِيَ تَتَأَذَّي وَأُخْتُهَا مِنْ هَذَا كُلِّه وَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً تَأْوِي إِلى بَيْتِ امْرَأَةٍ عَفِيفَةٍ مَسْتُورَةٍ لا تَحْتَكُّ بِالرِّجَالِ الغُرَبَاءِ في الرَّعْيِ وَالسقايَةِ، وَرَأَتْ مِنْ أَمَانَتِهِ ما يَجْعَلُهُ عَفَّ اللِّسَانِ وَالنَّظَرِ حَيْثُ توجَّهَتْ لِدَعْوَتِهِ فهِيَ تُشِيرُ عَلَى أبيها باسْتِئْجَارِهِ ليكفِيَهَا وَأُخْتَهَا مَؤُونَةَ العَمَلِ وَالاحْتِكَاكِ وَالتَّبَذُّلِ»[3].

وتَتَجَلَّى رَجَاحَةُ عَقْلِهَا في إِشَارَتِهَا عَلَى أَبِيهَا بِاسْتِئْجَارِهِ رُغْمَ حَيَائِهَا،

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٦.

٢- «أصول الافتاء والاجتهاد التطبيقي» الراشد.

٣- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٨٧.

وَتصِفُهُ بما يَتَنَاسَبُ مَعَ مَهَمَّتِهِ المُرَشَّحِ لِشَغْلِهَا وَهِيَ الرِّعَايَةُ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[1]. فالرَّعْيُ يحتاجُ قُوَّةً لمشَقَّتِهِ وَأَمَانَةً، فلا يَخُونُ صَاحِبَها في مَالِهِ أَوْ أَهْلِهِ وَهما صِفَتَانِ قَلَّمَا تَجْتَمِعَانِ في الرِّجَالِ مِمَّا دَفَعَ الفَارُوقَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ في دُعَائِهِ: (اللهُم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَجْزِ الأَمِينِ وَقُوَّةِ الخَائِنِ). ولهَذَا نهى رَسُولُ اللهِ ﷺ أبا ذَرٍّ من تَوَلِّي المَسْؤُولِيَّةِ رُغْمَ أَمَانَتِهِ لأَنَّهُ كَانَ ضَعِيفًا، وَمُبَادَرَتُهَا لتَرْشِيحِ مُوسَى عليه السلام للمَسْؤُولِيَّةِ تُشِيرُ إلى قُوَّةِ شَخْصِيَّتِهَا؛ فَالحَيَاءُ لَمْ يمنعْهَا مِنْ ذِكْرِ خِصَالِهِ الحَسَنَةِ دُونَ أَنْ تَخْشَى عَلَى نَفْسِهَا التُّهْمَةَ وَهِيَ الفَتَاةُ العَفِيفَةُ الطَّاهِرَةُ الحييَّةُ.

أَمَّا يُوسُفُ عليه السلام فَهُوَ يُرَشِّحُ نَفْسَهُ لمَهَمَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ عن المَهَمَّةِ التي يُرَشَّحُ لها مُوسَى عليه السلام وَهِيَ مَسْؤُولِيَّةُ الخزينَةِ في مِصْرَ سَيَذْكُرُ ما يُلائِمُهَا مِنَ الصِّفَاتِ فيَقُولُ للمَلِكِ ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2].

فَلَمْ يَصِفْ نَفْسَهُ كما في القَصَصِ (بالقَوِيِّ الأَمِينِ) لأَنَّ الخَزَّانَ وَالعَمَلَ المالِيَّ يَحْتَاجُ خِبْرَةً في حِفْظِهِ وَتَخْزِينِ غِلالِهِ وَعِلْمًا بِتَصْرِيفِهِ وَإِدَارَتِهِ، وَهَذَا ما أَثْبَتَ يُوسُفُ عليه السلام أَنَّهُ جَدِيرٌ بِهِ، قَادِرٌ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ لماذا

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢٦.

٢- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٥٥.

احْتَاجَ يُوسُفُ عليه السلام إلى تَرْشِيحِهَا وَتَزْكِيَتِهَا وَلَمْ يحتَجْ مُوسَى عليه السلام إلى شَيْءٍ من ذَلِكَ !!؟

إِنَّ الْمُجْتَمَعَ الفَاضِلَ يَبْحَثُ عنْ طَاقَاتِ وَقُدْرَاتِ المَوْهُوبينَ فَيُبْرِزُها وَيُوَظِّفُهَا في مَجَالِهَا فَوَجَدَ مُوسَى عليه السلام هَذِهِ البِيئَةَ النَّظِيفةَ الفَاضِلَةَ التي رَشَّحَتْهُ للأَمَانَةِ وَزَكَّتْهُ بِصِفَاتِهِ التي تُؤَهِّلُهُ لِحَمْلِهَا، أَمَّا الْمُجْتَمَعُ الْمُتْرَفُ الغَارِقُ في الملذات فَهُوَ يهدرُ طَاقَاتِ أَبْنَائِهِ وَيُقَدِّمُ السُّفَهَاءَ وَالْمُقَرَّبِينَ لذَوِي السُّلْطَانِ، فَاحْتَاجَ يُوسُفُ عليه السلام أَنْ يَذْكُرَ مُؤَهِّلاتِهِ وَيُزَكِّي نَفْسَهُ أَمَامَ المَلِكِ وَيُسَخِّرُ إمكانيَّاتِهِ في خِدْمَةِ مِصْرَ وَمُحِيطِهَا الإِقْلِيمِيِّ» يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ «، فهِيَ» تُشِيرُ عَلَى أبيها بِاسْتِئْجَارِهِ لِيَكْفِيَهَا وَأُخْتَهَا مَؤُونَةَ العَمَلِ وَالاحتكاكِ وَالتَّبَذُّلِ ، وَهُوَ قويٌّ عَلَى العَمَل بِالرِّعَايَةِ، وَأَمِينٌ عَلَى المَالِ وَالعِرْضِ؛ فَالأمينُ عَلَى العِرْضِ أمينٌ عَلَى ما سِوَاهُ. وهِيَ لا تَتَلَعْثَمُ في هَذِهِ وَلا تَضْطَرِبُ، وَلا تَخْشَى سُوءَ الظَّنِّ وَالتُّهَمَةِ، وَمِنْ ثُمَّ لا تَخْشَى شَيْئًا، وَلا تُتَمْتِمُ وَلا تُجَمْجِمُ وَهِيَ تَعْرِضُ اقْتِرَاحَهَا عَلَى أبيهَا. وقَدْ رَأَتْ مِنْ قُوَّتِهِ مَا يَهَابُهُ الرُّعَاةُ فَيفْسَحُونَ لَهُ الطَّرِيقَ وَيَسْقِي لهُمَا، وَهُوَ غَرِيبٌ، وَالغَرِيبُ ضَعِيفٌ مَهْمَا اشْتَدَّ، وَرَأَتْ مِنْ أَمَانَتِهِ ما يَجْعَلُهُ عَفَّ اللِّسَانِ وَالنَّظَرِ حِينَ توجهتْ لِدَعْوَتِهِ «[1].

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٨٧.

وهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ القَصَصَ وَيُوسُفَ تَعْرِضَانِ صُورَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ لحَالِ المَرْأَةِ في عَصْرِ مُوسَى عليه السلام وَحَالِها في عَصْرِ يُوسُفَ عليه السلام.

وَمِنَ الوَاضِحِ ارْتِبَاطُ حَالِ المَرْأَةِ بحَالِ المُجْتَمَعِ المُتْرَفِ الفاسدِ، وَتَأْثِيرُ كُلٍّ مِنْهُمَا في الآخَرِ أَمَّا الظُّلْمُ وَالبَطْشُ فَهُوَ يَدْفَعُ المَرْأَةَ للبَذْلِ وَالعَطَاءِ وَتحَدِّي الطُّغْيَانِ، وَصِفَةٌ مُشْتَرَكَةٌ للمَرْأَةِ في الحَالَيْنِ هُوَ الوفاءُ لمَنْ تُحِبُّ فهِيَ صَاحِبَةُ عاطفةٍ صَادِقَةٍ فَيَّاضَةٍ، وَصِفَةُ الكَيْدِ في الحَالَيْنِ نَتِيجَةٌ لضَعْفِهَا الطَّبِيعِيِّ؛فهِيَ تَسْتَخْدِمُ الكَيْدَ سَوَاءٌ في الخير أَمْ الشَّرِّ،وَقَدْ وَصَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَائِشَةَ بهَذِهِ الصِّفَةِ،حِينَ طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَأْمُرَ آبَاهَا الصِّدِّيقَ أَنْ يَؤُمَّ النَّاسَ في مَرَضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وهِيَ تَتَلَكَّأُ وَتَعْتَذِرُ أَنَّهُ رَجُلٌ أَسِيفٌ،فَقَالَ لها: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ،مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»[1].

والكَيْدُ وَالمَكْرُ هُوَ الطَّابعُ المُسَيْطِرُ عَلَى أَجْوَاءِ قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام ذَلِكَ أَنَّ الإيذَاءَ الذي تَعَرَّضَ له كَانَ من قِبَلَ الأقاربِ وَهم عادَةً يَكِيدُونَ وَيَمْكُرُونَ دُونَ أَنْ يَصَلَ الأَمْرُ بهم لِلْبَطْشِ وَالاسْتِئْصَالِ، وَدَوَافِعُهُمْ عَادَةً تَتَعَلَّقُ بالمَشَاعِرِ وَالأَحَاسِيسِ مِنْ حُبٍّ وَبُغْضٍ وَحَسَدٍ .

حَيْثُ تَبْدَأُ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَمَا يَقُصُّ رُؤْيَاه عَلَى أبيه يَعْقُوبَ عليه السلام الذي يُحَذِّرُهُ أَنْ يَعْلَمَ إِخْوَتُهُ برُؤْيَاه فَيَكِيدُوا له كَيْدًا ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ**

١- «صحيح البخاري» ١/٩٩.

مُبِينٌ﴾[1]. وَيُحَذِّرُ الوَالِدُ المُحِبُّ المُشْفِقُ وَلَدَهُ إِنْ سمِعَ إِخْوَتُهُ برُؤْيَاه أَنْ يَصْنَعُوا لَهُ كَيْدًا وَيُدَبِّرُوا لَهُ مُؤَامَرَةً للتَّخَلُّصِ منهُ، أَوْ تكُونُ كَيْدًا للتَّأْكِيدِ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، «فالكَيْدُ هُوَ ما يخشاه يَعْقُوب عليه السلام عَلَى وَلَدِه الصَّغِيرِ في حِينِ أُمّ مُوسَى كَانَتْ تَخَافُ عَلَيْهِ القَتْلَ وَالكَيْدِ بمعنى الحِيلَةِ وَالخَدِيعَةِ»[2].

وَفِي المَشْهَدِ التالي مُبَاشَرَةً نرى الإِخْوَةَ يَكِيدُونَ لِيُوسُفَ عليه السلام لأَخْذِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنْ أبيهِ المُحِبِّ وَمَشْهَدَهم يحيكُونَ الأَكَاذِيبَ للتَّغْطِيَةِ عَلَى جَرِيمَتِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إلى أبيهِمْ بِغَيْرِ يُوسُفَ عليه السلام. وَ"يَنْسَجِمُ التَّعْبِيرُ القُرْآنِيّ عَنْ حَمْلِ القَافِلَةِ لِيُوسُفَ عليه السلام مَعَ جَوِّ الكَيْدِ كَمَا في السُّورَةِ: (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) فَهُمْ يُخْفُونَهُ خفيَةً بَيْنَ بِضَاعَتِهِمْ وَيَبِيعُونَهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ للتَّخَلُّصِ مِنْهُ، وَمَشْهَدَ امْرَأَةِ العَزِيزِ تُرَاوِدُ يُوسُفَ عليه السلام ، وَالمُرَاوَدَةُ هِيَ المطالبة، وَتَعْدِيَتُهَا بِـ (عَنْ) لتَضْمِينِهَا مَعْنَى المُخَادَعَةِ لأَنَّ الطَّالِبَ يَتَلَطَّفُ في طَلَبِهِ تَلَطُّفَ المُخَادِعِ وَيَحْرِصُ حِرْصَهُ "[3].

وَنَرَى مَشْهَدَ النِّسْوَةِ يَتَنَاقَلْنَ فَضِيحَةَ القَصْرِ يُعَبِّرُ عنها السِّيَاقُ بِالمَكْرِ أَيْضًا انْسِجَامًا مَعَ جَوِّ السُّورَةِ وَطابَعِها العَامِّ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٥.

٢- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٧١.

٣- «الفتوحات الإلهية» ٢/٤٤٤.

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

وَفِي رَدِّهَا عَلَى مَكْرِهِنَّ تَسْتَخْدِمُ الحِيلَةَ وَالخِدَاعَ وَمَكْرَ النِّسَاءِ، فتُعِدُّ لَهُنَّ مَأْدُبَةً وَتُفَاجِئُهُنَّ بيُوسُفَ عليه السلام وَهُنَّ مُنْشَغِلاتٌ بِتَقْطِيعِ الفَاكِهَةِ أو الطَّعَامِ للوُصُولِ إلى غَايَتِهَا، وَهِيَ غَدْرُهَا في ما فَعَلَتْ وَمُرَاوَدَتُهَا لفَتَاهَا العِبْرِيِّ.

وحِينَ يُفَاجِئُهَا زَوْجُهَا وَهِيَ تُطَارِدُ يُوسُفَ عليه السلام تَلْجَأُ للخِدَاعِ وَالكَذِبِ للتغطيَةِ عَلَى جَرِيمَتِهَا فَتُبَادِرُ لاتِّهَامِ البَرِيءِ الكَرِيمِ يُوسُفَ الكَرِيمِ عليه السلام ،وَالهجُومُ خَيْرُ وَسِيلَةٍ للدِّفَاعِ، وَيَكُونُ الرَّدُّ البَارِدُ لِزَوْجِهَا عِنْدَ انْكِشَافِ جريمتها هُوَ تغْطِيَتُهَا بِغِطاءِ الكَيْدِ، وَلا يَنْسِبُهُ لها بَلْ يَنْسِبُهُ لجِنْسِهَا : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2].

«هَكَذَا إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، فهيَ اللباقَةُ في مُوَاجَهَةِ الحادِثِ الذي يثيرُ الدَّمَ في العُرُوقِ وَالتَّلَطُّفُ وَمُجَابَهَةُ السَّيِّدَةِ بِنِسْبَةِ الأَمْرِ إلى الجِنْسِ كُلِّهِ فيما يُشْبِهُ الثَّنَاءَ، فَإِنَّهُ لا يَسُوءُ المَرْأَةَ أن يُقَالُ لها: إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، فَهُوَ دَلالَةٌ في حِسِّهَا عَلَى أَنَّهَا أُنْثَى كَامِلَةٌ مُسْتَوْفِيَةٌ لمقُدْرَةِ الأُنْثَى

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣١.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٨.

عَلَى الكَيْدِ العَظِيمِ»[١].

وَنَرَى مَشْهَدَ يُوسُفَ عليه السلام يلجَأُ لِلمَكِيدَةِ للحُصُولِ عَلَى أخيهِ وَضَمِّهِ إِلَيْهِ في مِصْرَ عبر الحِيلَةِ وَالخَدِيعَةِ، فيُخْفِي الصّوَاعَ في رَحْلِ أخيهِ ليأخُذَهُ بَدَلاً مِنْهُ لِيَكُونَ رَهْنًا عِنْدَهُ لحِينِ اللقَاءِ الأخِيرِ بِقُدُومِ أبيهِ وَإِخْوَتِهِ إِلَيْهِ في مِصْرَ :﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، والمَعْنى «وَضَعْنَا لَهُ وَدَبَّرْنا مِنْ أجْلِ تَحْصِيلِ غَرَضِهِ من المُقَدِّمَاتِ التي رَتَّبَهَا مِنْ دَسِّ الصّوَاعِ وَمَا يَتْلُوهُ، عَلَّمْنَاهُ الاحْتِيَالَ وَهُوَ استفتاءُ إِخْوَتِهِ، وَالكَيْدُ يُشْعِرُ بِالحِيلَةِ وَالخَدِيعَةِ، لأَنَّ جَزَاءَ السَّارِقِ عِنْدَهُ لا يُوصِلُهُ إلى أَخْذِ أخيهِ، فَمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ إلا بِطَرِيقَةٍ وَشَرِيعَةِ إِخْوَتِهِ» [٣].

وحِينَ يَذْكُرُ يُوسُفُ عليه السلام نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَيَذْكُرُ ما أَصَابَهُ مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ يَنْسِبُ كَيْدَهُمْ إلى نَزْغِ الشَّيْطَانِ من وَسْوَسَتِهِ، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٤]. أَيْ أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنَنا بالإِغْوَاءِ، وَتُخْتَمُ السُّورَةُ أيضًا بالحَدِيثِ عن المَكْرِ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٨٧.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٧٦.

٣- «الفتوحات الإلهية» ٢/١٩٨٣.

٤- سُورَة يُوسُف : الآيَة الآيَة ١٠٠.

حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1]. أَيْ «وَمَا كُنْتَ مَعَهُمْ إِذْ اجْتَمَعُوا وَاتَّفَقَ رأْيُهُمْ، وَهم يَمْكُرُونَ ذَلِكَ المَكْرِ الذي تحدثتْ عنه القِصّةُ في مَوَاضِعِه، وَهم يَمْكُرُونَ بيُوسُفَ، وَهم يَمْكُرُونَ بِأَبِيهِمْ، وَهم يُدَبِّرُونَ أَمْرَهُمْ بَعْدَ أَخْذِ أَخِيهِ، وَقَدْ خَلَصُوا نجيًّا وَهُوَ مِنَ المَكْرِ بمعنى التَّدْبِيرِ، وَكذَلِكَ ما كَانَ هُنَاكَ مِنْ مَكْرٍ بيُوسُفَ من نَاحِيَةِ النِّسْوَةِ وَمن نَاحِيَةِ رِجَالِ الحَاشِيَةِ وَهم يُودِعُونَهُ السِّجْنَ، كُلُّ أُولَئِكَ مَكَرٌ ما كُنْتَ حَاضِرَهُ لِتَحْكِيَ عنه، إِنَّمَا هُوَ الوَحْيُ الذي سيقَتِ السُّورَةُ لِتُثْبِتَهُ مِنْ بَيْنِ مَا تُثْبِتُ مِنْ قَضَايَا هَذِهِ العَقِيدَةِ وَهَذَا الدِّينِ، وَهِيَ مُتَنَاثِرَةٌ في مَشَاهِدِ القِصَّةِ الكثيرة»[2].

وَتَتَنَاسَقُ آيَاتُ الخِتَامِ في السُّورَةِ مَعَ جَوِّ الكَيْدِ وَالمَكْرِ فَتُحَذِّرُهم مَكْرَ اللهِ بِالعُصَاةِ وَأَخْذَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[3].

وَلَعَلَّ عِلْمَ يُوسُفَ عليه السلام بِالتَّأْوِيلِ سَواءٌ تَأْوِيلُ الأَحْلامِ أَمْ مَعْرِفَةُ مآلِ الأُمُورِ وَما تَصِيرُ إِلَيْهِ كَانَ مُتَنَاسِبًا غايَةَ التَّنَاسُبِ مَعَ الكَيْدِ حَوْلَهُ الذي يُرَافِقُهُ مُنْذُ طُفُولَتِهِ وَحَتَّى نِهَايَةِ القِصَّةِ إضافةً لِمُنَاسَبَةِ التَّأْوِيلِ لِعَصْرِ

١- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٠٢.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٤/٢٠٣١

٣- سُورَة يُوسُف: الآيَة ١٠٧.

يُوسُفَ عليه السلام المليءِ بالرُّؤَى بِدْءًا برُؤْيَا يُوسُفَ عليه السلام وَرُؤْيَا صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ وَأخيرًا رُؤْيَا المَلِكِ.

الفَصْلُ السَّادِسُ

مَرَاحِلُ الإِعْدَاد القِيَادِيّ فِي سُورَتَيْ يُوسُفَ وَالقَصَصِ

تَبْدَأُ سُورَةُ يُوسُفَ بِالحُرُوفِ (ألف لام را) ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾[1]، وَتَبْدَأُ سُورَةُ القَصَصِ بِالحُرُوفِ (طا سين ميم) ﴿**طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾[2]. وَفيها زِيَادَةُ تَحَدٍ وَإعجازٍ لبَلاغَةِ العربِ وَفَصَاحَتِهِمْ، إِنَّ هَذَا القُرْآنُ مُؤَلَّفٌ مِنْ هَذِهِ الحُرُوفِ العَرَبيَّةِ وَرُغْمَ أَنَّهَا فِي مُتَنَاوَلِ أَيْدِيكُمْ، تَلُوكُونَهَا بِأَلْسِنَتِكُمْ لَيْلَ نَهَار، فأَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ.

ثُمَّ الحَدِيثُ عَنِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي السُورَتَيْنِ بِالتَّعْبِيرِ نَفْسِهِ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ، وَيَبْدَأُ الحَدِيثُ فِي يُوسُفَ عن قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام بِكَلِمَةِ (نَقُصُّ) فيما يُعَبِّرُ السِّيَاقُ فِي القَصَصِ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام بِكَلِمَةِ (نَتْلُوا): ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَص بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[3]. ﴿**نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[4]. لأَنَّ سُورَةَ يُوسُفَ تقصُّ علينا قِصَّةً من بِدَايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا بجميع حَلقَاتها، وَموضُوعُ السُّورَةِ وَاحدٌ هُوَ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام وَهِيَ أَحْسَنُ القَصَصِ بما امتازَتْ بِهِ عن سَائِرِ القَصَصِ من مزايا أفاضَ

١- سُورَة يُوسُف : ١.

٢- سُورَة القَصَص : الآيات١ -٢.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٣.

٤- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢.

بِذِكْرِهَا أئمةُ التَّفْسِيرِ وَعَدَّدها وَفصَّلها أَهْلُ الأدبِ وَالكِتَابَةِ.

فيما يُعَبِّرُ السِّيَاقُ في القَصَصِ عن قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام بتَعْبِيرِ (نَتْلُوا عَلَيْكَ) ؛ لأنَّ السُّورَةَ لا تَذْكُرُ قِصَّةَ مُوسَى عليه السلام من بِدَايَتِهَا إلى نِهَايَتِهَا، بَلْ عِدَّة فُصُولٍ تُنَاسِبُ مَوْضُوعَهَا، وَهِيَ الخاصة بعَمَلِيَّةِ الإِعْدَاد القِيَادِيّ التي مر بها مُوسَى عليه السلام لقِيَادَة بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِخْرَاجِهِمْ من مِصْرَ إلى فِلَسْطِين وَتخليصهم من الذل وَالاستعباد في مِصْرَ بيَدِ فِرْعَوْنَ وَملئه: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].أَيْ «من خبرهما وَ(مِنْ) للتَّبْعِيضِ؛ أَيْ نَتْلُوا عليكَ بعضَ خَبَرِهِمَا» [2]؛ فَالسُّورَةُ تَقُصُّ شَيْئًا من قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ، فهِيَ تَذْكُرُ جَوانِبَ مُحَدَّدَةً مِنْ مُوَاجَهَتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَتترك فُصُولاً لا تَتَعَرَّضُ لذِكْرِها، مثل مُوَاجَهَةِ مُوسَى عليه السلام مَعَ السَّحَرَةِ وَحِواراتِهِ الطَّوِيلَةِ مَعَهُمْ .

وَقِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام لا تصلُحُ أَنْ تُذْكَرَ مُوَزَّعَةً عَلَى السُّوَرِ لأَنَّهَا لُحْمَةٌ وَاحِدَةٌ تَبْدَأُ برُؤْيَاه التي يَقُصُّها عَلَى أبيهِ فعلاً وَتَتَحَقَّقُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَأَحْدَاثٍ مُتَتَالِيَةٍ مُتَرَابِطَةٍ تنْتَهِي باجتماعِهِ بأبيه وَإِخْوَتِهِ وَقَدْ مكَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - له في الأَرْضِ وَجمع له خَزَائِنَهَا بَيْنَ يَدَيْه، «وقَدْ بَدَأت القِصّةُ وَانتهت في سُورَةٍ وَاحِدَةٍ، لأَنَّ طَبِيعَتَهَا تَسْتَلْزِمُ هَذَا اللونَ من الأَدَاءِ،

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٢٤٨/٧.

فهيَ رُؤيَا تَتَحَقَّقُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَمَرْحَلَةً بَعْدَ مَرْحَلَةٍ، فلا تَتِمُّ العِبْرَةُ بها كما لا يَتِمُّ التَّنْسِيقُ الفَنِّيُّ فيها إلا بأَنْ يُتَابِعَ السِّيَاقُ خُطُواتها وَمَرَاحِلَهَا حَتَّى نِهَايَتِهَا.وإفراد حَلقَةٍ وَاحِدَةٍ منها في موضعٍ لا يُحَقِّقُ شَيْئًا من هَذَا كُلِّه كما يُحَقِّقُهُ إفراد بعض الحَلقَات في قَصَصِ الرُّسُلِ الآخَرِينَ، كَحَلقَةِ مَوْلِدِ عيسى عليه السلام أَوْ حَلقَةِ قِصَّةِ نُوح عليه السلام وَالطوفانِ.فهَذِهِ الحَلقَات تَفِي بِالغَرَضِ منها كاملاً في مواضِعِها، أَمَّا قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام فتَقْتَضِي أَنْ تُتْلَى كُلُّهَا مُتَوالِيَةً حَلَقَاتُهَا وَمشَاهِدُهَا مِنْ مَبْدَئِهَا إلى نِهَايَتِهَا»[1].

فيما نَجِدُ أَنَّ الأَنْسَبَ وَالأَوْلَى فيها أَنْ تُوَزَّعَ قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام عَلَى السُّوَرِ حَسْبَ المُنَاسَبَةِ وَالسِّيَاقِ وما تعانيه الدَّعْوَةُ وَقْتَ النُّزُولِ، فَكُلُّ مَقْطَعٍ يَتَحَدَّثُ عَنْ تَجْرُبَةٍ يخُوضُهَا مُوسَى عليه السلام سواءٌ مَشْهَدُ المناجاةِ أَمْ مُواجَهَتُهُ مَعَ السَّحَرَةِ، أَمْ قِصَّتُهُ مَعَ قَوْمِهِ حِينَ عَبَدُوا العِجْلَ أَوْ حوارُهُ الطَّوِيلُ مَعَهُمْ في قِصَّةِ ذبح البَقَرَةِ فنَاسَبَ ذِكْرُهُ تَعْبيرَ (نَتْلُوا عَلَيْكَ) بَدَلا مِنْ (نَقُصُّ).

والقِصَّةُ في سُورَةِ القَصَصِ سيقت لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ: ﴿**نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[2]. بَيْنَمَا يخْتَلِفُ التَّعْبِيرُ في يُوسُفَ عن ذَلِكَ: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[3]. فَالحَدِيثُ هنا عن

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٢٠٣٧/٧.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٢.

٣- سُورَة يُوسُف: الآيَة ٢.

القُرْآنِ وَإِنْزَالِهِ، لا عن القِصَّةِ ذاتها،كما أنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ عليه السلام جَاءَتْ كما وَرد في أَسْبَابِ النُّزُولِ رَدًّا عَلَى سُؤَالِ المُشْرِكِينَ عن قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام وَسَبَبِ انْتِقَالِ يَعْقُوبَ عليه السلام بِأَهْلِهِ من الشَّامِ إلى مِصْرَ.

أَمَّا القَصَصُ فهِيَ تستهدفُ الجُمْلَةَ المُؤْمِنَةَ، إِنَّهَا كِتَابٌ وَرِسَالَةٌ لهم: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]. «فإلى القَوْمِ المُؤْمِنِينَ يُوَجَّهُ هَذَا الكِتَابُ؛ يُرَبِّيهِمْ بِهِ وَيُنْشِئُهُمْ وَيَرْسُمُ لهُمُ المِنْهَاجَ، وَيَشُقُّ لهُمُ الطَّرِيقَ . وَهَذَا القَصَصُ المَتْلُوُّ في السُّورَةِ يُقْصَدُ بِهِ أُولَئِكَ المُؤْمِنُونَ، وَهُمْ بِهِ يَنْتَفِعُونَ»[2].

إِعْدَادٌ يَبْدَأُ مِنَ الطُّفُولَةِ

لَيْسَ مُصَادَفَةً أَنَّ سُورَةَ القَصَصِ دُونَ غيرها من سُوَرِ القُرْآنِ التي تَعْرِضُ فُصُولاً من قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام تَبْدَأُ بقِصَّةِ مَوْلِدِهِ وَمَشَاهِدِ طُفُولَتِهِ كما بَدَأَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام بذِكْرِ طُفُولَتِهِ وَمشَاهِدِهَا مَعَ أبيه وَإِخْوَتِهِ، وَهَذِهِ البِدَايَةُ خاصَّةٌ بالقَصَصِ دُونَ غيرها كما ذَكَرْنَا.

«وبَعْدَ هَذَا الافْتِتَاحِ يُبْدَأُ في عَرْضِ النَّبَأ، نَبَأ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ، يُبْدَأُ في عَرْضِهِ مُنْذُ أَوَّلِ حَلقَةٍ في القِصَّةِ حَلقَةِ مِيلادِهِ، وَلا تَبْدَأُ مثل هَذَا البدء في

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٣.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٧/٢٦٧٦.

أيَّةِ سُورَةٍ أُخْرَى من السُّوَرِ الكثيرةِ التي وَردتْ فيها، ذَلِكَ أنَّ الحَلقَةَ الأُولَى من قِصَّةِ مُوسَى، وَالظُّروفَ القاسيَةِ التي وُلِدَ فيها؛ وَتجرُّدَهُ في طُفُولَتِهِ من كُلِّ قُوَّةٍ وَمن كُلِّ حيلة؛ وضعفَ قَوْمِه وَاستذلالهم في يَدِ فِرْعَوْنَ، ذَلِكَ كُلُّهُ هُوَ الذي يؤَدِّي هَدَفَ السُّورَةِ الرَّئيسِيَّ، وَيُبْرِزُ يَدَ القُدْرَةِ سَافِرَةً مُتَحَدِّيَةً تَعْملُ وَحْدَهَا دُونَ سِتَارٍ من البَشَرِ، وَتضربُ الظُّلْمَ وَالطُّغْيَانِ وَالبغي ضَرْبَةً مُبَاشِرَةً عِنْدَمَا يَعْجَزُ عن ضربها البَشَرُ، وَتنْصُرُ المُسْتَضْعَفِينَ الذينَ لا حَوْلَ لهم وَلا قُوَّةَ، وُتُمَكِّنُ للمعذبين الذينَ لا حيلةَ لهم وَلا وِقايَة. وَهُوَ المعنى الذي كَانَتِ القلةُ المسلمةُ المُسْتَضْعَفَةُ في مَكَّة في حَاجَةٍ إلى تقريره وَتثبيته؛ وَكَانَتِ الكثْرَةُ المُشْرِكَةُ الباغِيَةُ الطَّاغِيَةُ في حَاجَةٍ إلى مَعْرِفَتِهِ وَاستيقانه»[1].

وَإضافةً إلى ذَلِكَ، فإنَّ غَرَضَ السُّورَةِ لعَمَلِيَّةِ الإعْدَاد القِيَادِيّ لمُوسَى عليه السلام لا يَتِمُّ دُونَ عَرْضِ مَرْحَلَةِ الطُّفُولَةِ؛ذَلِكَ أنَّ مَرْحَلَةَ الطُّفُولَةِ هِيَ الأَخْطَرُ وَالأَهَمُّ ضمنَ مَرَاحِلِ الإعْدَاد، وَكُلَّمَا كَانَتْ عَمَلِيَّةً مُبْكِرَةً تكُونُ أكثرَ أثرًا في النَّفْسِ، فالطفلُ يُولَدُ مُتَفَتِّحًا مُهَيَّئًا للتَّلَقِّي وَالتَّرَقِّي، يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ مُزَوَّداً بكُلِّ الامْكانَاتِ التي تُؤَهِّلُهُ لأَدَاءِ دَوْرِهِ المُقَدَّرِ لَهُ عَلَى وَجْهِ المَعْمُورَةِ.

في حِينِ نَجِدُ طُفُولَةَ مُوسَى عليه السلام تُظِلُّهَا أَجْوَاءَ الخَوْفِ التي فَصَّلْنَا الحَدِيثَ عَنْهَا سَابِقًا أثرت عَمِيقًا في شَخْصِيَّتِهِ وطِبَاعِه، وَنَجِدُهُ طفلاً

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٧/٢٦٧٦.

مُحَاطًا بأجْواءِ الكَيْدِ من أقربِ المُقَرَّبينَ إِلَيْهِ، إخْوَتِهِ أَبْنَاءِ يَعْقُوبعليه السلام، فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ يَعْقُوبعليه السلام لَمْ يَكُنْ لِيُحَذِّرَهُ من كَيْدِ إِخْوَتِهِ لولا أَنَّ الأَمْرَ كَانَ دَيْدَنًا لهم وَطبعًا فيهم، فلَيْسَ طَبِيعِيًّا أَنْ يحذِّر الأبُ وَلَدَهُ كَيْدَ إِخْوَتِهِ الكبارِ الذينَ يُفْتَرَضُ فيهم أَنْ يُحِبُّوهُ وَيعطِفُوا عَلَيْهِ، وَيَفْرَحُوا بهَذَا الأَخِ الذِي رُزِقُوهُ مِنْ أبيهم بَعْدَ أَنْ كبروا وَصاروا عُصْبَةً. ولكنهم حسدوه وَكادوه المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ حَتَّى خشيَ الأبُ عَلَى طفله من تماديهم فِي كَيْدِهم، فحذَّرَهُ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهِم رُؤْيَاه، فكَانَتْ حَادِثَةُ إلقائِهِ فِي الجُبِّ قمة الكَيْدِ من الإِخْوَةِ دُونَ حَاجَةٍ لأَنْ يَكُونُوا فعلاً قَدْ سَمِعُوا منه الرُّؤْيَا، فَهُمْ يُبَرِّرُونَ كَيْدَهُمْ بإيثارِ أبيهم لِيُوسُفعليه السلام وَأخيهِ عَلَيْهِم، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِ حَالِهم: ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[1].

وهَذَا الكَيْدُ يرافقُ يُوسُفَ عليه السلام حَيَاتَهُ كُلَّهَا، فَيُكَادُ بِهِ بَعْدَ كيدِ إِخْوَتِهِ منَ امْرَأَةِ العَزِيزِ وَالنِّسْوَةِ، ثُمَّ العَزِيزِ وَالملأ يُلقونَ له التُّهْمَةَ ليَقْذِفُوهُ فِي غَيَابَةِ السِّجْنِ بَعْدَ أَنْ ألقاهُ إِخْوَتُهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ، كما أَنَّ الخَوْفَ قَدْ لازَمَ مُوسَىعليه السلام مِشْوَارَ حَيَاتِهِ الطَّوِيل، وَانطبعَ عَميقًا فِي شَخْصِيَّتِهِ؛ فَأَعْمَقُ الأَخَادِيدِ التي تَحْتَفِرُ فِي نُفُوسِنَا هِيَ تِلْكَ الأَخَادِيدُ الناجمةُ عن تَجَارُبِ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٨ .

الطُّفُولَة .

في حِينِ أنَّ الأَبَ في يُوسُفَ عليه السلام هُوَ مَنْ يَخَافُ عَلَى وَلَدِهِ، فالأُمّ في القَصَص هِيَ مَنْ يَخَافُ عَلَى الوَلَد، فالأَبُ في القَصَص لا يُذْكَرُ كما أنَّ الأُمَّ في يُوسُفَ لا تُذْكَرُ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1]. بَيْنَمَا في القَصَص ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

وَرُغْمَ أنَّهُ لا تُوجَدُ أيُّ إِشَارَةٍ إلى يُوسُفَ أَوْ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ بَلْ يُشِيرُ السِّيَاقُ في نِهَايَةِ قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام إلى حُضُورِ أُمِّهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[3].

ورُغْمَ وُجُودِ الأُمِّ في المَشْهَدِ يبقى وُجُودُهَا هامِشِيًّا، فنَجِدُ يُوسُفَ عليه السلام يوجه الكَلامَ لأَبِيهِ. فَلِمَاذَا تُهْمَلُ الأُمُّ في قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام وَيُهْمَلُ الأَبُ في

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٧.

٣- سُورَة يُوسُف : الآيَة ١٠٠.

قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام ؟!

إِنَّ المَقْصُودَ من ذِكْرِ الأَبِ في قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام هُوَ ذِكْرُ دَوْرِهِ في حَيَاةِ وَلَدِهِ، وَعَمَلِيَّةِ الإِعْدَاد التي مرَّ بها، فلا قيمةَ لذِكْرِ الأُمِّ هنا وَلَنْ تَزِيدَ في القِصَّةِ شَيْئًا، وَهَذَا أسلوبُ القَصَصِ القُرْآنِيّ لِمَنْ يَتَذَوَّقُهُ، فَكُلُّ شَخْصِيَّةٍ يَتِمُّ إبرازُهَا في القِصَّةِ بِقَدَرِ دَوْرِها وتَأْثِيرِهَا في الأَحْدَاث .

وعَلَى العكس من ذَلِكَ في قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام نَجِدُ المُؤَثِّرَ في طُفُولَتِهِ هِيَ أُمُّهُ المُؤْمِنَةُ المُتَّصِلَةُ بِرَبِّهَا، وَهِيَ التي تُلْقِيهِ في اليمِّ وَتُرْضِعُهُ بَعْدَ عودَتِهِ سَالِمًا وَتُرْسِلُ أُخْتَهُ في أَثَرِهِ تَطْلُبُهُ، أَمَّا الأَبُ فما الدَّوْرُ الذي قام بِهِ لكي يُذْكَرَ في القِصَّة؟؟.

والأُمُّ في القَصَصِ تَخَافُ عَلَى وَليدِهَا من القَتْلِ؛ ذَلِكَ أَنَّ مُوَاجَهَةَ مُوسَى عليه السلام كَانَتْ مَعَ الأباعد (فِرْعَوْنَ وَمَلأه)، أَمَّا خَوْفُ الأَبِ في يُوسُفَ عليه السلام عَلَى وَليدِهِ فإِنَّ من الكَيْدِ؛ ذَلِكَ أَنَّ مُوَاجَهَةَ يُوسُفَ عليه السلام كَانَتْ مَعَ الأقاربِ وَالمُحِبِّينَ (إِخْوَتِهِ وَامْرَأَةِ العَزِيز).

وَنُلاحِظُ في الحَالَيْنِ حُبَّ الوالِدَيْنِ وَرعايَتَهُمَا للطِّفْلِ وَخَوْفَهُمَا عَلَيْهِ من القريبِ وَالبَعِيدِ، فنَجِدُ يَعْقُوب عليه السلام مُهْتَمًّا أَشَدَّ الاهْتِمَامِ برُؤْيَا وَلَدِهِ الصَّغِيرِ يُوسُفَ عليه السلام يُؤَوِّلُهَا لَهُ، وَيُبَشِّرُهُ بِمُسْتَقْبَلٍ زَاهِرٍ، وَيُحَذِّرُهُ من ذِكْرِ رُؤْيَاه أَمَامَ إِخْوَتِهِ، وَيُنْصِتُ بِكُلِّ اهْتِمَامٍ لِتَفَاصِيلِ رُؤْيَاهُ، وَلِهَذَا السَّبَبِ تَتَكَرَّرُ كَلِمَةُ (رَأَيْتُ) مَرَّتَيْنِ في حَدِيثِ يُوسُفَ عليه السلام لأَبِيهِ رُؤْيَاه، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ**

عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1]. فكأن يَعْقُوب عليه السلام بعدَ أُنْسِهِ مَعَ الجزءِ الأوَّلِ من رُؤْيَا وَلَدِهِ: ﴿إِنِي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[2]، اهْتَمَّ بالأمْرِ وَسَأَلَهُ عنها وَطَلَبَ تَفْصِيلَهَا، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ مُؤَكِّدًا وَمُفَصِّلاً الحَالَةَ التي رأى عَلَيْهَا الكَوَاكِبَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ، فقَالَ : (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، وفِي قَوْلِهِ (رَأَيْتُهُمْ) كَلامٌ مستأنفٌ عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ وَقَعَ جَوَابًا له[3].

وَيَبْدُو اهْتِمَامُ الأُمِّ فِي القَصَصِ بوَلَدِها شَدِيدًا فهِيَ خَائِفَةٌ عَلَيْهِ تَبْحَثُ عن طَرِيقَةٍ مُبْتَكَرَةٍ لإِنْقَاذِهِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ وَذَبْحٍ أَكِيدٍ ، فَيُكَرِّرُ السِّيَاقُ لَفْظَ الخَوْفِ مَرَّتَيْنِ فِي الحَدِيثِ عن إلقائِهَا الطِّفْلَ فِي اليَمِّ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4]، فهِيَ تَصِفُ حِرْصَهَا كَأُمٍّ وَ خَوْفَها الفِطْرِيَّ عَلَى وَلِيدِهَا، فهِيَ عِنْدَ مَوْلِدِهِ تَخَافُ عَلَيْهِ القَتْلَ وَحِينَ تُلْقِيهِ لتُنْقِذَهُ مِنَ القَتْلِ تَخَافُ عَلَيْهِ الوقوعَ بيَدِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ أَوْ ضَيَاعِهِ غَرَقًا فِي اليَمِّ .«ولا تَنَاقُضَ أَنْ يَثْبُتَ الخَوْفُ فِي

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٤.

٣- انظر : «إعراب القُرْآن الكَرِيم» محي الدين الدرويش٤/٤٥١.

٤- سُورَة القَصَص : الآيَة ٧٤.

قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ) ثُمَّ ينفيه بِقَوْلِهِ: (وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي)؛ لأَنَّ الخَوْفَ الأَوَّلَ المُثْبَتَ هُوَ الخَوْفُ من الذَّبْحِ وَالثَّانِي غَرَقُهُ في النِّيلِ»[1].

إِبْعَادٌ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ البِيئَةِ

بَعْدَ ذِكْرِ طُفُولَةِ يُوسُفَ عليه السلام وَكَيْدِ إِخْوَتِهِ وَإِلقائِهِ في غَيَابَةِ الجُبِّ؛ وَهُوَ سدٌّ أَوْ طَاقَةٌ في البِئْرِ قَرِيبُ المَاءِ يُغَيِّبُ مَا فِيهِ مِنَ العُيُونِ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيّ: «هِيَ غَوْرَةٌ وَما غابَ منه عنْ عَيْنِ النَّاظِرِ وَأَظْلَمَ مِنْ أَسْفَلِهِ»[2]. فَيَلْتَقِطُهُ السَّيَّارَةُ فَيُبْعَدُ عن محْضَنِهِ الطَّبِيعِيِّ؛ حَيْثُ دفءُ البَيْتِ وَحنانُ الأُمِّ وَرِعَايَةُ الأَبِ، وَمُشَاكَسَاتُ الإِخْوَةِ، وَمُؤَثِّرَاتُ البِيئَةِ من حَوْلِهِ.

وَيُلقَى مُوسَى عليه السلام في اليَمِّ فَيَلْتَقِطُهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيُبْعَدَ عن أَهْلِهِ وَبِيئَتِهِ، وَيُرَبَّى في مُحِيطٍ وَبِيئَةٍ وَرِعَايَةٍ جَدِيدَةٍ. وَفي الحَالَتَيْنِ: إلقاءٌ وَالتقاطٌ وَإبعادٌ عن البَيْتِ وَرِعَايَةٌ في القَصْرِ، والسِّرُّ في ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ عاش يُوسُفُ عليه السلام طُفُولَتَهُ في البَدَاوَةِ في أرضِ كنعان مَعَ أبيه وَإِخْوَتِهِ لحَمَلَ صِفَاتِ البَدَاوَةِ وَذَاتَ التَّجْرُبَةِ والأفكارِ والمفاهيمِ وَالعلومِ البدائيَّةِ التي يتَّصِفُ بها أَهْلُ البَدَاوَةِ، فكَيْفَ لِطِفْلٍ يَنْشَأُ في البَادِيَةِ أَنْ يُدِيرَ خَزَائِنَ الأَرْضِ لَوْ لَمْ يُبْعَدْ عن مُؤَثِّرَاتِ بِيئَتِهِ إلى مُؤَثِّرَاتٍ جَدِيدَةٍ وَبِيئَةٍ جَدِيدَةٍ تلائمُ عَمَلِيَّةَ الإِعْدَاد

١- «إعراب القُرْآن الكَرِيم» محي الدين الدرويش ٧/ ٢٨٥.

٢- «إعراب القُرْآن الكَرِيم» محي الدين الدرويش ٧/ ٢٨٥.

للمَهَمَّةِ المُلْقَاةِ عَلَى عاتقِه مُسْتَقْبَلاً!!

ولَوْ نشأ مُوسَى عليه السلام بَيْنَ إِخْوَتِهِ وَقَوْمِهِ من بَنِي إِسْرَائِيلَ لقاسى معهم عَمَلِيَّةَ الاذلالِ المُتَواصِلةَ وَالتَّسْخِيرَ الفِرْعَوْنِيَّ في العَمَلِ المهينِ الشَّاقِّ، مما يَطْبَعُ النَّفْسَ عَلَى الذُّلِّ وَالخنوع وَيُعَوِّدُهَا الانْقِيَادَ السَّهْلَ للطُّغْيَانِ. فمن أينَ لِمُوسَى عليه السلام لَوْ عاش بيئَةَ قَوْمِهِ وَمُؤَثِّرَاتِها القُوَّةُ وَالجرأةُ وَالشَّجَاعةُ للوُقُوفِ في وَجهِ طاغيَةِ عَصْرِه وَزَمَانِه فِرْعَوْنَ!! يَتَحَدَّاهُ دُونَ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ أَوْ حسابٍ لقُوَّتِهِ وَتَجَبُّرِهِ عَلَى الخَلْقِ.

إِنَّ إِعْدَادَ القَائِدِ القادرِ عَلَى تَغْيِيرِ الوَاقعِ حَوْلَهُ يَتَطَلَّبُ إبعادَهُ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ بيئَتِهِ إلى بيئَةٍ تُكسبُهُ القُدُرَاتِ اللازِمَةَ لِمَهَمَّةِ التَّغْيِيرِ الجذريّ. وَإِنَّ مَنْهَجِيَّةَ أيَّ مؤسَّسَةٍ غالبًا ما تُنْتِجُ نمَاذِجَ هِيَ بنتُ بيئَتِهَا، وَبالتالي تَظْهَرُ ذَاتُ المَنْهَجِيَّةَ وَذاتُ النَّمَطِ، فالإِنْسَانُ ابنُ بيئَتِهِ وَهِيَ مؤثرٌ أساسيٌّ في تشكيلِ شَخْصِيَّتِهِ، «وَالأُمّ هِيَ أولُ عاملٍ في صناعةِ شَخْصِيَّةِ الإِنْسَانِ، تصوغ بُنْيَتَهُ وَأَبْعَادَهُ الرُّوحيَّةَ، يَقُولُ المُبَشِّرُونَ: أعطُونَا طِفْلَكُمْ حَتَّى يبلغَ السَّابِعَةَ، وَبَعْدَئذٍ أينما ذَهَبَ يَبْقَى حياتَهُ سَعِيدًا.والأَبُ يصوغ بَعْدَ الأُمِّ الأبعادَ الأُخْرَى في شَخْصِيَّةِ الطِّفْلِ»[1]. وهَذَا ما يُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2].

١- «ترجمة نصوص مختارة فياض رسول» المؤرخ الايراني علي شريعتي ١٦٤.

٢- «صحيح البخاري» باب «ما قيل في أولاد المُشْرِكِينَ» رقم الحديث : (١٢٩٦) ١٨٢/٥.

ويأتي بَعْدَ دَوْرِ الأَبَوَيْنِ دَوْرُ الدِّرَاسَةِ وَالمدرَسَةِ وَبَعْدَها تَأْثيرُ البِيئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، «فكُلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ البِيئَةُ وَاسعَةً وَكبيرَةً كَانَ تَأْثيرُهَا عَلَى الإِنْسَانِ أكبرَ، فإذا عاشَ في قريَةٍ فإنَّ تَأْثيرَهَا عَلَى تكوينِهِ أَقَلُّ شَأْنًا من المَدينَةِ» [1]. وَلهَذَا كَانَ الرُّسُلُ من أَهْلِ المُدُنِ وَالأَمْصَارِ لا من أَهْلِ البَدَاوَةِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[2]. «والثقافةُ العَامَّةُ هِيَ العامِلُ الأخيرُ في تَشْكِيلِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالإِنْسَانُ لَوْ أُهْمِلَ وَتُرِكَ لنَمَى بِطَرِيقَةٍ لا تنفع للحَيَاةِ أَوْ لأهدافنا، وَلذَلِكَ نضعُ له قوالبَ مُعَيَّنَةً حَتَّى ينمو ضِمْنَهَا وَيَتَرَبَّى كما يُرَادُ له وَكما يَتَطَلَّبُهُ الزَّمَانُ وَالعَصْرُ» [3].

وهَكَذَا تَمَّ إبعادُ يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ عن كُلِّ هَذِهِ المُؤَثِّرَاتِ ليَتِمَّ صياغَتَهَا من جَديدٍ في قالبٍ يَتَنَاسَبُ مَعَ المَهَمَّةِ التَّغْيِيرِيَّةِ التي يُرَادُ لهُ تَأْدِيَتُهَا وَالعَصْرِ الذي بُعِثَ كُلٌّ مِنْهُمَا فيه.

وَكَانَ إلقاءُ يُوسُفَ عليه السلام في الجُبِّ تَجْرِبَتُهُ الأُولَى للوِحْدَةِ وَالظُّلْمَةِ وَالبردِ تَمْهِيدًا لما سَيَلقَاهُ في السِّجْنِ. وَكَانَ عُبُورُ مُوسَى عليه السلام اليَمَّ في

١- «ترجمة نصوص مختارة فياض رسول» المؤرخ الايراني علي شريعتي ١٦٤.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ١٠٩.

٣- «ترجمة نصوص مختارة فياض رسول» المؤرخ الايراني علي شريعتي ١٦٤.

التَّأبُوتِ مُحَاطًا بالمَخَاوِفِ وَالمَخَاطِرِ تَجْرِبَتَهُ الأُولَى تَمْهِيدًا لعبورِهِ البَحْرَ كَبِيرًا ببَنِي إِسْرَائِيلَ يَطْلُبُه فِرْعَوْنُ وَجنودِه.

وَيُلاحِظُ المُتَأمِّلُ لحَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أُبْعِدَ عن كُلِّ المُؤَثِّرَاتِ البيئيَّةِ حَوْلَهُ، فقَدْ أَباهُ قَبْلَ مَوْلِدِه، وَأُبْعِدَ عن أُمِّه للرضَاعَةِ في بني سعد وَحِيدًا. عاد إلى مَكَّة فَفَقَدَ أُمَّـهَ ثُمَّ جَدَّهُ عبدَ المُطَّلِبِ،وَاشتغلَ عَنْ حَيَاةِ مَكَّةَ الصَّاخِبَةِ بِالرعَاءِ،وَأُبْعِدَ عن مجالسِ اللهْوِ وَالشَّرَابِ فحُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءَ إلى أَنْ تَمَّتْ صِيَاغَتُهُ وَاكْتَمَلَ إِعْدَاده لتَغْيِيرِ مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ.

فَكَانَ من المهم إبعادُ يُوسُفَ وَمُوسَىعَلَيْهِمَا السَّلامُ عن الأُمِّ الحنونِ وَالأَبِ الحامي الشَّفيقِ لِتَكُونَ للرُّوحِ تِلْكَ الصلابةُ وَللنَّفْسِ القُدْرَةُ عَلَى الصُّمُودِ لِيُوَاجِهَ مَشَاقَّ الحَيَاةِ وَصُعُوبَاتها دُونَ أَنْ يجدَ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ وَيَحْمِيه، وَيَتَعَلَّم السِّبَاحَةَ في بحرِ الحَيَاةِ وَتَجَارُبِها وَتيارِهَا الجارِف.ويجدُ يُوسُفُ عليه السلام نَفْسَهُ بَعْدَ دفءِ وَرِعَايَةِ وَحُبِّ وَالدِهِ رَقِيقًا يُبَاعُ في مِصْرَ فتىً يَعِيشُ في قَصْرِ عَزِيزِها. فَلِمَاذَا تَنْقُلُ يَدُ القُدْرَةِ يُوسُفَعليه السلام إلى قَصْرِ عَزِيزِ مِصْرَ لِيُرَبَّى فِيه؟؟

بَيْنَ قَصْرِ فِرْعَوْنَ وَقَصْرِ العَزِيز

كَثِيرًا ما كُنْتُ أتساءَلُ وَأنَا أقْرَأُ سُورَةَ يُوسُفَ، مِنْ أينَ عَرَفَ يُوسُفُ عليه السلام الخُطَّةَ الاقْتِصَادِيَّةَ التي قَدَّمَهَا لِلمَلِكِ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ تَأْوِيلَ رُؤْيَاه؟؟ أعَجَبُ وَلا أجِدُ للسُّؤَالِ جَوَابًا، ذَلِكَ أَنَّ رُؤْيَا المَلِكِ تَذْكُرُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرُ يَابِسَاتٌ، فلَوْ كَانَ الأَمْرُ مُجَرَّدَ تَعْبِيرٍ لِلرُّؤْيَا لعبَّرها يُوسُفُ عليه السلام أَنَّهَا سَبْعُ سَنَوَاتِ خِصْبٍ تَتْبَعُهَا سَبْعُ سَنَوَاتِ جَدْبٍ، فَمِنْ أين تَعَلَّمَ التَّخْطِيطَ الاقْتِصَادِيَّ فوضع لِمِصْرَ خُطَّةَ طَوَارِئَ اقْتِصَادِيَّةً لعقدٍ وَنِصْفٍ مِنَ الزَّمَانِ ؟!

إِنَّهُ قَصْرُ العَزِيزِ، وَعَزِيزُ مِصْرَ هُوَ مَسْؤُولُ الخَزَائِنِ وَالمَالِيَّةِ أَوْ كبيرُ وُزَرَاءِ مِصْرَ، وَفِي الحَالَتَيْنِ هُوَ المَسْؤُولُ عَنِ اقْتِصَادِ البلادِ وَمحَاصِيلِهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَمَا وَلاَّهُ المَلِكُ عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ صارَ لَقَبُهُ العَزِيزَ؛ أَيْ وَظِيفة عَزِيزِ مِصْرَ نَفْسِهَا الذي اشْتَرَاهُ وَربَّاهُ فِي قَصْرِهِ، وَأَمَرَ زَوْجَهُ أَنْ تُكْرِمَ مَثْوَاهُ: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[1]. وهَذَا السِّرُّ فِي أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام حِينَ دَخَلَ القَصْرَ رَقِيقًا يَوْمَ اشْتَرَاهُ عَزِيزُ مِصْرَ طَلَبَ مِنْ زَوْجِهِ أَنْ تُكْرِمَ مَثْوَاهُ، فقَدْ كَانَ يَأْمُلُ مِنْ يُوسُفَ عليه السلام لما وَجَدَ فيهِ مِنْ إِمَارَاتِ النَّجَابَةِ وَالذَّكَاءِ وَكَرَمِ الأَصْلِ وَالأَخْلاقِ أَنْ يَكُونَ بمثَابَةِ الوَلَدِ عِنْدَهُ، وَأَنْ يَنْفَعَهُ مُسْتَقْبَلاً فِي إِدَارَةِ خَزَائِنِ البِلادِ، فَكَانَ يَرْعَاهُ رِعَايَةَ الوَلَدِ فِي قَصْرِهِ، وَيُعَلِّمُهُ أَسْرارَ الاقْتِصَادِ وَخفاياهُ وَرِعَايةَ مَصَالِحَ العِبَادِ تَحْقِيقًا لأَمَلِهِ وَرَجَائِهِ حِينَ اشْتَرَاهُ.

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢١.

ويُستَدَلُّ عَلَى مَدَى قُوَّةِ اقْتِصَادِ مِصْرَ فِي زَمَنِهِ أَنَّ مِصْرَ وَقْتَ المَجَاعَةِ كَانَتْ قِبْلَةَ الأقطارِ المجَاوِرَةِ، يَأْتُونها مُمْتَارِينَ، كما يُسْتَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ من اسْتِخْدَامِ الدَّرَاهِمِ بمَعْنَى أَنَّ لَدَيْهِمْ صَكًّا لِلعِمْلَةِ، وَهَذِهِ العِمْلَةُ تُعَدُّ وَلا تُوزَنُ. «فَالاقْتِصَادُ البِدَائِيُّ يَسْتَخْدِمُ فيه تَبَادُلُ البَضَائِعِ، وَحِينَ يَتَطَوَّرُ تُسْتَخْدَمُ العِمْلَةُ الذَّهَبِيَّةُ وَالفِضِّيَّةُ وَزنًا، أَمَّا عِنْدَمَا تُعَدُّ الدَّرَاهِمُ عَدًّا فَهُوَ مُسْتَوى مُتَطَوِّرٍ للاقْتِصَادِ، وَمما يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأثمان كَانَتْ تجري عِنْدَهُمْ عَدًّا لا وَزنًا»[1] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾[2].

وَأَوْصَى العَزِيزُ زَوْجَهُ أَنْ تُكْرِمَ مَثْوَاهُ، أَيْ مَكَانَ إِقَامَتِهِ، زِيَادَةً فِي إِكْرَامِهِ، وَصَمَتَتْ امْرَأَةُ العَزِيزِ؛ لأَنَّهَا لَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ نظْرَةَ زَوْجِهَا إِلَيْهِ، بَلْ نَظَرَتْ إلى جَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَفُتُوَّتِهِ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ كَانَ قَلْبُهَا يَشْتَعِلُ بِحُبِّهِ حَتَّى شَغَفَهَا حُبًّا. وبَدَأَتْ تُرَاوِدُهُ المَرَّةَ تِلْوَ الأُخْرَى حَتَّى افْتُضِحَ أمرُهَا فِي المَدِينَةِ وَشاعَ أمرُهَا فِي مجَالِس نِسْوَةِ المَدِينَةِ وَأنديتها، وَلَوْ نظرتْ إِلَيْهِ نظرةَ الوَلَدِ أو الابْنِ كما رآه زَوْجُهَا لما رَاوَدَتْهُ عن نَفْسِهِ، فَكَانَ من غير اللائق أو المُنَاسِبِ أَنْ تَقُولَ عَنْهُ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عن زَوْجِهَا: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا**

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ١٣٨/٥.

٢- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢٠.

أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[1]، فَبَقِيَت المَرْأَةُ صامِتَةً وَفِي نَفْسِهَا شَيْءٌ !!

وَسَمِعَ مُوسَى عليه السلام العِبَارَةَ ذَاتَهَا فِي قَصْرِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَخِيهِ يُوسُفَ عليه السلام بمئاتِ السِّنين. ولَكِنَّ القَائِلَ هَذِهِ المَرَّةَ لَيْسَ صَاحِبَ القَصْرِ «فِرْعَوْنَ» بَلْ الزَّوْجَةَ «امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ» هِيَ من قَالَتْ ذاتَ العِبَارةِ التي قالها العَزِيزُ لِزَوْجِهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِكَايَةً عنها: ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[2] .

لقَدْ كَانَتْ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً، رقيقةَ القَلْبِ وَمُرْهَفَةَ الإِحْسَاسِ، محُبَّةً للمُؤْمِنين المُسْتَضْعَفِينَ من بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، مُشْفِقَةً عَلَيْهِم، مُبغِضَةً لِظُلْمِ زَوْجِهَا الطَّاغِيَةِ، تَتَمَنَّى الخَلاصَ مِنْ جوَارِهِ فِي القَصْرِ، تُنَاجِي رَبَّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَدْعُوهُ: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[3]. فَتَحَرَّكَ قلبُهَا الرَّهِيفُ لرُؤْيَةِ الطِّفْلِ الرضيع بِيَدِ هَؤُلاءِ المجْرِمِينَ الطُّغَاةِ، فَطَلَبَتْهُ لِنَفْسِهَا لِيَكُونَ وَلَدًا، أَوْ يَنْفَعَ فِي إِدَارَةِ شُؤُونِ البِلادِ وَإِصْلاحِ أَحْوَالِ الرَّعِيَّةِ وَمَا أَفْسَدَهُ زَوْجُهَا فِي مِصْرَ،عَلَى اعتبارِ أَنَّهَا وَزَوْجها عَقِيمانِ كَمَا نَفْهَمُ من السِّيَاقِ،وَإِلا فَمَا

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢١.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٩.

٣- سُورَة التحريم : الآيَة ١١.

حَاجَتُهَا لِتَبَنّي الطِّفْلِ لَوْ كَانَ لَدَيْهَا أَبْنَاءٌ، وَهُوَ ذاتُ الأَمْرِ مَعَ يُوسُفَ عليه السلام في قَصْرِ عَزِيزِ مِصْرَ.

وأَرَادَتِ المُؤْمِنَةُ الطَّاهِرَةُ ترقيقَ قَلْبِ زَوْجِهَا الطَّاغِيَةِ، وَلفْتَ نَظَرِهِ إلى بَرَاءَةِ الطِّفْلِ وَجَمَالِهِ، حَيْثُ يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِها: ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ**﴾[1]. وأَطْمَعَتْهُ بإمكانِ أَنْ يَكُونَ الرَّضِيعُ سَنَدًا له في حُكْمِ البِلادِ وَإِدَارَتِها وَإِنْ لمْ يَكُنْ من صُلبِهِ، حَيْثُ يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَلَى لِسَانِها: ﴿**لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[2]، فَلماذا صَمَتَ فِرْعَوْنَ ؟!

أَلمْ يَكُنْ عَقِيمًا، يَحْتَاجُ لوَلَدٍ كَمَا كَانَ العَزِيز يَحْتَاجُ وَلَدًا؟؟

أَلا يَحْتَاجُ مَنْ يُعِينُهُ في حُكْمِ مِصْرَ وَإِدَارَتِهَا مُسْتَقْبَلاً!!

كَانَ فِرْعَوْنُ طَاغِيَةً قَاسيَ القَلْبِ لا يَتَوَرَّعُ عَنْ قَتْلِ أَطْفَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ في الشَّاقِّ المُذِلِّ مِنَ الأَعْمَالِ، بَلْ إِنَّ بَطْشَهُ وَظُلْمَهُ بَلَغَ زَوْجَهُ المُؤْمِنَةَ الطَّاهِرَةَ التي كَانَتْ تخْشَاهُ وَتُنَاجِي رَبَّهَا أَنْ يُنْجِيَهَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَبلغ بَطْشُهُ بِالمُؤْمِنِينَ من آلِهِ، فَكَانُوا يخْفُونَ إيمانَهُمْ،كَمَا قَصَّتْهُ علينا سُورَةُ غَافِر من نبَأِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ**

١- سُورَة القَصَص : الآيَة ٩.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٩.

رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1]. ومثلُ هَذَا القَلبِ لا يَرِقُّ لرؤيَةِ طفلٍ رَضيعٍ، وَقَدْ بلغَ الكبرُ وَالاسْتِعْلاءُ بفِرْعَوْنَ أَنْ يَدَّعِيَ الأُلُوهيَّةَ وَيَسْتَخِفَّ قَوْمَهُ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى حِكَايَةً عنه: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

وَمَنْ يَبْلُغُ بِهِ الاسْتِعْلاءُ وَالكِبرُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ يَعْتَبِرُ أَنَّهُ مِنَ العارِ وَالضَّعْفِ بِحَقِّهِ أَنْ يَبْحَثَ عن وَلَدٍ أَوْ مُعِينٍ له في الحكم، فَهُوَ في نَظَرِ نَفْسِهِ إِلهٌ فَوْقَ البَشَرِ جَميعًا، فمَا حَاجَتُهُ لِطِفْلٍ رَضيعٍ يَتَبَنَّاهُ!!!

وقَدْ جاءَ كَلامُ امْرَأَة فِرْعَوْنَ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ جُنْدِ فِرْعَوْنَ، كما يُفِيدُ السِّيَاقُ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ﴾[3]. فقَدْ كَانَ الجُنْدُ وَالحَاشِيَةُ حاضرين، فَخَاطَبَتْهُمْ بِصِيغَةِ الجمع (لا تَقْتُلُوهُ)، وَوَجَّهَتْ حَدِيثَهَا إلى فِرْعَوْنَ تَأْلِيفًا لقلبِهِ وَاسْتِعْطَافًا له أَمَامَ جُنْدِهِ وَحَاشِيَتِهِ، وَما يَعْنِينَا هُنَا أَنَّ حُضُورَ الجُنْدِ وَالحَاشِيَةِ يَجْعَلُ مِنَ

١- سُورَة القَصَص: الآيَة ٩.

٢- سُورَة القَصَص: الآيَة ٣٨.

٣- سُورَة القَصَص: الآيَة ٩.

المُسْتَحِيلِ عَلَى فِرْعَوْنَ الجَبَّارِ المُتألِّهِ عَلَى الخَلْقِ أنْ يُظْهِرَ ضَعْفَهُ البُشَرِيَّ أمَامَ هَذَا المَشْهَدِ لَوْ فَرَضْنَا فِعْلاً أنَّهُ تَأثَّرَ بِهِ، فبقيَ صَامِتًا لَمْ يَتَحَدَّثْ وَلَمْ ينبسْ ببِنْتِ شِفَة،لئلا يَظْهَرَ ضَعِيفًا أمَامَ جُنْدِهِ وَحَاشِيَتِهِ؛ إذ كَيْفَ يُعْقَلُ أنْ يَدَّعِيَ الأُلُوهِيَّةَ ثُمَّ يَقُولُ أمَامَ الجُنْدِ وَالحَاشِيَةِ مقولة عَزِيز مِصْرَ لِزَوْجِهِ: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾[1].

وَلَكِنْ لماذا يُرَبَّى مُوسَى عليه السلام في قَصْرِ فِرْعَوْنَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأَمَاكِنِ؟؟ فَلَوْ كَانَ الهدَفُ مِنْ وُجُودِهِ في القَصْرِ مُجَرَّدَ الحِمَايَةِ مِنَ الذَّبْحِ لَقَدَّرَ اللّهُ تَعَالَى له يَدًا تحملُهُ بَعِيدًا عن مِصْرَ وبَطْشِ فِرْعَوْنَ كمدْيَنَ مَثَلاً التي كَانَتْ خارجَ سُلْطَانِ فِرعَونَ: ﴿**قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2]، فكَانَتْ مِدْيَنُ خَارِجَ سُلْطَانِ فِرْعَوْنَ.

لقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَدَّعِي الأُلُوهِيَّةَ، وَكَانَ لَهُ مِنَ السَّطْوَةِ وَالجَبرُوتِ ما يَزْرَعُ الرُّعْبَ وَالخَوْفَ في قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَعِنْدَمَا يَخَافُ النَّاسُ شَخْصًا يَنْسِبُونَ لَهُ أُمُورًا خَارِقَةً وَغيرَ طَبِيعِيَّةٍ وَيَخَافُونَ من مُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ في مواجهته أوْ تحدّيه، فكَيْفَ إذا كَانَ هَذَا الشَّخْصُ لَيْسَ مُجَرَّدَ طَاغِيَةٍ جَبَّارٍ بَلْ يَدَّعِي أَيْضًا الأُلُوهِيَّةَ وَيستعلي عَلَى النَّاسِ، وَيجدُ حَوْلَهُ من يؤلِّهُهُ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَة ٢١.

٢- سُورَة القَصَص : الآيَة ٢٥.

وَيُرَدِّدُ أَكَاذِيبَهُ وَيُرَوِّجُهَا بَيْنَ النَّاسِ. سيَكُونُ مِنَ الجُنُونِ أَنْ يَقِفَ فَرْدٌ لِيَتَحَدَّى هَذِهِ الأساطيرَ وَالأَوْهَامَ الْمُتَرَاكِمَةَ فِي النُّفُوسِ، حَتَّى عِنْدَ مَنْ لا يُؤْمِنُونَ بِأُلُوهِيَّتِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

ولَوْ تَرَبَّى مُوسَى عليه السلام بَعِيدًا عن قَصْرِ فِرْعَوْنَ لرُبَّمَا انتابَهُ بَعْضُ مَشَاعِرِ الخَوْفِ من هَذَا الْمَخْلُوقِ المجْهُولِ الْمُحَاطِ بِهَذِهِ الهالة الضَّخْمَةِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالأُبَّهَةِ!! أَمَّا وَقَدْ عاشَ فِي قَصْرِهِ وَأَكَلَ من طَعَامِهِ وَرَآهُ فِي نَوْمِهِ وَيقظتِهِ،وَجُوعِهِ وَشِبَعِهِ وَصِحَّتِهِ وَسَقَمِهِ، وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ، فقَدْ زالتْ من نَفْسِهِ أَيُّ رَهْبَةٍ وَكَسَرَ أَيَّ حاجزٍ للخَوْفِ فِي نَفْسِهِ. ففِرْعَوْنُ فِي نظر مُوسَى عليه السلام مُجَرَّدَ بَشَرٍ، إِنْسَانٍ لا يَضُرُّ وَلا ينفعُ فكَانَتْ الحِكْمَةُ أَنْ يَعِيشَ فِي قَصْرِهِ وَتحتَ رِعَايَتِهِ وَحمايتِهِ وَيَتَرَبَّى عَلَى عَيْنِهِ، وَيَكُونُ وُجُودُ مُوسَى عليه السلام فِي قَصْرِ فِرْعَوْنَ مَرْحَلَةَ إِعْدَادٍ،وَيَتَعَلَّمُ خلالها أَسْرَارَ وَخفايا السِّيَاسَةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ كما تَعَلَّمَ يُوسُفُ عليه السلام من العَزِيزِ أُمُورَ الاقْتِصَادِ وَإِدَارَةَ الأُمُورِ وَحِفْظَ المحاصيل.

وَلَكِنْ لِمَاذَا يَدْخُلُ مُوسَى عليه السلام قَصْرَ فِرْعَوْنَ حُرًّا وَلا يُبَاعُ مِثْلَ أَخِيهِ يُوسُفَ عليه السلام الذِي عاشَ فِي القَصْرِ عَبْدًا (فتىً) عِنْدَ العَزِيزِ؟؟

لقَدْ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يعانُونَ المَهَانَةَ وَالمَذَلَّةَ وَأُشْرِبُوا الذُّلَّ حَتَّى أَلِفَتْهُ نفوسُهُمْ وَصارَ الانقيادُ السَّهْلُ للقُوَّةِ من طِبَاعِهِمْ. وَيُرَادُ لِمُوسَى عليه السلام أَنْ يقودَهُمْ لِلخُرُوجِ مِنْ هَذَا الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ فلا بُدَّ أَنْ يَتَرَبَّى بَعِيدًا عن أَيِّ شُعُورٍ بالمَذَلَّةِ أَوِ المَهَانَةِ، وَلَوْ بِيعَ بَيْعًا وَاشْتَرَاهُ فِرْعَوْنُ أَوْ زَوْجُهُ لِيَدْخُلَ

القَصْرَ عَبْدًا (فتىً) لما كَانَ في وُجُودِه في القَصْرِ خُرُوجٌ مِنَ القَالِبِ الذي يَعِيشُ في قَوْمِه.

أَمَّا يُوسُفُ عليه السلام فَهُوَ يَعْتَزُّ بنَفْسِه وَحُسْنِه وَأَهْلِه وَيَسْتَعْلِي عَلَى القَصْرِ وَساكِنِيه وَلا يعاني أيَّ شُعُورٍ بالاستضعافِ وَالامتهان، وَنَجِدُ حَالَةَ الاسْتِعْلاءِ وَالاعتزاز بالنَّفْسِ حَتَّى في أَحْلَكِ لحَظَاتِ سِجْنِه، يحكي اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه وَهُوَ يَقُولُ لصَاحِبِه في السِّجْنِ مُعْتَزًّا بِدِينِه وَنَسَبِه وَآبائه، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**﴾[1].

وكان في بيعه رَقِيقًا وَهُوَ الكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابْتِلاءً وَتمحيصًا، وَلَوْ دَخَلَ القَصْرَ حُرًّا لرُبمَا دَخَلَ قَلْبَ العَزِيزِ مِنْهُ خَوْفٌ، فَلَمْ يُعَلِّمْهُ أَوْ يَأْتَمِنْهُ عَلَى أسرارِ الإِدَارَةِ وَالاقْتِصَادِ في مِصْرَ. أَمَّا وَهُوَ مُجَرَّدُ فتى عبريٍّ اشتراهُ العَزِيزُ بمالِهِ فلنْ يَخْرُجَ عَنْ طَوْعِ سَيِّدِهِ مَهْمَا بَلَغَ مِنْ مَكَانَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ مَنْصِبٍ.

وَلِمَاذَا اسْتَمَرَّ تَوَاصُلُ مُوسَى عليه السلام مَعَ إِخْوَتِهِ وَأُمِّهِ التِي كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَلَمْ

١- سُورَة يُوسُف : الآيات ٣٧ - ٣٨.

يَتَوَاصَلُ يُوسُفُ عليه السلام مَعَ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ !!

كَانَ من الضروري لِمُوسَى عليه السلام أَنْ يَتَوَاصَلَ وَبِشَكْلٍ يَوْمِيٍّ مَعَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ بيْتِهِ لِيَسْتَشْعِرَ مُعَانَاتِهِمْ وَالظُّلْمَ الواقِعَ عَلَيْهِم دُونَ أَنْ يَذُوقَ هُوَ من الكأس المُرّة التي شَرِبَهَا قَوْمُهُ حَتَّى ارْتَوَوْا منها. ولَوْ كَانَ مَعْزُولاً في القَصْرِ لعاش بَعِيدًا عن مَشَاعِرِهم وَمَشَاكِلِهِمْ وَمعاناتهم ، فَكَانَ في تَنَقُّلِهِ بَيْنَ القَصْرِ وَبيتِ أُمِّهِ «مُرْضِعَتِهِ» غَايَةُ الحِكْمَةِ، وَكَوَّنَتْ عِنْدَهُ شَخْصِيَّتَهُ الأساسيَّةُ وَطَبْعَهُ المُبْغِضَ لكُلِّ ظُلْمٍ وَكُرْهَهُ الشَّدِيدَ لِفِرْعَوْنَ وَمَلأِه وَما يمثِّلُ من طُغْيَانٍ وَاسْتِعْلاءٍ .

أَمَّا بُعْدُ يُوسُفَ عليه السلام عن أبيهِ وَأَهْلِهِ في البادِيَةِ فقد كانَ ابْتِلاءً لِصَبْرِ أبيه نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ عليه السلام ، وَالأَنْبِيَاءُ هُمُ الأَشَدُّ بلاءً، وَلَمْ يَكُنْ لاتِّصَالِهِ بهم أيُّ فائدةٍ تُرْجَى في عَمَلِيَّةِ الإِعْدَادِ وَلِمَهَمَّتِهِ المستقبليَّةِ، بَلْ كَانَ بُعْدُهُ عَنْهُم وَانْقِطَاعُهُ الكاملُ عُنْصُرَ تقويَةٍ وَتَصْلِيبٍ لِشَخْصِيَّتِهِ وَفيهِ الحِكْمَةُ غايَةُ الحِكْمَةِ.

إذن مَرْحَلَةُ القَصْرِ لكُلٍّ من مُوسَى وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ مَرْحَلَةٌ ضَرُورِيَّةٌ في الإِعْدَاد القِيَادِيّ للمَهَمَّة التي أُعِدَّ كُلٌّ مِنْهُمَا لأَدَائِهَا.

غُرْبَةٌ وَقَيْدٌ

عَاشَ يُوسُفُ عليه السلام في قَصْرِ العَزِيز في ظِلِّ التَّرَفِ وَالتَّبَرُّجِ وَفِتْنَةِ نساءِ القَصْرِ وَاختلاطِ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ دُونَ رادعٍ يَرْدَعُ أَوْ خُلُقٍ يَمْنَعُ أو وَازِعٍ مِنْ

دينٍ أوْ مُرُوءَةٍ. وبقي مُسْتَمْسِكًا بِكَرَمِ أهْلِهِ وَعَظِيمِ خُلُقِهِ وَلا يَلْتَفِتُ إلى شَيْءٍ من ذَلِكَ كُلِّهِ مما زادَ مِنْ حُبِّ وَتَعَلُّقِ امْرَأةِ العَزِيز به، وَحِرْصِهَا عَلَى الفَوْزِ بِهِ وَجذبِ انْتِبَاهِهِ.

وَعَلاوةً عَلَى عَظِيمِ خُلُقِ يُوسُفَ وَكَرَمِ نَفْسِهِ وَأدبِهِ كَانَ يستشعرُ فَضْلَ العَزِيز عَلَيْهِ أنْ أكرَمَ مَثْوَاهُ وَجعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الوَلَدِ وَاجْتَهَدَ عليه السلام في فَهْمِ وَإِدْرَاكِ خفايا صنْعَةِ سَيِّدِهِ حَتَّى صَارَ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ من الخبرةِ في الإِدَارَةِ وَالتخطيط حَتَّى بَلَغَ بِهِ الأمْرُ أنْ يضعَ لِمصْرَ خُطَّةً اقْتِصَادِيَّةً تُنْقِذُهَا من المَجَاعَةِ وَهُوَ في سِجْنِهِ بَيْنَ الجدرانِ وَعَتْمَتِهَا وَالقيدِ وَقسوتِهِ مَعْزُولاً عن النَّاسِ وَالمُجْتَمَعِ في الخَارِجِ.

وقَدْ أثبتتْ خُطَّتُهُ فَجَاعَتَهَا في التَّطْبِيقِ فَصَارَتْ مِصْرُ بِفَضْلِهَا مَحَجًّا لِمُحِيطِهَا الإِقْلِيمِيِّ الذي افْتَقَدَ عَقْلِيَّةً وَخبْرَةً اقْتِصَادِيَّةً تُخَطِّطُ لَهُ كيُوسُفَ عليه السلام وَقَدْ اشْتَمَلَتْ خُطَّتُهُ عَلَى تخفيضٍ للنَّفَقَاتِ إلى الحَدِّ الأدنى وَرفْعِ الإِنْتَاجِ إلى الحَدِّ الأعْلَى وَإِحْكَامِ التَّخْزِينِ بِحِفْظِ المَخْزُونِ «المَحْصُولِ» في سُنْبُلِهِ خِشْيَةَ التَّلَفِ وَالفَسَادِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[1]، وَأحْسَنَ في أحْكَامِ

١- سُورَة يُوسُف : الآيَات ٤٧-٤٩.

التَّخْزِينِ؛ فَفِي ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ رَفَعَ الإِنْتَاجِ لأقصى دَرَجَاتِهِ، وَفِي ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إحكامٌ فِي التَّخْزِينِ، وَفِي ﴿إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ خَفْضُ الاسْتِهْلاكِ لأَدْنَى مُسْتَوى، وَتضَمَّنَتِ الخُطَّةُ برنامجًا للصَّرْفِ فِي سَنَوَاتِ الجَدْبِ، بِحِفْظِ الإِنْتَاجِ مَعَ اسْتِيفَاءِ جُزْءٍ من المخزون للبِذَارِ فِي عامِ الخصب الذي يتبع سَنَوَاتِ الجَدْبِ السَّبْعَةَ ، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سَنَوَاتِ المَجَاعَةِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أَيْ خَفْضِ الصَّرْفِ لأدنى مستوى ﴿إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أَيْ حفظ كَمِّيَّةٍ من المحصول للبِذَارِ.

وَرَبَطَ يُوسُفُ عليه السلام كَذَلِكَ بيعَ المحاصيلِ بِعَدَدِ الأَنْفُسِ لا بكميَّةِ النُّقُودِ لِمَنْعِ الاحْتِكَارِ للمَحَاصِيلِ بيَدِ الأَغْنِيَاءِ دُونَ الفُقَرَاءِ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾[1]، فَرَبَطَ الكَيْلَ بِالأَنْفُسِ لا بِالمَالِ،وَاعْتَمَدَ مِقْدَارًا مُحَدَّدًا لِكُلِّ نَفْسٍ يوفِي بِهِ لِلنَّاسِ هُوَ الكيل ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾[2] مُسَاوَاةٌ فِي التَّوْزِيعِ دُونَ مُحَابَاة. وأَعَدَّ يُوسُفُ عليه السلام أَمَاكِنَ مُنَاسِبَةً للتَّوْزِيعِ، يَسْتَقْبِلُ بها القَوَافِلَ وَيُكْرِمُهُمْ: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [3]، فَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إلى كَرَمِ استقبالِهِ للمُتَاجِرِينَ.

١- سُورَة يُوسُف : ٦٠.

٢- سُورَة يُوسُف : ٧٢.

٣- سُورَة يُوسُف : ٥٩.

فَمَاذَا كَانَتْ ثَمَرَةُ خُطَّتِهِ الاقْتِصَادِيَّةِ؟؟! ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يحْتَاجُ زِرَاعَةً للاستفادةِ منَ الغَيْثِ، (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) يفيضُ الخيرُ وَتعَمُّ البَرَكَةُ بِبَرَكَةِ الغَيْثِ وَنَجَاحِ الخُطَّةِ اليُوسُفِيَّةِ. وما كَانَ يُوسُف عليه السلام ليبلغَ هَذَا المستوى الرَّائِعَ وَالرُّقِيَّ من التَّخْطِيطِ الاقْتِصَادِيِّ وَإِدَارَةِ المالِ لولا اجْتِهَادُهُ في قَصْرِ العَزِيز، وَما وَهبَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له منْ مَوَاهِبَ وَقُدُرَاتٍ.

وحَانَتْ لحْظَةُ الابْتِلاءِ التي يُشِيرُ السِّيَاقُ إِلَيْهَا ببُلُوغِ يُوسُف عليه السلام أَشُدَّهُ، وَالأَشُدُّ هُوَ الحُلُم وَالبُلُوغُ عِنْدَ جُمْهُورِ المُفَسِّرِينَ، فَلَمْ تستطعْ امْرَأَةُ العَزِيزِ ضَبْطَ شَهَوَاتِهَا وَالصَّبْرَ عليه أكثرَ من ذَلِكَ، فهاجمَتْهُ بَعْدَ أَنْ فَشِلَتِ المُرَاوَدَةُ بكُلِّ وَسَائِلِهَا وَحِيَلِهَا، وَصَبَرَ يُوسُفُ عليه السلام عَلَى الابْتِلاءِ في القَصْرِ مُسْتَعِينًا باللهِ من فِتْنَتِهَا، فَأُرْسِلَ إلى السِّجْنِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

أَمَّا مُوسَى عليه السلام فَيَعِيشُ في قَصْرِ فِرْعَوْنَ وَتفُوحُ منْ حَوْلِهِ رائحةُ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ وَالبَطْشِ وَالإِرْهَابِ فَتَزْكُمُ أَنْفَهُ وَلا يَسْتَطِيعُ ضبطَ انْفِعَالاتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَطَبْعِهِ الرَّافِضِ لِلظُّلْمِ، فَيَتَوَرَّطُ بِقَتْلِ قِبْطِيٍّ بَعْدَ أن اشْتُهِرَ في

١- سُورَة يُوسُف : الآيَات ٤٧-٤٩.

٢- سُورَة يُوسُف : ٢٢.

مِصْرَ بِدَوْرِهِ كَمُصْلِحٍ يَعْمَلُ لِرَفْعِ الظُّلْمِ عن النَّاسِ ما اسْتَطَاعَ.

ويُشِيرُ السِّيَاقُ القُرْآنِيُّ إليها ببُلُوغِ مُوسَىعليه السلام أَشُدَّهُ وَهُوَ الحُلمُ وَالبُلُوغُ وَاسْتِوَاؤُهُ، وَالاسْتِوَاءُ هُوَ اكتمالُ القُوى الجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ عِنْدَهُ، وَهُوَ زيادةٌ عَلَى البُلُوغِ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ القُوَّة، فَلِمَاذَا الاسْتِوَاءُ قَبْلَ المِحْنَة عِنْدَ مُوسَىعليه السلام ؟؟!! ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ذَكَرْنَا سَابِقًا في سِيَاقِ عَرْضِنا لأبرزِ السِّمَاتِ الشَّخْصِيَّةِ لمُوسَىعليه السلام أَنَّهُ امتازَ بِالقُوَّةِ الجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَأَنَّهَا ضروريَّةٌ لأَدَاءِ مَهَمَّته.ونَزِيدُ هُنَا أَنَّ مِحْنَةَ يُوسُفَعليه السلام كَانَتْ بَعْدَ بلوغه الحلمَ،وَهنا يَكُونُ الامْتِحَانُ أَصْعَبَ، فكُلَّمَا تقدَّمَ العُمْرُ بالشَّبَابِ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى ضَبْطِ غَرَائِزِهِ وَشَهَوَاتِه، فمَرْحَلَةُ البُلُوغِ هِيَ مَرْحَلَةُ الطَّيْشِ وَالنَّزَوَات، فَكَانَ ابْتِلاءُ يُوسُفَعليه السلام أَشَدَّ صُعُوبَةً في هَذِهِ السِّنِّ المُبَكِّرَةِ، وَإِشَارَةً إلى عَدم صَبْرِ امْرَأَةِ العَزِيز عَلَيْهِ، فهِيَ تَفْقِدُ صَوَابها وَتهاجِمُهُ دُونَ انْتِظَارٍ لِبلُوغِهِ أَشُدَّهُ.

أَمَّا مُوسَىعليه السلام فَمِحْنَتُهُ كَانَتْ في قُوَّتِه لا في جَمَالِه وَحُسْنِه كيُوسُفَعليه السلام وَكَانَ الأَبْلَغُ فيهَا أَنْ تَكُونَ بَعْدَ بُلُوغِ أَشُدِّهِ وَاسْتِوَائِه، حَيْثُ تَكْتَمِلُ قُوَّتُهُ وَيَكُونُ مُهَيَّئًا لِمُوَاجَهَةِ ما بَعْدَها من المَشَاقِّ وَالصُّعُوبَات.

١- سُورَة القَصَص : ١٤.

ولَكِنَّ مِحْنَة مُوسَى عليه السلام بِقَتْلِهِ القِبْطِيَّ لا تَقُودُهُ إلى السِّجْنِ كما اقْتِيدَ أَخُوهُ يُوسُفُ عليه السلام حِينَ رفضَ الإجَابَةَ لما يَدْعُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ فَاحِشَةٍ، بَلْ تَأْخُذُهُ يَدُ القُدْرَةِ إلى الرَّعْيِ في مِدْيَنَ.

فلمَاذَا يَقْضِي يُوسُفُ عليه السلام بِضْعَ سِنِينَ في السِّجْنِ؟

بَيْنَمَا يَقْضِي مُوسَى عليه السلام عَشْرَ سِنِينَ في الرَّعْيِ ؟؟

الرَّعْيُ أَوْ جَوُّ الرّعَاءِ يُكْسِبُ صَاحِبَهُ عِشْقَ الحُرِّيَّةِ وَرفضَ الخُضُوعِ لأيِّ قَيْدٍ أَوْ سُلْطَانٍ في مِدْيَنَ حَيْثُ لا سُلْطَانَ لفِرْعَوْنَ وَلا رقيبَ لسُلْطَانٍ غيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ،كما يَتَعَلَّمُ مُوسَى عليه السلام مِنَ الرِّعَايَةِ قِيَادَةَ قَوْمِهِ بَعْدَ عودَتِهِ إلى مِصْرَ ليرْعَى شُؤونَهُمْ وَيقودَهُمْ نَحْوَ فِلَسْطِين.

وَالإِدَارَةُ أَمَلُ يُوسُفَ عليه السلام ؛ فَلَمْ يَكُنْ يحتاجُ إلى لرِّعَايَةِ التي عَرَفَها في صِبَاهُ في أرضِ كَنْعَانَ لأَنَّهُ لنْ يُعَانِي مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الذينَ كَانُوا في زَمَنِهِ بضعَ عَشَرَاتٍ «آل يَعْقُوب»، فمَهَمَّتُهُ تَتَعَلَّقُ بِالمالِ وَالإِدَارَةِ وَالاقْتِصَادِ وَتهيئَةِ البلادِ لقُدُومِ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ، ولا تَتَعَلَّقُ بالمُعَانَاةِ مَعَ البَشَرِ لصِنَاعَةِ أُمَّةٍ ذَاتِ شَخْصِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ وَرِسَالَةٍ رَبَّانِيّةٍ كما كَانَتْ مَهَمَّةُ أَخِيهِ مُوسَى عليه السلام.

وبالنِّسْبَةِ لِلسِّجْنِ؛ فَقَدِ احتاجَهُ يُوسُفُ عليه السلام ليختلطَ بالعَامَّةِ في مِصْرَ وَيَعِيشَ آمالَ الفُقَرَاءِ المُعْدَمِينَ وَآلامَهُمْ، وَيَشْعُرَ النَّاسُ حِينَ يُمَكَّنُ لَهُ في الأَرْضِ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَإِلَيْهِمْ وَمِنْ جِلْدَتِهِمْ وَطِينَتِهِم، أَمَّا مُوسَى عليه السلام فرُغْمَ حياتِهِ في قَصْرِ فِرْعَوْنَ، فقَدْ كَانَ قَرِيبًا من العَامَّةِ من قَوْمِهِ من خلال

رَضَاعَتِهِ في بيت أُمِّه التي يُشْعِرُ السِّيَاقُ أنها كَانَتْ تَكْفُلُهُ في بَيْتِهَا لا مُجَرَّدَ رَضَاعٍ فَقَطْ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[1]. فَلَمْ يَكُنْ بحَاجَةٍ للسَّجْنِ لِيَتَعَرَّفَ عَلَى العَامَّةِ وَمَشَاكِلِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَآمَالِهِمْ.

وَكَانَ لا بُدَّ أَنْ يُغَادِرُ مُوسَى وَيُوسُفُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ إِنْ تَحَقَّقَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا الهدفُ المنشودُ من وُجُودِه في القَصْرِ، تُوَاجُهُهُمَا المصاعبُ وَالمشَاقُّ في المَرْحَلَة الأَخِيرَةِ التي تَسْبِقُ تَنْفِيذَ كُلٍّ مِنْهُمَا لمَهَمَّته! «وللرِّسَالَةِ تكاليفُهَا من المَشَقَّةِ وَالتَّجَرُّدِ وَالشَّظَفِ أَحْيَانًا، وَقُلُوبُ أَهْلِ القُصُورِ مهما تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً للتَّضْحِيَةِ بما اعْتَادَتْهُ مِنَ الخَفْضِ وَالدَّعَةِ وَالمُتْعَةِ لا تَصْبِرُ طَوِيلاً عَلَى الخُشُونَةِ وَالحِرْمَانِ وَالمَشَقَّةِ عِنْدَ معاناتها في وَاقع الحَيَاةِ. فَشَاءَتِ القُدْرَةُ التي تَنْقُلُ خُطَى مُوسَى عليه السلام أَنْ تخفضَ ما اعتادَتْهُ نَفْسُهُ من تِلْكَ الحَيَاةِ؛ وَأَنْ تَزُجَّ بِهِ في مُجْتَمَعِ الرُّعَاةِ، وَأَنْ تَجْعَلَهُ يَسْتَشْعِرَ النِّعْمَةَ في أَنْ يَكُونَ راعيَ غَنَمٍ يَجِدُ القُوتَ وَالمَأْوَى،بَعْدَ الخَوْفِ وَالمُطَارَدَةِ وَالمَشَقَّةِ وَالجُوعِ، وَأَنْ يَنْزَعَ مِنْ حِسِّهِ رُوحَ الاشْمِئْزَازِ مِنَ الفَقْرِ وَالفُقَرَاءِ،وَرُوحَ التَّأَفُّفِ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَأَخلاقهم وَخشونتهم وَسذاجتهم؛ وَرُوحَ الاسْتِعْلاءِ عَلَى جَهْلِهِمْ وَفَقْرِهِمْ وَرَثَاثَةِ هَيْئَتِهِمْ وَمَجْمُوعَةِ عَادَاتِهِمْ وَتقاليدهمْ، أَنْ يُلْقَى بِهِ في خِضَمِّ الحَيَاةِ كَثِيرًا بَعْدَ ما أَلقتْ بِهِ في خِضَمِّ الأَمْوَاجِ صَغِيرًا، لِيُمَرَّنَ عَلَى

١- سُورَة القَصَص: ١٢

تَكَاليفِ دَعْوَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّاهَا»[1].

وَقَدْ بيَّن النَّبِيُّ ﷺ الذي مَارَسَ رَعْيَ الغَنَمِ بنَفْسِهِ أَنَّ الرَّعْيَ مَرْحَلَةٌ أساسيَّةٌ في إِعْدَادِ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا في الحَدِيثِ الذي رَوَاهُ جَابِرُ بنُ عبدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جني الكَبَاثِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ مِنْهُ فإِنَّهُ أَطْيَبُهُ، قَالُوا: أَكُنْتَ تَرْعَى الغَنَمَ؟ قَالَ: وَهَلْ من نَبِيٍّ إلا وَقَدْ رعاها»[2]. «والكَبَاثُ ثَمَرُ الأُذْخُرِ أَوِ الأَرَاكِ، يُلازِمُ رَعْيَ الغَنَمِ عَلَى مَا أَلِفُوهُ، وَالحِكْمَةُ في رَعْيِ الأَنْبِيَاءِ للغَنَمِ أَنْ يأخُذُوا أَنْفُسَهُمْ بالتَّوَاضُعِ، وَتَعْتَادَ قُلُوبُهُمْ بِالخَلْوَةِ، وَيَرْتَقُوا من سِيَاسَتِهِمْ إلى سِيَاسَةِ الأُمَمِ. وَيَحْصُلُ لهُمُ التَّمَرُّنُ بِرَعْيِهَا عَلَى ما يُكَلَّفُونَهُ مِنَ القِيَامِ بِأَمْرِ أُمَّتِهِمْ وَلأَنَّ في مخَالَطَتِهَا مَا يُحَصِّلُ لهَمُ الحِلْمَ وَالشَّفَقَةَ؛ لأَنَّهم إذا صَبَرُوا عَلَى رَعْيِهَا وَجمْعِهَا بَعْدَ تَفَرُّقِهَا في المَرْعَى وَنَقْلِهَا مِنْ مَسْرَحٍ إلى مَسْرَحٍ وَدَفْعِ عُدُوِّهَا مِنْ سَبعٍ وَغَيْرِهَا كالسَّارِقِ، وَعَلِمُوا اخْتِلافَ طبائِعِهَا وَشِدَّةَ تَفَرُّقِهَا مَعَ ضَعْفِهَا وَاحْتِيَاجِهَا إلى مُعَاهَدَةٍ، أَلِفُوا من ذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَى الأُمَّةِ، وَعَرَفُوا اخْتِلافَ طِبَاعِها وَتفاوتَ عُقُولِهَا فَجَبَرُوا كسْرَها وَرَفقُوا بِضَعِيفِهَا وَأَحْسَنُوا التَّعَاهُدَ لها، فيَكُونُ تَحَمُّلُهُمْ لمَشَقَّةِ ذَلِكَ أَسْهَلَ مما لَوْ كُلِّفوا القِيَامَ بذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، لما يحصُلُ لَهُمْ مِنَ التَّدَرُّجِ عَلَى ذَلِكَ بِرَعْيَ

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/٢٦٩١.

٢- «صحيح البخاري» ٣٤٠٦.

الغَنَمِ. وخُصِّتِ الغَنَمُ بذَلِكَ لأنَّهَا أضْعَفُ من غَيْرِهَا؛ وَلأنَّ تَفَرُّقَهَا أكْثَرُ مِنْ تَفَرُّقِ الإبِلِ وَالبَقَرِ، لإمكانِ ضَبْطِ الإبِلِ وَالبَقَرِ بِالرَّبْطِ دُونَهَا في العَادَةِ المَأْلُوفَةِ وَمَعَ أكْثَرِيَّةِ تُفَرِّقُهَا، فهِيَ أسْرَعُ انْقِيَادًا مِنْ غَيْرِهَا» [1].

عَرَفْنَا حِكْمَةَ رَعْيِ الغَنَمِ في مِدْيَنَ عشر سَنَوَاتٍ.

فَمَا حِكْمَةُ هَذَا السَّفَرِ الطَّوِيلِ الشَّاقِّ إلى مِدْيَنَ ذهابًا وَإيابًا؟؟

وَمَا حِكْمَةُ ذَلِكَ وَدَوْرُهُ في عَمَلِيَّةِ الإعْدَادِ القِيَادِيِّ لمُوسَى عليه السلام؟

لقَدْ نَقَلَت يَدُ القُدْرَةِ خُطَى مُوسَى عليه السلام خُطْوَةً خُطْوَةً، منذ أنْ كَانَ رَضِيعًا في المهدِ حَتَّى هَذِهِ الحَلقَةِ . ألقتْ بِهِ في اليَمِّ لِيَلْتَقِطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، وَألقتْ عَلَيْهِ المَحَبَّةَ في قلبِ امْرَأتِهِ لينشأ في كَنَفِ عَدُوِّهِ، وَدخلتْ بِهِ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غفلةٍ من أهْلِهَا ليَقْتُلَ منهم نَفْسًا، وَأرْسَلَتْ إلَيْهِ الرَّجُلَ المُؤْمِنَ من آلِ فِرْعَوْنَ ليحذِّرَهُ وَينْصَحَهُ بِالخُرُوجِ منها. وَصَاحَبَتْهُ في الطَّرِيقِ الصَّحْرَاوِيِّ من مِصْرَ إلى مِدْيَنَ وَهُوَ وَحيدٌ مُطَارَدٌ عَلَى غَيْرِ زَادٍ وَلا اسْتِعْدَادٍ . وَجَمَعَتْهُ بالشَّيْخِ الكبيرِ ليأجُرَهُ هَذِهِ السَّنَوَاتِ العَشْرَ، ثُمَّ ليعودَ بَعْدَها فيَتَلَقَّى التَّكْلِيفَ. فَهَذَا خَطٌّ طَوِيلٌ من الرِّعَايَةِ وَالتَّوْجِيهِ، وَمِنَ التَّلَقِّي وَالتَّجْرِيبِ، قَبْلَ النداء وَقَبْلَ التَّكْلِيفِ وَتَجْرُبَةِ الرِّعَايَةِ وَالحبِّ وَالتدليلِ، وَتَجْرُبَةِ الانْدِفَاع تحتَ ضَغْطِ الغَيْظِ الحَبِيسِ، وَتَجْرُبَةِ النَّدَمِ

١- «فتح الباري» ابن حجر العسقلاني ٣٤٨/٥.

وَالتَّحَرُّجِ وَالاسْتِغْفَارِ، وَتَجْرُبَةِ الخَوْفِ وَالمُطَارَدَةِ وَالفَزَعِ، وَتَجْرُبَةِ الغُرْبَةِ وَالوَحْدَةِ وَالجُوعِ، وَتَجْرُبَةِ الخِدْمَةِ وَرَعْيِ الغَنَمِ بَعْدَ حَيَاةِ القُصُورِ، وَما يَتَخَلَّلُ هَذِهِ التَّجَارُبَ الضَّخْمَةَ من شَتَّى التَّجَارُبِ الصَّغِيرَةِ، وَالمَشَاعِرِ المتباينةِ، وَالخوالجِ وَالخواطر، وَالإِدْرَاكِ وَالمَعْرِفَةِ إلى جانبِ ما آتَاهُ اللّٰهُ حِينَ بَلَغَ أَشُدَّهُ من العِلْمِ وَالحِكْمَةِ .

إِنَّ الرِّسَالَةَ تَكْلِيفٌ ضخمٌ شاقٌ مُتَعَدِّدُ الجوانبِ وَالتَّبِعَاتِ؛ يحتَاجُ صَاحِبُهُ إلى زادٍ ضَخْمٍ مِنَ التَّجَارُبِ وَالإِدْرَاكِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّذَوُّقِ في وَاقِعِ الحَيَاةِ العَمَلِيِّ، إلى جانب هِبَةِ اللّٰهِ اللدنيَّةِ، وَوَحْيِهِ وَتَوْجِيهِهِ للقَلْبِ وَالضَّمِيرِ . فَلَمَّا أَنِ اسْتَكْمَلَتْ نَفْسُ مُوسَى عليه السلام تَجَارُبَهَا، وَأَكْمَلَتْ مِرَانَهَا وَدُرْبَتَهَا، بِهَذِهِ التَّجْرُبَةِ الأَخِيرَةِ في دَارِ الغُرْبَةِ، قادتْ يَدُ القُدْرَةِ خُطَاهُ مرَّةً أُخْرَى عَائِدَةً بِهِ إلى مَهْبَطِ رَأْسِهِ، وَمَقَرِّ أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ، وَمجالِ رِسَالَتِهِ وَعَمَلِهِ، سَالكةً بِهِ الطَّرِيقَ التي سَلَكَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَحِيدًا طَرِيدًا خَائِفًا يَتَلَفَّتُ. فما هَذِهِ الجيئةُ وَالذِّهَابُ في الطَّرِيقِ ذَاتِهَا؟

إنهُ التَّدْرِيبُ وَالمِرَانُ وَالخِبْرَةُ حَتَّى بِشِعَابِ الطَّرِيقِ الذي سَيَقُودُ فيهِ مُوسَى خُطَى قَوْمِهِ بِأمرِ رَبِّهِ، كَيْ يَسْتَكْمِلَ صِفَاتِ الرَّائِدِ وَخِبْرَتَهُ، حَتَّى لا يَعْتَمِدُ عَلَى غيرِهِ وَلَوْ في رِيَادَةِ الطَّرِيقِ، فَقَوْمُهُ كَانُوا في حَاجَةٍ إلى رائدٍ يَقُودُهُمْ في الصَّغِيرَةِ وَالكَبِيرَةِ، بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَهُمُ الذُّلُّ وَالقَسْوَةُ وَالتَّسْخِيرُ؛ حَتَّى فَقَدُوا القُدْرَةَ عَلَى التَّدْبِيرِ وَالتَّفْكِيرِ. وهَكَذَا نُدْرِكُ كَيْفَ صُنِعَ مُوسَى عَلَى عَيْنِ اللّٰهِ،وَكَيْفَ أَعَدَّتْهُ القُدْرَةُ لِتَلَقِّي التَّكْلِيفِ .

المُوَاجَهَةُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ عَمَلِيَّةِ الإِعْدَادِ القِيَادِيّ

بَعْدَ انتهاءِ مَرْحَلَةِ الابْتِلاءِ في السِّجْنِ لِيُوسُفَ عليه السلام وَمَرْحَلَةِ الابْتِلاءِ لِمُوسَى عليه السلام بالغُرْبَةِ وَالمُطَارَدَةِ في مِدْيَنَ، صَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا مُؤَهَّلاً وَمُعَدّاً إِعْـدَادًا كامِلاً لِمُوَاجَهَةِ مَهَمَّتِهِ وَالقِيَامِ بها عَلَى أَكْمَلِ وَجْـهٍ. وَتَمَّ تزويدُ مُوسَى عليه السلام بِبُرْهَانِ صِدْقِهِ وَنُبُوَّتِهِ فكَانَتْ مُعْجِزَتُهُ عَصًا يُلقِيهَا فَتَتَحَوَّلُ إلى حَيَّةٍ تَسْعَى، وَيَدَهُ يُدْخِلُهَا في جيبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ من غير سُوءٍ. وهِيَ مُعْجِزَةٌ تَتَنَاسَبُ مَعَ عَصْرِهِ وَزَمَانِهِ وَما اشْتُهِرَ فيه من السِّحْرِ، حَيْثُ شَكَّلَ السَّحَرَةُ في مِصْرَ طبقَةً خَاصَّةً لهَا فُنُونُهَا وَخِدَعُهَا وَنُفُوذُهَا حَتَّى في قَصْرِ فِرْعَوْنَ،وَشَكَّلُوا دِعَامَةً أساسِيَّةً لحُكْمِهِ وَسُلْطَانِه بَيْنَ العَامَّةِ وَالغَوْغَاءِ؛ وَلهَذَا راهُنَّ فِرْعَوْنُ عَلَى السَّحَرَةِ أَنْ يَهْزِمُوا عَصَا مُوسَى عليه السلام بِزِيفِ سِحْرِهِمْ وَبُطْلانِه، إلا أَنَّ بُرْهَانَ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقَهَ كَشَفَ الغِطَاءَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فآمَنُوا بِدَعْوَتِهِ، وَصَارُوا نَمَاذِجَ في الإيمانِ وَالتَّضْحِيَةِ وَالبَذْلِ وَالشَّهَادَةِ.

«أَمَّا يُوسُفُ عليه السلام فقَدْ زُوِّدَ بِمُعْجِزَةِ التَّأْوِيلِ بُرْهَانًا عَلَى صِدْقِهِ وَنُبُوَّتِهِ، وَالرُّؤْيَا «هِيَ ما يَرَاهُ النَّاسُ في المَنَامِ لِيُوسُفَ عليه السلام فَإِنَّهُ لَمْ يَلْحَقْهُ بها خَطَأٌ»[1]. وهِيَ تَتَنَاسَبُ مَعَ عَصْرِهِ حَيْثُ كَانَ الاهْتِمَامُ وَاضِحًا بالأَحْلامِ

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/٥١١ .

وَالجميعُ يَطْلُبُ لها تَـأْوِيـلاً، فنَجِدُ اهْتِمَامَ يَعْقُوب عليه السلام بتَأْوِيلِ ما رآه وَلَدُهُ يُوسُفُ عليه السلام فيُعَبِّرُ الرُّؤْيَا عَلَى أَنَّهَا اجْتِبَاءٌ لِوَلَدِهِ وَتعليمٌ له بتَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَإِتْمَـامِ النِّعْمَةِ عَلَى يُوسُفَ عليه السلام وَآلِ يَعْقُوب امتدادًا لإِنْعَامِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى أَبَوَيْهِ مِنْ قَبْلُ إِسْحَقَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوب كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيم وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1]. «وَالاجْتِبَاءُ هُوَ اخْتِيارُ مَعَالي الأُمُورِ للمُجْتَبِي، وَأَصْلُهُ مِنْ جِبْتُ الشَّيْءَ : أَيْ حَصَّلْتُهُ، وَمنه جَبَتِ الماءُ في الحَوْضِ»[2].

فَأَيُّ اجْتِبَاءٍ هَذَا الذي يبشره يَعْقُوب عليه السلام لِوَلَدِهِ الصَّغِيرِ؟؟ وَأَيُّ اجْتِبَاءٍ وَنَحْنُ نراهُ يُلقَى بِهِ في الجُبِّ صَغِيرًا بيَدِ إِخْوَتِهِ؟؟ ثُمَّ يُبَاعُ رَقِيقًا بيَدِ السَّيَّارَةِ في مِصْرَ، ثُمَّ يُلْقَى في السِّجْنِ بَرِيئًا بمَكْرِ امْرَأَة العَزِيز وَكَيْدِهَا.

لقَدْ ظَهَرَ الاجْتِبَاءُ بَعْدَ اكتمالِ عَمَلِيَّةِ الابْتِلاءِ «الإِعْدَاد» وَبَلَغَ يُوسُفُ عليه السلام مَعَالي الأُمُورِ، فَالاجْتِبَاءُ طَرِيقةُ الابْتِلاءِ، وَيَزْدَادُ كُلَّمَا زَادَتْ دَرَجَةُ وَمُسْتَوى الاجْتِبَاءِ، فهَلا أَدْرَكَ أَهْلُ البِلادِ في المَنَافِي وَالسُّجُونِ مَا هُمْ فيهِ مِنَ اجْتِبَاءٍ ؟؟

ويُعَبِّرُ السِّيَاقُ القُرْآنِيّ عن بُلُوغِ يُوسُفَ عليه السلام مَرْحَلَةَ الاجْتِبَاءِ بِقَوْلِهِ

١- سُورَة يُوسُف : ٦.

٢- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/١٢٩.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. فيما يُعَبِّرُ السِّيَاقُ القُرْآنِيّ بالتَّعْبِيرِ ذَاتِهِ عِنْدَ الحَدِيثِ عن شِرَاءِ عَزِيزِ مِصْرَ لِيُوسُفَ عليه السلام وَأَمْرِهِ زَوْجَهُ أَنْ تُكْرِمَ مَثْوَاهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ عِبَارَةَ (يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)، فَلِمَاذَا لَمْ تَكُنِ الإِضَافَةُ كَمَا فِي المَوْضِعِ الآخَرِ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]. صَحِيحٌ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ مَحَلَّ تَرْحِيبٍ وَاحْتِفَاءٍ وَتَكْرِيمٍ فِي قَصْرِ العَزِيزِ وَكَانَ فِي رِعَايَةِ العَزِيزِ لَهُ تَمْكِينٌ فِي مِصْرَ وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْدًا، وَدَخَلَ القَصْرَ مِنْ بَوَّابَةِ العبوديَّةِ وَالرِّقِّ، فَلَمْ يَكُنْ سَيِّدَ نَفْسِهِ،وَلَكِنَّهُ بقي عَبْدًا اشْتَرَاهُ الرَّجُلُ بمالِهِ، فلا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَلا الحَرَكَةَ بِقَرَارٍ ذَاتِيٍّ وَبِالتَّالي لا يَلِيقُ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ (يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ).

أَمَّا فِي المَوْضِعِ الآخَرِ، فقَدْ خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ حُرًّا وَلَمْ يعد مُلْكًا لأحَدٍ. أو(فتىً) من فتيانِ العَزِيزِ أو المَلِكِ، بَلْ صَارَ الحَاكِمَ الفِعْلِيَّ المُتَنَفِّذَ فِي البِلادِ (العَزِيزِ) بِيَدِهِ خَزَائِنُها وَأرزاقُ أَهْلِهَا وَأقواتهم، فَكَانَ وَبحقٍّ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ فكَانَتِ الزيادةُ فِي الوَضْعِ الآخَرِ غايَةً فِي البَلاغَةِ وَالدِّقَّةِ

١- سُورَة يُوسُف : ٢١.

٢- سُورَة يُوسُف : ٥٦.

وَالحِكْمَةِ.

وَيُجْتَبَى مُوسَى عليه السلام فيُلقَى في اليمِّ صَغيرًا وَيَهْرُبُ من مِصْرَ في شَبَابِهِ إلى مِدْيَنَ طَرِيدًا، وَيَعيشُ في المَنْفَى عَشْرَ سَنَوَاتٍ بَعيدًا عن أَهْلِهِ وَوطنِهِ في رَعْيِ الغَنَمِ إلى أَنْ بلغَ مَرْحَلَةَ الاجْتِبَاءِ بَعْدَ طُولِ مِحْنَةٍ وَتمْحِيصٍ وَبَلاءٍ!! وقَدْ سُئِلَ أَحَدُ السَّلَفِ: «يُبْتَلَى الرَّجُلُ أَوَّلاً أَمْ يُمَكَّنُ لَهُ؟ فقَالَ: لا يُمَكَّنُ له حَتَّى يُبْتَلَى»[1].

وَالرُّؤْيَا لَمْ تَكُنْ منْ مَشَاغِلِ المَلِكِ وَحْدَهُ في مِصْرَ بَلْ كَانَتْ تَشْغَلُ العَامَّةَ أَيْضًا،وَيبلغ اهْتِمَامُ المَلِكِ بِالرُّؤْيَا أَنْ يجمع مُسْتَشَارِيهِ وَحَاشِيَتَهُ «الملأ» لِتَعْبِيرِ رُؤْيَا رآهَا في مَنَامِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[2]. ونَرَى انْشِغَالَ العَامَّةِ وَاهْتِمَامَهُمْ بِالرُّؤْيَا مُمَثّلاً في صَاحِبَيْ يُوسُفَ عليه السلام في السِّجْنِ اللذَيْنِ يَطْلُبَانِ منه تَأْوِيلَ رُؤْيَا كُلٍّ مِنْهُمَا، فيُعَبِّرُها عليه السلام أَنَّ أَحَدَهُمَا يُصْلَبُ وَالآخَرُ يُقَرِّبُهُ المَلِكُ إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

١- الامام الشافعي

٢- سُورَة يُوسُف : ٤٣.

٣- سُورَة يُوسُف : ٣٦.

ولا يَقْنَعُ المَلِكُ بِرَدِّ حَاشِيَتِهِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ تخْلِيطٍ في النَّوْمِ، فَيَبْدَأُ البَحْثُ عَمَّنْ يُؤَوِّلُهَا حَتَّى يَتَذَكَّرُ صَاحِبُ يُوسُفَ عليه السلام رفيقَهُ الذي تَرَكَهُ وَرَاءَهُ في السِّجْنِ، وَنَسِيَ أَنْ يَذْكُرَهَا لسَيِّدِهِ فَتَكُونُ نَجَاةُ يُوسُفَ عليه السلام بموهبة التَّأْوِيلِ وَيمكّن اللّٰهُ تَعَالَى له في الأَرْضِ. ولَكِنَّنا نَجِدُ يُوسُفَ عليه السلام يرفضُ الخُرُوجَ من السِّجْنِ حِينَ يُرْسِلُ إِلَيْهِ المَلِكُ رَسُولَهُ، مُطَالِبًا بِبَرَاءَتِهِ أَوَّلاً، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾[1].

وبَعْدَ أَنْ تَثْبُتَ بَرَاءَةُ يُوسُفَ عليه السلام يُرْسِلُ إِلَيْهِ المَلِكُ مرَّةً ثانيةً وَلَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةِ يُغَيِّرُ كَلِمَاتِ الدَّعْوَةِ المُوَجَّهَةِ إِلَى يُوسُفَ عليه السلام فيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾[2]. فَحِينَ لجَأَ إلى الخَلْقِ لَبِثَ يُوسُفُ عليه السلام في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ، وَحِينَ لجَأَ إلى الخَالِقِ وَحْدَهُ كَانَ لَهُ الفَرَجُ وَالتَّمْكِينُ !!

وهَكَذَا نَجِدُ مُعْجِزَةَ (مَوْهِبَةَ) القَائِدِ في الحَالَتَيْنِ تَتَنَاسَبُ مَعَ عَصْرِهِ وَزَمَانِهِ وَما برَعَ وَاشْتُهِرَ بِهِ قَوْمُهُ، وَلِهَذَا كَانَ القُرْآنُ مُعْجِزَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ كَانَ العَصْرُ الذَّهَبِيُّ الذي بَلَغَهُ العَرَبُ في الفَصَاحَةِ وَالبَلاغَةِ، وَلئِنْ كَانَ يُوسُفُ عليه السلام نَاجِحًا في إنجازِ مَهَمَّته وَتَوَلَّى الخَزَائِنَ وَأحضَرَ أَهْلَهُ من

١- سُورَة يُوسُف : ٥٠.

٢- سُورَة يُوسُف : ٥٤.

فلَسْطِينَ إلى مِصْرَ، بالسِّيَاسَةِ وَالإِقْنَاعِ، فإنَّ مُوسَىعليه السلام وَاجَهَ نَوْعًا من المُلُوكِ المُتَغَطْرِسِينَ المُسْتَعْلِينَ عَلَى الخَلْقِ (فِرْعَوْنَ) فَلَمْ تُفْلِحْ مَعَهُ السِّيَاسَةُ وَالإِقْنَاعُ فَلَزِمَهُ الخَلْعُ وَالاقْتِلاعُ، ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وهِيَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ في التَّغْيِيرِ أنْ يُبْدَأَ بالإِقْنَاعِ وَالدَّعْوَةِ السلميَّةِ وَالعَمَلِ السِّيَاسِيِّ، فإنْ لَمْ يفْلحْ وَتَمَّ مواجَهَتُهُ بالبَطْشِ وَالطُّغْيَانِ كَانَ لا بُدَّ من يدٍ تَجْتَثُّ البَاطِلَ وَتُبِيدُ خَضْرَاءَ الطَّوَاغِيتِ، وَكأنَّهَا رِسَالَةٌ لِلحَبِيبِ مُحَمَّد ﷺ بَعْدَ انقضاءِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةٍ عَلَى دَعْوَتِهِ لكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَكُبَرَائِهَا سَيُحَقِّقُ غايَتَهُ وَهدَفَهُ بالقُوَّةِ وَالجِهَادِ كَمَا حَصَلَ مَعَ أخيهِ مُوسَىعليه السلام بَعْدَ أنْ فَشِلَ أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ وَالإِقْنَاعِ مَعَ قَوْمِهِ كما كَانَتْ تَجْرُبَةُ أخيهِ يُوسُفعليه السلام .

وَقَبْلَ أنْ تَتَحَقَّقَ رُؤْيَا يُوسُفعليه السلام نَجِدُه يَسْتَخْدِمُ الحيلةَ في إحْضَارِ أبيهِ وَإِخْوَتِهِ إلى مِصْرَ فَيَأْخُذُ إلَيْهِ أخَاهُ بِنْيَامِينَ بَعْدَ دسِّ الصِّواعَ في رَحْلِهِ، ليأتِيَهُ إخْوَتُهُ بَعْدَها يَسْتَنْجِدُونَهُ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهم: ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2].

وَهُوَ الوَصْفُ ذَاتُهُ الذي اسْتَخْدَمَتْهُ الفَتَاتَانِ في الحَدِيثِ عنْ أبِيهِمَا، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهما: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ**

١- سُورَة القَصَص : ٤٠.

٢- سُورَة يُوسُف : ٧٨.

النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1].

وفي الحَالَتَيْنِ تُذْكَرُ الشَّيْخُوخَةُ وَالكِبرُ لجَلْبِ الاسْتِعْطَافِ وَالمُسَاعَدَةِ، وَلَكِنَّ المفاجأة أَنَّ يَعْقُوب عليه السلام الذي صَبَرَ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ الحَبِيبِ يُوسُف عليه السلام كُلَّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ صَبْرًا جميلاً لا يحْتَمِلُ فَقْدَ بِنْيَامِينَ، فَتَبْيَضُّ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ، فَلقَدْ كَانَ فَقْدُهُ لِوَلَدِهِ بِنْيَامِينَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ حُزْنِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى فَقْدِ يُوسُف عليه السلام، وَكَانَ وَقْتها قَدْ تقدَّمَت بِهِ السِّنُّ، وَقلَّ احْتِمَالُهُ للأَحْزَانِ وَالمصَائِبِ وَزادَتْ مَشَاعِرُهُ وَعَوَاطِفُهُ وَضَعُفَ جَسَدُهُ وَوَهَنَ عَظْمُهُ، فَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مِنَ القُوَّةِ الجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ السِّنِين ما يحتَمِلُ بِهِ فَقَدَ وَلَدَهُ بِنْيَامِينَ.

وَالإِنْسَانُ يُبْتَلَى وَتَنْزِلُ بِهِ المُصِيبَةُ فَيَحْتَمِلُهَا وَيَتَجَدَّدُ وَيَصْبِرُ، فإذا نَزَلَتْ بِهِ مُصِيبَةٌ ثانِيةٌ مُشَابِهةٌ لِلأُولَى ذَكَّرتْهُ بِسَابِقَتِهَا، وَنكَأَتْ عليه جُرْحَهُ القَدِيمَ، وَهَذَا ما حَصَلَ مَعَ يَعْقُوب عليه السلام حِينَ نَزَلَتْ بِهِ المُصِيبَةُ الثَّانِيَةُ بِفَقْدِ بِنْيَامِينَ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُعَبِّرًا عن حَالِهِ: **﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾**[2]. «وَقَدْ

١- سُورَة القَصَص: ٢٣.

٢- سُورَة يُوسُف: ٨٤.

تَبْيَضُّ العينُ وَيبقَى شَيْءٌ من الرُّؤْيَةِ»[1]، فقَدْ كَانَ فَقْدُهُ للبَصَرِ كُلِّيًّا كَمَا يُشِيرُ السِّيَاقُ، فَالتَّعْبِيرُ لا يَدُلُّ عَلَى العَمَى الكامِلِ (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) وَلَمْ يَكُنْ نَاجِمًا عنْ خَلَلٍ عضويٍّ بَلْ عن حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ (مِنَ الْحُزْنِ) فقَدْ ضَعُفَ بَصَرُهُ مِنْ كَثْرَةِ البُكَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ الدَّمْعَ يَكْثُرُ عِنْدَ غَلَبَةِ البُكَاءِ فَتَصِيرُ العَيْنُ كأَنَّهَا بَيْضَاءُ مِنْ ذَلِكَ المَاءُ الخَارِجُ مِنْهَا.

ولهَذَا لا اسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ ارْتِدَادُ بَصَرِهِ عِنْدَمَا أُلْقِيَ عَلَى وَجْهِهِ قَمِيصُ وَلَدِهِ الحَبِيبِ يُوسُفَ عليه السلام نَاجِمًا أَيْضًا عن حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ،كمنْ يَتَعَرَّضُ لمُصِيبَةٍ يَفْقِدُ عَلَى إِثْرِهَا النُّطْقَ فيَتَعَرَّضُ لحَادِثَةٍ أُخْرَى شَدِيدَةِ الوَقْعِ تُعِيدُ إِلَيْهِ النُّطْقَ، خُصُوصًا أَنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام كما يُشِيرُ إِلَيْهِ السِّيَاقُ القُرْآنِيّ (كَظِيمٌ) يَحْبِسُ مَشَاعِرَ الحُزْنِ فِي قَلْبِهِ لا يُلَوِّحُ بها ،ممَّا ضَاعَفَ مِنْ تَأْثِيرِ الحُزْنِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كُنْتُ لا أَسْتَبْعِدُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ كَرَامَةً وَمُعْجِزَةً من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلا يَحُولُ دُونَ قُدْرَتِهِ حَائِلٌ.

أَمَّا مَشَاعِرُ الأُمِّ لِفَقْدِ وَلَدِهِ فَتُصَوِّرُهَا القَصَصُ أَكْثَرَ حَرَارَةٍ وَأَقَلَّ للصَّبْرِ احْتِمَالاً، فانْظرْ حَالَ يَعْقُوبَ عليه السلام حِينَ فَقَدَ يُوسُفَ عليه السلام صَغِيرًا، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[2]، لقَدْ تَلَقَّى المُصِيبَةَ

١- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٥/٢١٦.

٢- سُورَة يُوسُف : ١٨.

بِصَبْرٍ جميلٍ لا يَشْكُو وَلا يَتَذَمَّرُ، بَلْ صَبرُ السَّنَوَاتِ الطِّوالَ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ حَتَّى كَانَتْ مُصِيبتُهُ الثَّانِيَةُ التي أَفْقَدَتْهُ بَصَرَهُ جُزْئِيًّا فَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ.

أَمَّا أُمّ مُوسَى فنَجِدُها مُنْذُ اللحْظَةِ الأُولَى التي فَقَدَتْ فيها وَلَدَهَا تُوشِكُ عَلَى البَوْحِ بِأَمْرِهِ وَكَشْفِ سِرِّه بَيْنَ النَّاسِ لولا رَبْطُ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى قلبِهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ تحمُّلَ الأُمِّ وَقُدْرَتَهَا عَلَى كَبْتِ مَشَاعِرِها تجاهَ وَلَدِهَا أَضْعَفُ بِكَثِيرٍ مِنَ الأَبِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [1]، أَيْ فَارِغًا من كُلِّ شَيْءٍ إلا من مُوسَى عليه السلام لِفَرْطِ حُبِّهَا لَهُ وَتَعَلُّقِهَا بِهِ[2]، ﴿**إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ**﴾ أَيْ أَنَّهَا «كادَتْ أَنْ تُظْهِرَ أَمْرَهُ وَتَصِيحَ عِنْدَهُ عِنْدَ لِقَائِهِ: وَآ إِبنَاهُ!!!» [3].

ولا نَنْسَى أَنَّ أُمَّ مُوسَى فَعَلَتْ مَا لَمْ تَفْعَلْهُ أُمٌّ ، فقَدْ أَلقتْ وَلَدَهَا وَفَلْذَةَ كَبِدِهَا في اليَمِّ اسْتِجَابَةً لإلهامٍ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ،فهِيَ تَشْعُرُ أَنَّهَا المَسْئُولَةُ عَنْ أَيِّ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ أَوْ أَيِّ سُوءٍ يمسُّهُ، فَكَادَتْ أَنْ تُبْدِيَ بِهِ وَ«تُذِيعَ أَمْرَهَا لِلنَّاسِ، وَتهْتِفَ بَيْنَهُمْ أَنَا أَضَعْتُهُ، أَنَا أَضَعْتُ طِفْلِي، أَنَا أَلْقَيْتُهُ في اليَمِّ

١- سُورَة القَصَص : ١٠.

٢- انظر: «زاد المعاد» ابن القيم ٤/٢٤٥.

٣- «الجامع لأحكام القُرْآن» القُرْطُبِيّ ٧/٢٣١.

اتِّبَاعًا لهَاتِفٍ غَرِيبٍ»[1].

فيا لَرَوْعَةِ وَدِقَّةِ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيّ عن مَشَاعِرِ الأُبُوَّةِ وَالأُمُومَةِ ؟!

وَتُخْتَتَمُ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام بِتَحْقِيقِ رُؤْيَاه، وَنَرَاهُ وَقَدْ أَتَمَّ اللّٰهُ عليه نِعْمَتَهُ وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتَهُ، وَآتَاهُ خَزَائِنَ الأَرْضِ، وَمَكَّنَ لَهُ فيهَا لِيَتَبَوَّأَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، وَمُتَوَجِّهًا إلى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ وَإِنَابَةٍ يُنَاجِيهِ: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[2].

فيما تُخْتَتَمُ سُورَةُ القَصَصِ بمَشْهَدِ قَارُونَ وَقَدْ آتَاهُ اللّٰهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ، فَيُقَابِلُ النِّعْمَةَ بِالبَطَرِ وَالكِبَرِ،وَيَخْسِفُ اللّٰهُ الأَرْضَ بِهِ وَبِدَارِهِ، فَمُقَابِلُ يُوسُفَ عليه السلام الذي يُوفِي الكَيْلَ وَيُحْسِنُ الضِّيَافَةَ وَاسْتِقْبَالَ المحْتَاجِينَ من مِصْرَ وَمُحِيطِهَا الإِقْلِيمِيِّ نَرَى نَمُوذَجَ قَارُونَ المُتَكَبِّرِ البَاغِي عَلَى قَوْمِهِ المُغْتَرِّ بمَالِهِ، المُنْكِرِ لِفَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْهِ وَنِعْمَتِه، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِه: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ**

١- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥/ ٢٦٨٠.

٢- سُورَة يُوسُف : ١٠١ .

﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1]. «وَبَعْدَ أَنْ عَرَضَتِ القَصَصُ قُوَّةَ السُّلْطَانِ وَالحُكْمِ وَكَيْفَ بَاءَتْ بِالبَوَارِ مَعَ البَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالكُفْرَانِ باللهِ وَالبُعْدِ عَنْ هُدَاهُ، تجِيءُ قِصَّةُ قَارُونَ لِتَعْرِضَ سُلْطَانَ المَالِ وَالعِلْمِ، وَكَيْفَ ينْتَهِي بِالبَوَارِ مَعَ البَغْيِ وَالكُفْرِ وَالاسْتِكْبَارِ عَلَى الخَلْقِ وَجُحُودِ نِعْمَةِ الخَالِقِ»[2].

وَكَمَا تحَقَّقَتْ رُؤْيَا يُوسُفَ عليه السلام فِي نِهَايَةِ قِصَّةِ يُوسُفَ يُحَقَّقُ الوَعْدُ لأُمِّ مُوسَى عليه السلام حِينَ كُلِّفَ بِالرِّسَالَةِ لَدَى عَوْدَتِهِ من مِدْيَنَ إلى مِصْرَ «إذا فَهُوَ الوَعْدُ الذي تَلَقَّتْهُ أُمّ مُوسَى وَهُوَ طِفْلٌ رَضِيعٌ ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]، الوَعْدُ اليَقِينُ الذي انْقَضَتْ عَلَيْهِ السِّنُونَ»[4].

وَأَخْتِمُ كَلامِي فِي هَذَا البَحْثِ بِأَجْمَلِ وَأَرْوَعِ الكَلامِ، كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ آيَةٍ فِي سُورَةِ يُوسُفَ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5]. سَائِلاً مَوْلايَ سُبْحَانَهُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الاعْتِبَارِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ وَأَنْ أَكُونَ قَدْ وُفِّقْتُ مِنْ خِلالِ هَذَا البَحْثِ فِي إِضَافَةِ لَبِنَةٍ

١- سُورَة القَصَص : ٧٨.

٢- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٢٧١٠.

٣- سُورَة القَصَص : ٧.

٤- «الظلال» سَيِّد قُطُب ٥٢٦٩٣.

٥- سُورَة يُوسُف : ١١١.

جَدِيدَةٍ إلى هَذَا المَجْهُودِ الضَّخْمِ الذي بَذَلَهُ أَبْنَاءُ الأُمَّةِ عبر العُصُورِ لِفَهْمِ وَتَدَبُّرِ هَذَا الكِتَابِ العَظِيمِ. وَأَنْ يَكُونَ بَحْثِي مُحَفِّزًا لأَهْلِ التَّدَبُّرِ، وَالتَّأَمُّلِ لمزيدٍ من البَحْثِ وَالاعْتِبَارِ ليَظَلَّ القُرْآنُ حاديَ مسيرتِنَا وَقَائِدًا لأُمَّتِنَا يُعِيدُهَا الشَّهَادَةَ عَلَى البَشَرِيَّةِ .

جَعَلَهُ اللهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ مُتَقَبَّلاً عِنْدَهُ

اللهُمَّ اغْفِرْ لي سُمْعَتِي وَرِيَائِي

وَعَجِّلْ لي وَلأَسْرَى المُسْلِمِينَ بِالفَرَجِ القَرِيبِ

وَآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَضْلِهِ...

وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرحمة اللهِ وَبركاتُهُ ...

العَبْدُ الفَقِيرُ إلى الله :

أَيْمَن مُحَمَّد حَسَن فَيَّاض قَفِيشَة «أبُو عُبَيْدَة».

سِجْنُ نَفْحَة الصَّحْرَاوِيّ

١٧ صفر ١٤٢٨ هـ الموافق ٧-٣-٢٠٠٧م

فِهْرِس المُحْتَوَيَاتِ

الإِهْدَاء ٥

شُكْرٌ وَتَقْدِير ٧

تَقْدِيم ١١

مُقَدِّمَة ١٥

الفَصْلُ الأَوَّلُ:

مُرَافَقَةٌ وَتَزَامُنُ القَصَصِ مَعَ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ ٢٧

مَفَاتِيحٌ عَامَّةٌ ٢٩

مُلابَسَاتٌ رَافَقَتْ نُزُولَ السُّورَتَيْنِ ٣٢

الفَصْلُ الثَّاني:

وَحْدَةٌ في الرِّسَالَةِ وَاخْتِلافٌ في المَهَمَّاتِ ٤٧

الفَصْلُ الثّالِثُ:

السِّمَاتُ الشَّخْصِيَّةُ لِيُوسُفَ وَمُوسَى ٦٣

يُوسُفُ الكَرِيم ٦٥

جُودٌ بِالخِبْرَةِ ٧٠

يُوسُفُ المُحْسِنُ ٧٤

يُوسُفُ الصَّدِيق ٧٩

يُوسُفُ المُخْلِص ٧٩

مُوسَى الانْفِعَالِيّ ٨٣
مُوسَى المُتَرَقِّب ٨٨
مُوسَى المُطَارَد ٨٩
الاسْتِعَانَة بِالخِبْرَات ٩٣
مُوسَى المُتَعَطِّشُ لِلمَعْرِفَة ٩٤
مُوسَى المُبْغِضُ لِلظُّلْمِ ٩٧
مُوسَى المُصْلِح ٩٨

الفَصْلُ الرَّابِع: دَوْرَاتٌ تَدْرِيبِيَّةٌ ٩٩
قُوَّةُ مُوسَى ١١٦
حُسْنُ يُوسُفَ ١١٦

الفَصْلُ الخَامِس:
اخْتِلافُ العَصْرِ وَالزَّمَانِ لِبِعْثَةِ كُلٍّ مِنْ يُوسُف ومُوسَى ١١٩

الفَصْلُ السَّادِسُ:
مَرَاحِل الإِعْدَاد القِيَادِيّ في سُورَتَيْ يُوسُفَ والقَصَص ١٦٣
إِعْدَادٌ يَبْدَأُ مِنَ الطُّفُولَةِ ١٦٨
إِبْعَادٌ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ البِيئَةِ ١٧٤
بَيْنَ قَصْرِ فِرْعَوْنَ وَقَصْرِ العَزِيز ١٧٧
غُرْبَةٌ وَقَيْدٌ ١٨٦
المُوَاجَهَةُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ عَمَلِيَّةِ الإِعْدَادِ القِيَادِيّ ١٩٦